حَيَاتِي فِي حِكَايَاتِي

حَسَن الشّافِعي

رئيس مجمع اللغة العربية
وعضو هيئة كبار العلماء

4.12.2017



حياتي في حكاياتي

حَسَن الشّافِعي

رئيسُ مَجمعِ اللُّغةِ العربيّةِ

وعضوُ هَيئةِ كِبارِ العُلماءِ



دار الغرب الإسلامي

تـونـس

الطبعة الأولى

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

دار الغرب الإسلامي

العنوان : ص. ب. 677، تونس 1035



إهداء

إلى الأزهر الشريف

(بداية الحكاية)

حياتي في حكاياتي: نبشٌ في الذاكِرةِ، ورقمٌ على الوَرقِ، أُريقُ فيه الحِبرَ، الممزوجَ بالهَمِّ والأسَى، والذَّاتِ والأنا، والألَمِ والأمَلِ، رِسالَةً مِن جيلٍ يَنزِلُ على السَّفحِ إلى جيلٍ يَشرَعُ في الصُّعودِ، وحوارًا بينَ قرنَيْنِ؛ العشرين والحادي والعشرين. وذلك بعد أن صافحتُ - من عمري - الخامسة والثمانين.

قولوا: إنها شيء بين التاريخ والسِّيرةِ الذاتيةِ، بين «الحَكْيِ العاديِّ» و«القصص الفنِّيِّ»، بين «المحادثةِ الأخويَّةِ» و «الحكايةِ الأدبيَّةِ». وربما يأتي يومٌ يقولُ قارئٌ أو مستمِعٌ: يرحمُه اللهُ لقد أنصفَ نَفْسَه وأنصَفَنا، وشقَّ طريقًا جديدًا في تقديمِ السِّيرةِ الذاتيَّةِ.

لم أتصنَّع أو أتمنَّع إذ وَجدتُ نفسي تدفعُني إلى روايتها، وكلماتي تتجمع لحكاياتها، وقلمي يَندفِعُ - على غير عادتِه معي - ليسجِّلها، والحِبر المسكين المراق يختلط بهمومي وهمتي، وحُلمي وقصتي، ووطني وأمتي.

مزيج من أنس التواصل والبوح، و «الدردشة» والإفضاء، والحوار مع الأماكن والأشخاص، والأحداث والأشياء، أرجو ألا يعدم قارئًا صديقًا يشاركني مرارة الشكوى، ويلمح في الوقت نفسه شرارة الفحوى:

ولا بُدَّ مِن شَكوَى إلى ذِي مروءةٍ يواسيكَ أو يُسلِيكَ أو يتوجعُ!

كل الرواة لسيرهم الذاتية يقلدون «العميد» - رحمه اللّه: «وقال الفتى

لأستاذه الشيخ»، وهاأنذا أخوض في الحكايات، والمواقف الملتقطات، وفيها الخلاصة والعبرة، والحادثة والفكرة، والتجربة والسيرة.

وعلى اللَّه قصدُ السبيل،

حسن الشافعي

القاهرة - الدقي

في ١٦ من ربيع الآخر ١٤٣٦هـ

الموافق ٥ من فبراير ٢٠١٥م

(١) مُنقِذُ مِصرَ

كانت أوَّلَ سَنةٍ لي في «مِصرَ»، ما كُنَّا نسمِّيها «القاهرةَ» عندئذٍ. وعرفتُ فيما بعدُ أنَّ إخوانَنا السُّوريين يسمُّون مدينَتهم «دمشق»: «الشَّام»؛ كأنَّها تُلَخِّصُ الإقليمَ كُلَّه.

وكنت صبيًّا صغيرًا في الثالثةَ عَشْرَةَ، قادمًا لتوِّي مِنَ الصَّعيدِ الأدنَى «بني سويف»؛ لبدءِ دِراسَتي الأزهريَّةِ بالقاهرةِ.

وقد أوشكت الحرب العالمية الثانية أن تضع أوزارها،عن عاتق العالم الذي حصدت من أهله ستين مليون قتيل، وعن الإمبراطورية العجوز التي أنهكتها الحرب تمامًا، فأَسلمَت رايةَ القيادةِ راغمةً إلى القُوَّةِ الجديدةِ الصَّاعِدَةِ «أمريكا»، وعن مصر التي استنزف جنودُ بريطانيا المحاربون في «العلمين» مواردها، حتى أكلنا - ونحن نزرع القمح والذرة - خبز الشعير حقيقة لا مجازًا!

نعم، صبى صغير، وصعيدي، ولكن مثقف سياسيًّا، أقرأُ لأبي، منذ مطلع الأربعينيات، جريدة «الأهرام» يوميا، الأخبار العالمية والمحلية، وقصائد على الجارم ومحمد الأسمر.

سكنت مع أخي الأكبر «الأستاذ عبد اللطيف» الذي يعملُ موظفًا إداريًّا بسكك حديد مصر، بالمنزل رقم (٤) بدرب الحجر في حي عابدين، كنت أظنه في البداية سمِّي بذلك لأنه مرصوف بقطع الحجارة الكبيرة، وفي أوله منزل إسماعيل باشا أبو جبل، أحد قادة الحرس

الملكي من أصل سوداني، وأمام منزله حارة «التمساح» التي تربط الدرب بشارع الشيخ ريحان، حيث قصر عابدين نفسه، ونهاية درب الحجر - أو بدايته - تصب في شارع «الخليج المصري» - بورسعيد الآن - أمام تكية السلطان محمود، والمدرسة الخيرية الإسلامية، التي أسسها الشيخ محمد عبده، وعمل فيها حسن البنا.

وفي وسط الشارع، الدرب، محل «المكوجي»، قال لي أخي: خذ هذا القميص «الأفرنجي»، وقل «للأوسطى»: أرجوك، عنده مشوار عاجل.. أجلسني الرجل على كرسي فوق الرصيف، وشرع ينفث الماء من فمه، ويقلب القميص بين يديه، ويمسح المكواة في المائدة، ينظفها ويلاينها، وهي تنفث البخار من كل جوانبها، وفجأةً وجدته يشير إلى المنزل المقابل له تمامًا، ويقول لمساعده: هو هذا «منقذ مصر».

نظرت - وأنا المواطن المسيَّس، على سذاجة مظهري -: بيت عاديّ صغير، لعلّه باق حتى الآن، من ثلاثة أدوار كل دور شقة واحدة، يلاصق ما صار «مستشفى الجمهورية» ثم معهد «القاهرة الديني» الآن، وكان عندئذ مقرًّا لكلية اللغة العربية، وكان في أول القرن مقرًّا «لمدرسة القضاء الشرعي»، الممتد في مواجهة بيتنا وقصر إسماعيل باشا، حتى «حارة التمساح».

كان الأوسطَى يشير، بعد أن وضع المكواة على مخدتها، إلى رجل متوسط القامة ممشوقها، نوبي الملامح، ليس فيه شيء من عبوس الرسميين، في زيٍّ ضابط «ملازم ثانٍ» بنجمة واحدة، تلمع على كتفه، كأنها راضية تمامًا أن تستقر على عاتق هذا الرجل الشجاع، يخرج من باب هذا البيت الذي يقطن طابقه الثاني.

وكنت أعرف القصة، وفرحت أن يكون في حارتنا أو دربنا، مثل هذا الرجل الذي أثار مشاعر المواطنين، صعايدة وبحاروة ونوبيين، وكان الأوسطى تلقائيًّا صادقًا مع نفْسِه، إذ أطلق عليه هذا الوصف الخطير، «منقذ مصر»، الذي وصفه به فعلا بعض الصحف المصرية.

تذكَّرْ، نحن في حيّ عابدين، ولم يمض بعد نحو عامين أو ثلاثة على حادث الحصار الوقح الذي ضربته سلطة الاحتلال البغيض، حول قصر عابدين، لتجبر ساكنه «ملك مصر والسودان، فاروق الأول» على «اختيار» حكومة معينة، و«الأوسطي» واحد من المتعاطفين مع الملك كغالبية المواطنين يومئذ، المشفقين من تكرار هذا الحادث المهين.

أما البطل النوبيُّ، فكان بالأمس «كونستابلًا = أمين شرطة» مكلفًا: بخدمة أمنية، قرب قصر اللورد «مُوين» الذي كان مسئولًا سياسيًّا في وزارة المستعمرات البريطانية عن منطقة الشرق الأوسط مقيمًا بالقاهرة، وقررت منظمات الإرهاب الصهيونية اغتياله، لعدم اطمئنانها لتجاوبه مع مشروعهم الاستيطاني في فلسطين، التي كانت تحت سلطة «الانتداب البريطاني» حينذاك.

ونجح الإرهابيان، اللذان كُلِّفَا بتصفية أكبر مسئول بريطاني في المنطقة، في أداء مهمتهما الإجرامية، وأخذنا نقرأ عن «الهاجانا، وشتيرن، وأرجون زفاي ليومي» والمنظمة الأخيرة هي التي كان يقودها الإرهابي «بيجن» الذي صار رئيس الوزراء الإسرائيلي، ووقع معاهدة «السلام» مع السادات، فسبحان مدبر الأمور، والمغيِّر الذي لا يتغير!!

وحين غادر الشابان مسرعَينِ مسرحَ الجريمةِ، لمحهما الكونستابل الهمام، فطاردهما في إصرار، حتى قبض عليهما، بعد مراوغة ومقاومة مسلّحة، غير هيَّاب ولا وجل، حتى أسلمهما إلى سلطات التحقيق المصرية، ليلقيا عقوبة الإعدام فيما بعد.

كان الحادثُ خطيرًا، وتردد حينئذ أن شجاعة «الكونستابل» جنَّبت مصر أزمة مشابهة لأزمة الحصار، أو الإهدار للكرامة الوطنية، في ٤ فبراير عام ١٩٤٢، التي ظلت تنزف وتُثقِلُ الضميرَ الوطني، حتى قامت بعد عقد واحد من السنين ثورة يوليو ١٩٥٢، وكان بين أسبابها حادثة ٤ فبراير، وكنتُ حينئذٍ قد أوشكت على إنهاء دراستي الثانوية وانخرطت في الحركة الوطنية.

ورُقِّيَ الرَّجُلُ باستحقاقٍ إلى درجةِ ضابط - ملازم ثان، ونزل في زيِّه الجديد، وعلى قسماته السماحة النوبية، «والأوسطَى» يشير إليه معجبًا، وأنا أنظرُ إليه فخورًا، وهو يتوجه إلى عمله في بساطة واعتزاز. و «توته، توته» فرغت حكايتي الأولى، فهل أعجبتكم «الحدوتة»؟



(٢) أمي

انتهت عطلة عيد الأضحى عام ١٩٤٤، التي جاءت بعد نحو شهرين قضيتهما في «معهد القاهرة الديني»، بالسنة الأولى الابتدائية، مقيمًا مع أخي الأكبر في «درب الحجر». وكانت السنة الدراسية الأزهرية تبدأ دائمًا - بصرف النظر عن الجغرافيا والمناخ - عقيب عيد الفطر، وتتوقف الدراسة شهري شعبان ورمضان من كل عام، وقد لا يعلم قارئ هذه السطور أن هذه «الأجندة» ما زالت متبعة، في ترتيب السنة الدراسية، بجميع المدارس الدينية بشبه القارة الهندية، بأقطارها الثلاثة، حتى اليوم، وأنهم يسمونها جميعًا - تأثرًا بمصر - دورَ العلوم؛ فكلمة «دار علوم» تعني لديهم «مدرسة دينية».

لبِستُ ملابسي، وزودتني أمي بما يلزم، وخرجت مع أبي من باب الدار، بعد أن ودعتني هي وإخوتي الصغار، وانثنينا يمينًا مع «داير الناحية» أو بلغة اليوم «الدائري»، لنصبح في ظهر بيتنا تمامًا، وأمامنا بيت الجيران، الشيخ هاشم «الجندي» وأسرته، القادمة أصلًا من «طرابزون» شمالي تركيا، وصاروا صعايدة مثلنا، ونحن جمهور سكان القرية «بني ماضي» من بني هلال، و«ماضي» كان أحد زعماء الهلالية، ودخلنا في النسيج المصري الموحد.

لاحظ أبي - الشيخ الأزهري الحصيف - أني لا أنظر إلى الأمام، وأن عينيّ معلقتان بالنافذة الخلفية لدارنا، حيث أمي وإخوتي، وقال لي، بحنان مكبوت: ما بالك؟ وكان ردّي كلمة واحدة: أمي.

فغير الرجل - وهو معلم خبير وملتزم - اتجاهَ السير تمامًا، وعدنا أدراجنا إلى البيت، حيث فوجئ أهله بعودتنا، وتركني أعيش في أحضان الأسرة أسبوعًا آخر، بعد أسبوع العطلة الرسمية، وقد استرحت إلى هذه المهلة، ولم أجرب الاغتراب قط إلا شهرين اثنين في درب الحجر، ولكني - علم اللَّه - كنتُ مشغولًا بدروسي ومشايخي، ومكانتي في «الفصل السابع» من السنة الأولى، بالقسم الابتدائي، من معهد القاهرة الديني.

وقبيل نهاية الأسبوع «الإضافي»، دعاني إلى جواره، وقال لي: لقد فعلتُ ما تعلم، ولكني أودُّ أن تعرف أنني كنت وحيد أمي مع أختين صغيرتين، توفي أبى عنَّا، وقامت هي على تربيتنا، وأرسلتني إلى «الأزهر» أواخر العقد الأول من هذا القرن - العشرين - وأصداء وفاة المفتي الأكبر «محمد عبده» ما تزال تملأ الفضاء الأزهري المصري. ولكن هذه السيدة، برغم ظروفها تلك، لم تكن تدَعني أتخلف عن الدراسة الأزهرية يومًا واحدًا. فاجعل هذه آخر مرة تتخلف عن مواعيد دروسك الأزهرية.

وأشهد لقد استوعبت الدرس حينها، وما زلت أذكر أنني ما تخلفت بعد ذلك طوال أربع سنين، بالمعهد الابتدائي إلا يومًا واحدًا، وكان السبب أنه لم يتوافر لي الزيُّ الرياضيُّ الذي كنا نتخذه في دروس التربية الرياضية، فألححت على أخي الأكبر، وفي اليوم التالي خرجنا معًا إلى محل بميدان عابدين، لنحصل على الزيِّ المطلوب، وحملته معي إلى المعهد، متأخرًا قليلًا عن الموعد، وصحبتُ في هذا الصباح - في الطريق إلى «الدرَّاسة» - «الشيخ محمد عبد اللَّه العربي» الذي كان والده

يعمل شرطيًّا في بني سويف، وكان هو في القسم الثانوي، ويعد أحد زعماء المعهد وخطبائه، وهي المكانة التي كنا نرمقها حينئذ بتقدير وإعجاب، وقُدِّر لكاتب هذه السطور أن يتبوأها، ولكن في السنتين الأخيرتين من الدراسة الثانوية بهذا المعهد، الذي كان عند ملتقى الأربعينيات وغليانها الوطني، بالخمسينيات وحراكها الثوري، كان خليَّةً تتفجر بالإبداع والوطنية، والدرس الجاد والتفوق، وكان شيوخه مربين حقيقيين، وبُناة مخلصين، ولعلي أتعرَّض للمناخ الأدبي والوطني، في هذه الخليّة التربوية، في «حكاياتي» لمن يوليني سمعه، ويتابع معي أحداث قصتي.

أما أمي، عزيزتي التي تركتني وقد ناهزَتِ المائة، وبلغت أنا السادسة والستين، فقد كانت أهم إنسان في حياتي، وخاصة بعد أن مضى الوالد الكريم إلى جوار ربه أوائل السبعينيات، وقد تأثرت حياتي بحياتها وسياقاتها النفسية، التي وجهت مواقفي بوعي ودون وعي، وقد نشأَتْ بحي «الإمامين»، بالقاهرة، حيث كان جدي يعمل في «السكة الحديد» بخط «المواصلة»، تزوجها أبي وهو بعدُ طالب أزهري بالقاهرة، وجئت بعد ثلاثة من الأشقاء، وجاء بعدي الأختان، ثم بعد منتصف الأربعينيات جاء «مالك» الشقيق الوحيد الذي تخرج في الأزهر - غيري - على حين سلك الثلاثة الكبار الدراسة المدنية:

أحسبُ أن كميَّاتِ السَّعادةِ التي نَعِمَتْ بها في دُنياها قليلةٌ، وآسَى كثيرًا لذلك، وأكثرُها يرجعُ إلى ما يناله أبناؤها من نجاحاتٍ.

ولها - رحمها اللّه، ورحمني بها، في مستقر رحمته - مواقف فيما واجهتُ من شدائد، ربما يأتي ذكر لها في حكاياتي بإذن اللّه.

(٣) الشيخ يسّ الجندي

في الشهرين الأولَينِ من مجيئي إلى القاهرة، كنتُ أقطعُ الطريقَ، ماشيًا طبعًا، مِن «درب الحجر» في عابدين إلى «المعهد» في الدَّرَّاسة، سالكًا في بداية الأمر شارع الخليج المصري، مرورًا بميدان باب الخلق، لأنعطفَ في شارع الأزهر إلى الدَّرَّاسة، حيث المعهد العتيد في خطين مستقيمين متعامدين. زادت معرفتي بالقاهرة خلال شهر واحد، وطوَّرت «خارطة الطريق»؛ لأسلك حارة «الحبَّانية» إلى شارع محمد علي (القلعة الآن)، ثم أدلف من إحدى حاراته إلى «باب زويلة»، أو «بوابة المتولي»، كما تعرف شعبيًّا، لكني أعرف اسمها وصورتها من الكتب. وأذكر أني بكيتُ وأنا طفل صغير في القرية، السلطانَ «توران شاه» آخر حكام المماليك، الذي صلبه «سليم الأول» في الشرفة التي تعلو هذا الباب الجنوبي، من أبواب القاهرة القديمة، والذي أضفته إلى معلوماتي، فيما بعد، أنه أخذ اسمه «زويلة» من القبيلة المغربية التي جاءت مع الفاطميين، وسكنت الحارة الأولى على اليمين داخل البوابة، وما تزال الحارة تحمل اسم هذه القبيلة، التي ينتمي إليها الدكتور أحمد زويل أحدُ المصريين الذين نالوا جائزة «نوبل» العالمية.

وأقطع شارع الغورية الذي ينتهي بمسجد الغوري ومجموعته الأثرية، لأميل يمينًا قبيل الغوري في «حارة الكحكيين» إلى مسجد الأزهر، ثم إلى المعهد من ورائه. كان هذا الطريق أقرب وأكثر أُنسًا، وإن كان مزدحمًا

نسبيًّا، إذ كانت تقطعه عربات تجرها الجياد تسمى «سوارس»، لكن القاهرة كلها كانت هادئة تمامًا مشجعة على السير الممتع، وكانت «الغورية» مسلك أكثر شيوخنا يتلون القرآن في هدوء إلى الأزهر الشريف.

كنت كل يوم أرى في «حارة الكحكيين» شيخًا كبير السن هادئًا، أنيقًا على نحو لافت، يجمع أطراف ثيابه، ويتلو وِرْدَه، ساعيًا نحو الأزهر، وشيء خفيٌّ يشدُّني إليه. وفي أحد الأيام كأنه لاحظ ارتياحي إلى طلعته، ناداني بإشارة، فسرتُ نحوه، لكي يسألني:

- ما اسمك؟ فأجبته كذا.

- من أي البلاد؟ من بني سويف.

- أي بلادها؟ مركز ببا.

- أي قرية في ببا؟ بني ماضي.

- هل تعرف الشيخ محمود عبد اللطيف؟ وأجبت: إنه أبي.

انفرجت أسارير الرجل عن ابتسامة جميلة في وجه أبيض وسيم، تَزِينه لحية خفيفة، ودعا لي وأوصاني بالانكباب على الدرس «كما كان أبوك».

ودون أن أزعجه كنت أفتتح يومي بمَرْآه ذاهبًا إلى مسجد الأزهر مبكرًا، رغم إحالته إلى المعاش ليفسر «القرآن الكريم».

أبلغت أبي بهذا الموقف حين عدت إلى القرية في «إجازتي الأولى» التي قضيتها على النحو الذي حكيت لك من قبل.

ومازلت أذكر ليلة شتوية خلال عطلة العيد «الكبير» بالقرية، كنا قد آوينا

إلى غرفة «الفُرن» طلبًا للدفء، ويسألني أبي في حضور الأسرة كلها، عن أحوالي الدراسية، فأحكي له قصة لقائي بالشيخ يس الجندي، فتملؤه السعادة، ويخبرني أنه تلميذٌ مباشرٌ للشيخ محمد عبده، وأنه أصلًا من مدينة ببا، المركز الذي نتبعه إداريًّا، وأنه من أقرب شيوخه إليه، وحمَّلني السلام إلى شيخه، وفي أول زيارة له للقاهرة اصطحبني لزيارة الشيخ مع أخي الأستاذ عبد اللطيف، في حارة «الجودرية الكبرى» المتفرعة بطريق غير مباشر من شارع الغورية خلف مسجد «المتولي».

وأذكر ونحن في حضرة الشيخ، بمنزله المتواضع، لكنه نظيف منظم، أنه راح يعرض على أبي بعض كتاباته في تفسير جزء «تبارك»، الجزء قبل الأخير من القرآن الكريم، على طريقة شيخه الإمام في تفسير الجزء الثلاثين من القرآن الكريم. ويومها جاء زائر شاب من أهل ببا يعرف الشيخ، اسمه سيد ناجي، يرتدي زي الجنود بالجيش المصري، بدرجة «جاويش» بثلاثة أشرطة، لكنه مثقف مهذب حسن الحديث، في يده كتاب بعنوان «اخرجوا من بلادنا»، لمؤلف شاب حينذاك اسمه «أنور الجندي» عن الاحتلال الإنجليزي لمصر، ربما عدنا إليه في «حكاياتنا»:

ويسألني أبي، ونحن في الغرفة الدافئة، وقد فتحت شهيته لحكاياتي:

- وماذا أخذتم أخيرًا من دروس؟

- دروس كثيرة في علوم متعددة: نحو وصرف وفقه وتجويد.

- في النحو مثلًا.

- آخرها «فاء السببية واو المعية».

- ما حكمهما أو تأثيرهما؟

- ينصب الفعل المضارع بأن مضمرة بعدهما، إذا سبقا بأحد تسعة أمور، وسردت الأمور التسعة التي يجمعها النظم:

مُرْ وادعُ وانْهَ وسَلْ واعرض لحضهم تمنّ، وارجُ كذاك النفي قد كملا

ومثَّلتُ لكل حالة من التسع، فشعر الجميع في غرفة «الفرن» بسعادة الأب، وأمله في ولده الناشئ، الذي يعيد إنتاج حياته هو الأزهرية بطعم جديد، وحسٍّ علمي واعد.

هذا وربما عدنا لنحكي عن الشيخ الجليل يس الجندي «حكاية» أخرى أيضًا، والسلام.



(٤) إشكالية اللحية والغطاء

كان لنا شيخ جليل، متنوع المعارف، فطن حصيف، كبير القلب والعقل، قلَّ من لقيه ولم تعلق بقلبه محبته.

ولأن شيخنا كان «ديموقراطيا» أيضًا؛ فقد استمع إلى نصيحة واحد منا، لا ينقصه الإخلاص، ولكن يغلب عليه التشدد: قال له: يا شيخنا أراك تتحرك قليلا، وأنت قائم في الصلاة بين يدي ربك، كأنك تتماوج مع ريح لَيِّنة، وأنت تتلو القرآن، وهذا ما لم يُرْو عن السلف، لولا سكَنْتَ يا شيخنا، وقاومت هذه الحركة المعتادة!!

فقال الشيخ لتلميذه: جزاك اللَّه خيرًا يا بنيّ، سأحاول، وهي مجرد عادة لا أدعي أنها من هدي السلف في شيء.

ويحاول الشيخ، وتعود به النوازع الطبيعية إلى عادته، التي عبثًا يجاهدُ للخلاص منها، وأصبح كل همه أن يلزم السكون ويقاوم الحركة، فلا يملك التركيز في تدبر معاني ما يتلوه من قرآن.

وذات مرة توجه الشيخ إلى تلميذه هذا قائلا: سامحك اللَّه يا بني، وغفر لي ولك، لقد صار همي بعد نصيحتك محصورًا في مقاومة هذه الحركة الخفيفة، التي اعتدتها منذ عهد بعيد، ولعلها من بقايا حركتنا المعتادة، ونحن في «الكتاب» نتلو القرآن الكريم؛ رجاء الحفظ وتجويد التلاوة. ولم أعد أملك التركيز في تدبر ما أتلوه؛ لما يعروني من تشتت البال بين هذا وذاك.

ثم قال الشيخ لنا جميعًا، وهو يبتسم في لطف: لقد ذكرتني هذه النصيحة بقصة رويت عن بعض أشياخنا السابقين، الذي كانت له لحية وافرة تسترسل إلى صدره، فجاءه أحد تلاميذه قائلًا:

- يا شيخنا، حضرتُك إذا أويت للفراش لتنام، أتجعل لحيتك هذه فوق اللحاف الذي تلتحف به، أَمْ تحت اللحاف؟

- فقال الشيخ: واللَّه يا بني ما أدري، إني أضع جنبي على الفراش مجهدًا، وأجذب الغطاء الذي ألتحف به، وأترك نفسي لسلطان النوم، حتى أستغرق فيه كالأطفال حتى الصباح.

ومضى الشيخ في شأنه حتى حل المساء، وجاء أوان النوم والراحة، ليأوي إلى فراشه الوثير المعتاد، ويغرق في هنيء الرقاد.. ولكنه وضع جنبه على الفراش وفي رأسه سؤال تلميذه الساذج، فجعل يضع لحيته الطويلة تحت اللحاف ويرسيها على صدره، ويجذب الغطاء فوقها، وينتظر النوم فلا ينام، ولا يجد الراحة في هذا الوضع، كأنه يحمل عبئا لم يكن يحسه من قبل، فيلقي عنه الغطاء ويجذبه قليلا إلى الوراء، ويجعل اللحية بخصلاتها المسترسلة فوق الغطاء، فلا يجد الراحة ولا يواتيه النوم، كما كان يواتيه عادةً، قبل أن يتلقى هذا السؤال!!

فقضى ليلته على فراش كأنه حسك السعدان = «أشواك صحراوية»، ليلقى تلميذه في الصباح معاتبًا: - سامحك اللَّه.. لقد حرمتني أنا ولحيتي النوم الهنيء الذي تعودناه!!

ثم قال شيخنا للزميل المخلص: هذا مثلي ومثلُك، واللَّه المستعان

على نصائح الإخوان. هل عَرَفْتَ الشيخ الذي أقصده، الذي اعتاد تلك الحركة الخفيفة، التي لا أحسبها تصل إلى حد «الكراهية» أو المخالفة لآداب الصلاة؟ إنه الشيخ حسن البنا.



(٥) شاعران باسقان

كنت أعرف عنه وإن لم أعرفه، صعيدي من جهينةَ شاعر، كان تلميذًا لشيخنا العالم الأديب الأريب الدكتور «محمد فتحي عبد المنعم»، في معهد أسيوط، ثم جاء في أعوامه الأخيرة إلى المعهد الأم - أو إن شئت الأب - معهد القاهرة الديني، أحد الخلايا الوطنية الناشطة - لا النائمة - في خضم «الأربعينيات» من القرن العشرين، الشاهدة على المخاض الثوري، الذي أنجبت السنوات الأولى، من خمسينياته، ثورةَ ٢٣ يوليو، لقد كان هذا المعهد خلية تشع أدبًا وشعرًا، وحركة وانتفاضًا، وعِلمًا وتربية.

وهي السنوات التي قدر لي فيها أن أكون عنصرا في هذا الحراك الوطني، والفكري والديني. وتعرفت - ولو متأخرا - على «الدكتور» محمود الربيعي: شابًّا طُوالا وسيم الطلعة على سمرة فيه، جميلَ العمامة والمظهر، على نحو لافت، يأخذ بعاتق زميل له أشدَّ سُمرة، ولا يقل عنه طولًا، ولا يخلو من وسامة أيضًا. وهو الشاعر السوداني الكبير محيي الدين فارس، الذي كانت تنشر قصائده الجميلة في «مجلة الرسالة»، وأنا من مدمنيها: كانا لا يفترقان، شابين واعدين، مقبلَيْن على الأدب والحياة.. قذف بهما الجنوب الخَصبُ إلى دنيا القاهرة الزاخرة.. وكانا يومها يندفعان خارجين من المعهد في الدَّراسة، إلى قلب القاهرة، أمام قاعة الإمام محمد عبده، ضمن بحر العمائم البيضاء الذي يملأ شارع الأزهر، في كل ظهيرة عند انتهاء الدروس.

تقدمت إليهما محيِّيا، ودعوتهما للقدوم مساء الغد، للاحتفال الذي سيقام بهذه القاعة، قاعة الإمام محمد عبده، احتفاءً بذكرى ميلاد النبي - صلى اللَّه عليه وسلم . ودعوتهما للمشاركة بإبداع شعري لهما يلائم المناسبة، فتَقَبَّلا الدعوة شاكرين.

كانت لهذا الحفل قصة تروى؛ فقد كنا في عام الثورة ١٩٥٢، وجيء بالعالم الثائر، التونسي الأصل، فضيلة الشيخ محمد الخضر حسين، شيخًا للأزهر، بمشورة من أحد عارفي فضله من أنصار الثورة، وهو الأستاذ فتحي رضوان - رحمه اللَّه - وكنت حينئذ في السنة الخامسة الثانوية، أشبه بزعيم للمعهد، الذي يضم أكثر من أربعة آلاف طالب.

وجاءت مناسبة الميلاد الشريف، وتقدمت إلى شيخ «مدير فيما بعد!!» المعهد، فضيلة الشيخ عبد الوهاب عبد العزيز، وكان قد عرفني قبلها؛ إذ تسلمت منه جائزة التفوق في مادة الفقه الحنفي على طلاب المعهد جميعا، راجيا أن يفتح لنا - باسم طلاب المعهد - قاعة الإمام محمد عبده، لتكون مقرا للاحتفال، ولكنه لم يستجب للطلب.

وهنا علوت صهوة المنصة التي اعتاد الطلبة التجمع حولها، والاستماع إلى خطبائها، في المناسبات الكبرى: وتحدثت عن المناسبة النبوية الكريمة ووجوب الحفاوة بها في السياق الثوري حينذاك، وأن قاعة الإمام محمد عبده أصلح مكان، للحفاوة بهذه المناسبة الجليلة، وأشرت إلى تردد الإدارة في التصريح لنا باستخدامها، وذكَّرْت المستمعين أن هذه القاعة شهدت في العام الماضي ١٩٥١، احتفالًا بميلاد رأس الدولة العلوية، محمد علي باشا.

وأطلقت السهم الأخير النافذ، في ختام خطبتي متسائلا: أتُفتح القاعة لميلاد محمد على باشا، ولا تفتح لميلاد محمد بن عبد اللَّه - صلى اللَّه عليه وسلم؟!

اشتعلت الآلاف من الطلبة حماسًا وهتافًا، وتكهرب الجو، واتصل شيخ المعهد بمشيخة الأزهر، فقال له الشيخ الخضر: تسمح لهم، وتأخذ عليهم تعهدًا بالحفاظ على سلامة القاعة.

وطلبني شيخ المعهد لمقابلته، ووجدت من المصلحة، والرجل يتعنف أحيانا، على فضله وعلمه، أن أصطحب الزميل «الأستاذ» جلال - رحمه الله؛ لأن والده زميل الشيخ وصديقه، فأحسن الشيخ استقبالنا، وذكر مناسبة الجائزة، وأننا طلبة جادون لا نريد اضطرابًا ولا فوضى. وطلب مني كتابة «التعهد»، فكتبت صيغة حاسمة أعجبته، ووقعتها، ودعوت فضيلته لمشاركتنا، لكنه لم يحضر.

رتبنا قائمة المتحدثين: لنفتتح بتلاوة قرآنية كريمة، ثم كلمة للطلاب المصريين وأخرى للوافدين، بينهما قصيدة شعرية للشاعر محيي الدين فارس، والمحاضرة الرئيسية لفضيلة الشيخ محمد الغزالي - رحمه اللَّه - ثم كلمة الختام يلقيها العبد الفقير.

وامتلأت القاعة بالحضور الطلابي، ورُتب تأمين القاعة، وسارت الأمور على خير ما يرام. وكانت كلمة الشيخ الغزالي بالغة التأثير في الطلاب. ولكن المفاجأة كانت حضور فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الأزهر أثناء الحفل، الشيخ محمد الخضر حسين، وكان يحرص على تشجيع

النشاط الطلابي - رحمه اللّه - أدبيا بحضوره، وماديا بالتبرع بتكاليفه، وأذكر أن فضيلته أخرج من جيبه مبلغا ليس بالقليل - بمعايير تلك الأيام - فشكره الشيخ الغزالي، وقال لفضيلته: هؤلاء لا يأخذون شيئا - يشير إليّ وإلى زملائي.. فقدّر الشيخ كلمته!

تلك ليلة من ليالي العمر، ويوم من أيام طلابية أزهرية حافلة، ضمن الشهور الأولى لثورة يوليو ٥٢، ومناسبة مباركة اقترنت بالتعرف على الشاعرين الباسقين: محمود الربيعي حفظ اللّه، ومحيي الدين فارس - رحمه اللّه.. وكلاهما شاعر أصيل جميل، وإن خلص محيي الدين للشعر حتى قضى عليه باكرا، واجتذب البحث العلمي والنقد الأدبي محمود الربيعي بعيدًا عن الشعر قدرًا ما.. والروح الشعري متمكن أمكن، والذوق الفني أظهر وأبين.. وعهد المودة باق محصن.. والحمد للّه رب العالمين.



(٦) الشيخ الغزالي - الداعية المثالي

أذكر أني أقرأ له منذ منتصف الأربعينيات من القرن الماضي، وكان يعمل واعظًا بالصعيد، وينشر فكره الجديد، لكني اقتربت منه في أوائل الخمسينيات، وأذكر أننا كنا صبيحة يوم من أيام سنة ١٩٥١م، وأثناء حركة المقاومة ضد الاحتلال الإنجليزي، توجهنا - عددًا من محبيه، من معسكر التدريب لكتيبة الأزهر بالدراسة، بين قاعة الإمام محمد عبده وكلية الشريعة - إلى منزله بحارة درب سعادة، بين شارع الأزهر وميدان باب الخَلْق، وتناولنا الإفطار عنده عيشًا ساخنا، وبيضًا مقليًّا، وفولًا طبعًا.. !! ويبدو أنه بنشأته الفقيرة، كان يستشعر أحوالَ أمثالنا، فأكرمنا وأشبعنا، وما زلت أذكر تلك «الأكلة»، وقد مضى عليها ما يربو على ستين عامًا.

هكذا تفتح ذاكرتي «ديوان الذكريات» العزيزة، لفضيلة شيخنا الجليل.. بوجبة من الغذاء البسيط الهني، الذي لا ينسى؛ لما يغلفه من عطف ومودة، وقد سبقته ولحقته وجبات فكرية، بالغة التأثير أيضًا، من محاضرات الشيخ، وثمرات قلمه المتميز.

لقد كتبت عن الشيخ في «حكايات» أخرى، وما كانت تفيض به نفسه الغيور، من ثورية دافقة لا تتوقف.. وما كان يتمتع به من مروءة وإباء..، وقد كنت فوجئت بموقفه في الأحداث التي زخرت بها السنون الأولى من الخمسينيات، لكني استطعت أن أتفهم ذلك، بعد ذهاب السكرة وحلول الفكرة، في النصف الثاني من هذا العقد نفسه.. في هدأة السجن بالواحات.

ولعلى أشرت في موضع آخر، أني لقيت أخي وزميلي الشيخ محمد الراوي، وكان يعمل عندئذ بمكتب الشيخ الغزالي في وزارة الأوقاف، عقب خروجي من السجن أولَ الستينيات.. وكان هذا المكتب موئلًا نفسيًّا لي في تلك الظروف الخشنة؛ لوجود الشيخ الراوي، والأستاذ مجدي مدير المكتب - رحمه اللَّه - الذي صار فيما بعدُ إمامًا لمسجد الإمام الحسين - رضي اللَّه عنه.

وتقدمت لمسابقة للأئمة، أعلنت عنها الوزارة حينذاك، وصادف أن اختبرني شفويا الشيخ الغزالي والشيخ عبد الفتاح الشافعي - بعد اختبار تحريري وفقت فيه بحمد اللَّه - وجرى حديث عن لقب «الشافعي، ثم حاورني الشيخ حوارًا علميًّا، متسائلًا عن أحدث ما قرأت، فذكرت أنه كتاب للشيخ محمد محمد أبو زهو: «الحديث والمحدثون»، فذكر أنه زميله في الدراسة، ثم سألني عن الكتاب نفسه، فأشرت إلى أنه يشبه كتاب الشيخ محمد حسين الذهبي «التفسير والمفسرون» ويتكامل معه. وقارنت بينه وبين عمل الدكتور مصطفى السباعي «السنة - في التشريع الإسلامي».. وكانت مناقشة علمية خصبة، أنستني جو الاختبارات والامتحانات.. وعينت - كما ذكرت في حكاية أخرى - بمسجد الفتح بالقاهرة.. والشيخ ما يزال مديرًا للمساجد بوزارة الأوقاف، لفوزي في المسابقة بمرتبة «السادس»، ضمن العشرة الأوائل الذين تقرر تعيينهم بالقاهرة من بين تسعمائة متسابق.

وأذكر أنه - رحمه اللَّه - نظم لأئمة القاهرة، دورات تدريبية، في مسجد صلاح الدين بالمنيل، ثم بمسجد عمر مكرم، وكان يسهم فيها بنفسه، مُرَكِّزًا على توثيق صلة الإمام بالقرآن الكريم، وشارك فيها

الدكتور محمد يوسف موسى وشيخنا الدكتور عبد الحليم محمود، وأحسبه درس لنا بعض ما كتب عن الإمام الغزالي.

وفي طريقي يومًا إلى عمر مكرم، لحضور برنامج التدريب وكنت أسكن في عابدين، لقيت الشيخ الغزالي، في منتصف شارع محمد محمود، قادمًا من درب سُعادة، يتلو - كعادته - القرآن الكريم.. فسلمت عليه وصحبته إلى المسجد.. وكان يومها ثائر النفس لأمر لا أذكره، وكأنه أحب أن «يفضفض» فقال كأنه يسأل نفسه: هل حاربنا «فاروقًا» لنحظى باثني عشر ملكًا بعده؟!

ثم جاء إلى الوزارة، الدكتور محمد البهي، وكان صاحب رؤية في الإصلاح، لكن أسلوبه كان يتسم بالعنف والتعجل في الأمور.. وأذكر أنه جاء بفضيلة الشيخ صلاح أبو علي مديرًا للدعوة، وبالأستاذ العدوي مديرًا للمساجد، و«ركَنَ» الشيخ الغزالي - مع رصيده في الفكر والدعوة، وبصماته في إدارة المساجد - مفتِّشًا عامًا بلا عمل تقريبًا.. وكانت الوزارة قد انتدبتني مع عدد من الأئمة - بسبب تزكية الشيخ إسماعيل عامر، المفتش العام للقاهرة، لي بعد زيارات متعددة لمسجد الفتح - لمصاحبة الوزير في رحلة إلى طنطا، ثم للمشاركة في ملتقي سياسي في ظروف الأزمة السورية والانفصال.. فذهبت إلى الوزارة أقدم تقريري عن هذا الملتقى الأخير، وكان بالمطرية، ووجدت من واجبي أن أمر على الشيخ الغزالي في مكتبه الجديد؛ فكان نصيبي بعد شهر واحد، أن أنقل إلى سيوه. وسأحكي ذلك في مقام آخر.

في إحدى زياراتي لفضيلة الشيخ في منزله بمنطقة الدقي، بعد أن غادر حارة درب سعادة، وجدت عنده زائرين سعوديين، يبشرانه بالحصول على «جائزة مؤسسة الملك فيصل العالمية» عن خدمة

الإسلام، والشيخ عمل في «جامعة الملك عبد العزيز» بمكة والتي سميت فيما بعد «جامعة أم القرى» فترة غير قصيرة، عندما ضاقت به مصر، أو بالأحرى ضاق به السادات، فاضطر لمغادرتها، لكنه ما تغير ولا تجمل، ومع ذلك جاءته الجائزة، وهناك من يجرون وراءها بالتجمل والتقول، وهي تَندّ عنهم، وتتأبى عليهم!!

سُئل الشيخ يومًا - من إدارة الأزهر - أن يبدى رأيه في قصة نجيب محفوظ «أولاد حارتنا»؛ فقال قولًا هو الذي تبناه الأزهر، واحترمه المؤلف الذي أوصي بعدم طبع الرواية الرمزية، فخالفه من يتمسحون به من أنصار حرية الإبداع المطلق. وبصرف النظر عن هذا الاختلاف في الرأي والتقدير، فإن الرجلين الكبيرين ظلا صديقين، يُقدِّر كل منهما الآخر، وعندما تعرض الأستاذ نجيب محفوظ لعدوان جاهل مأفون، بادر الشيخ الغزالي بزيارته، متمنيًا له الشفاء، معلنا استنكاره للعدوان البليد.

رُشِّحتُ من مجمع اللغة العربية بالقاهرة مرات عديدة لنيل جائزة الدولة التقديرية، في العلوم الاجتماعية، ويأبى المجلس الأعلى للثقافة، ولكنه يمنحها لرجل يصف الصحابة بالعدوان والاستعمار، ويصف حسني مبارك بأنه الرجل الثاني، في تاريخ مصر الحديث، بعد محمد علي - راجع مجلة روز اليوسف - فحمدت اللَّه ألا أحمل مثل هذه الجائزة بعد ابتذالها، وقال لي الدكتور على جمعة: كنت مع الشيخ الغزالي في رحلته الأخيرة إلى ماليزيا، وسألته عن أصحابه؟ فقال: «لقد مات أكثرهم، ولكن هناك حسن الشافعي.. وقليلون». يعلم اللَّه أني - برغم اعتقادي بأستاذية الشيخ، وأني مجرد واحد من تلاميذه - اعتبرت ذلك جائزتي الحقيقية.. والعهدة على الراوي.

(٧) أنت «هتطلع» الأوَّلَ

كان شيخنا الدكتور بدوي عبد اللطيف أستاذًا لنا في التاريخ الإسلامي، الذي أجيز فيه من مصر ومن إنجلترا. وقد شغل لاحقًا منصب «مدير جامعة الأزهر»، وكان له الفضل - بعد اللَّه تعالى - في تأسيس مقرها الجديد، عند المكان الذي اشتهر - فيما بعد - «بالمنصة»، على مشارف «مدينة نصر»، اشترى كلَّ متر مربع بجنيه مصري واحد، ولم يعدم من قال له في مجلس الجامعة: إنك تهدر ميزانية الجامعة في صحراء لا تساوي شيئًا. وقد علمت بعد وفاته - رحمه اللَّه - أنه من محاسن إقليمنا بني سويف، من قرية قرب مدينة «أهناسيا» عاصمة مصر كلها في العهد الوسيط من العصر الفرعوني.

في عام ١٩٥٤ جلست أؤدي الامتحان التحريري للسنة الأولى في كلية أصول الدين، إلى مائدة في وسط إحدى غرف الكلية، من مبناها الملحق بمسجد «الخازندارة»، أشهر مساجد حي شبرا. والمبنى والمسجد والمستشفى المجاورة - تعمل حتى الآن - أنشأتها سيدة تركية، كان زوجها «خازندارَ القاهرة» فعرفت «بالخازندارة، وأوقفت على هذه المؤسسة الثلاثية دارًا لها مجاورة، ضُمَّت إلى كلية أصول الدين».

وقف أستاذنا الدكتور بدوي في آخر الغرفة يراقب الطلاب من حيث لا يرونه، على غير عادة زملائه الذين يقفون في مواجهة الطلاب.

وفجأة سمعنا حركة خفيفة وهينمة، وإذا شيخ مهيب ذو لحية بيضاء

خفيفة، وعمامة خفيفة أيضًا، على زيٍّ أزهري بسيط وأنيق، وأبرز ما فيه وجه أبيض إلى حمرة، تعلوه السماحة والهيبة.. إنه شيخ الأزهر الشريف، الدكتور عبد الرحمن تاج، الذي عاد منذ سنين قليلة من «السوربون»، حيث كان يدرس تاريخ الفكر الإسلامي، ونال فيه درجة «دكتوراه الدولة»، وحين عاد عُيِّنَ «شيخًا» للقسم العام الذي يقدِّم الدراسات الحرة في العلوم العربية والشرعية، بمسجد «الأزهر» للراغبين الهواة، ولم يلبث أن عُيِّنَ شيخًا «للأزهر الشريف» كله، بعد الشيخ - التونسي الأصل - محمد الخضر حسين - أولِ شيخ اختارته السلطة الثورية بعد ٢٣ يوليو ١٩٥٢، كما حكيت في مقام آخر.

تجوَّل الشيخ بين صفوف الطلاب، وأنا منهمك كعادتي في الإجابة عن الأسئلة، في مادة التوحيد أو علم الكلام، حسب ترتيبها في ورقة الأسئلة: الأول، الثاني، الثالث.. لا أذكر أني خالفت هذا الترتيب في حياتي الطلابية إلا مرة أو مرتين.. حتى وقف الزائر الجليل على رأسي، يقرأ ما أكتبه فترة ليست بالقصيرة، وكأنما راقه انهماكي في العمل، وأسلوبي في الكتابة، على دقة الموضوع، وبراعة الأسئلة.. ثم انصرف الرجل في هدوء، يتبعه شيخنا الدكتور بدوي، إلى أن ودَّعه عند باب الغرفة، بعد حديث قصير.

وبعد أن فرغنا من الامتحان هذا اليوم، عدت بعد لقاء الزملاء، وما يكون عادة لهم في مثل هذه الحال من محاورات وتوقعات، إلى مسكني في روض الفرج، حيث أشارك الشيخ محمد الراوي «شقة» مع زميل آخر

هو الأستاذ محمود خضر - حفظهما اللَّه - وكان كلاهما يمتحن في السنة النهائية. بالكلية للحصول على «الشهادة العالية» في أصول الدين. وكان الأستاذ خضر يمتحن - في العام نفسه - لدرجة «الليسانس» بآداب القاهرة أيضًا.

وعند «دوران شبرا» حيث يتفرع شارع أبو الفرج إذا أنا في مواجهه أستاذي الدكتور بدوي، الذي ناداني في حبور كأنني ولده، وقال لي في انفعال ظاهر: الشيخ «مبسوط منك»، سعيد بك وبأدائك إلى حد كبير، مشيرًا إلى فضيلة الدكتور تاج وتوقفه إزاء مقعدي في غرفة الامتحان، ثم أضاف بذات الدرجة من الانفعال التلقائي: أنت «هتطلع» الأول!!

ويشاء اللَّه - عز وجل - أن تصدق نبوءة الأستاذ المخلص المعتز بتلميذه، عندما فرغ الامتحان، وأعلنت «نتائجه» وكنت «الأول» فعلًا على طلاب الفرقة الأولى بالكلية، المنتقلين إلى الفرقة الثانية، التي شاءت المقادير أن أُحرَمَ من متابعة الدراسة فيها - بعد هذا العام- سبع سنوات كاملة عقب هذه الواقعة، حتى عدت إليها لإكمال دراستي عام ١٩٦٠، وقد تجاوزت الثلاثين من عمري.

وتلك «حكاية» أخرى ستأتي فيما بعد.



(٨) يوم حريق القاهرة

كانت أربعينيات القرن الماضي أكثر العقود ازدهارًا للشعور الوطني والحركة التحررية في مصر. وهي مرحلتي الأولى في الدراسة الأزهرية، وفي المشاركة في الحياة الوطنية بالقاهرة أيضًا.

وما إن بدأت الخمسينيات، حتى انطلقت في مصر حركةُ المقاومة المسلحة للاحتلال الإنجليزي، وكان لجامعتي القاهرة والأزهر الشريف دور بارز في ذلك.

بدأ ذلك خلال عام ١٩٥١، وسبقت إليه جامعة القاهرة، برعاية من إدارتها حينذاك، وبخاصة رئيسها عبد الوهاب مورو باشا، وبدعم من الفصائل الوطنية الشعبية، وفي جامعة الأزهر - وكنت في السنة الرابعة الثانوية بمعهد القاهرة الديني - أقمنا، مع طلاب الكليات، معسكرًا للتدريب في الساحة التي تقع بين قاعة الإمام محمد عبده وكلية الشريعة الإسلامية، واتخذنا من «بدروم» كلية الشريعة مسكنًا ومؤئلًا.

وحين تم تدريب «كتيبة الأزهر» وأذكر أنه كان من أفرادها. الزميل - الدكتور فيما بعد - على عبد الحليم البنجاوي، من كلية اللغة، وزميلي بالمعهد - الدكتور فيما بعد - عبد المجيد محمود وزميل آخر بالمعهد - حصل أيضا على الدكتوراه من فرنسا، وعمل مدة طويلة بجامعة قطر هو الدكتور شحاتة - فيما أذكر - رحمه اللّٰه - وزميل رابع من أصول الدين - اسمه الشيخ عبد اللطيف زايد - كان هو المسئول عن

الكتيبة، حتى وصولها إلى مكان تجمع المتطوعين، قرب مدينة الزقازيق بمديرية/ محافظة «الشرقية».

وحين تم التدريب أقيم حفل توديع للكتيبة المسافرة، أسهم فيه معسكر تدريب طلاب جامعة القاهرة، وأذكر أنه جاء «طابور» عسكري من المتطوعين من طلاب الجامعة، من مقرها بالجيزة، وكان يقود الطابور الطالبُ - الفلسطيني الجنسية - بكلية الهندسة ياسر عرفات، وفي صحبته رئيس اتحاد طلاب الجامعة حينذاك الطالب حسن دوح من كلية الحقوق.

وقد ألقى حسن دوح كلمة حماسية عن الآثار المدمرة للاحتلال الإنجليزي، وكانت قد سبقت له خبرة العمل في «القوات الخفيفة»، التي كانت تحت قيادة الضابط المصري البطل أحمد عبد العزيز، قائد «المتطوعين» في حرب فلسطين، كما أذكر أن الطالب - بكلية أصول الدين حينئذ - يوسف القرضاوي ألقى قصيدة شعرية - ضمن كلمته في وداع الكتيبة الأزهرية - كان من أبياتها:

لقد رأينا شيوخًا يبذلون دمًا فهل ترى في شيوخ اليوم كاشاني»

مشيرًا إلى العالم الإيراني، الذي أيد حينذاك الزعيم الوطني محمد مصدق، في تأميم الثروة النفطية ببلاده، ونجحت المؤامرات الرجعية في إفشال جهودهما، وعودة الملكية الباغية، لتتحكم في مقدرات الشعب الإيراني حتى عام ١٩٧٩م، أي قرابة ثلاثين عامًا، بعد ذلك، حتى قام ضدها الشعب الإيراني من جديد.

لم يقدر لي أن أسافر مع هذه الكتيبة، وكنت مسئولا عن شئون المعهد، فرتب لذلك الزميل إبراهيم محمد إبراهيم - رحمه اللَّه، بسبب إصراري على السفر للحاق بالكتيبة الأزهرية.

كان ذلك يوم حريق القاهرة.. فأخذت طريقي وحيدًا نحو مدينة الزقازيق، والنار تشتغل في بعض أبنية شارع فؤاد (٢٦ يوليو) وغيره، تلك الأحداث من التاريخ المصري القريب، التي مازالت غامضة في بعض جوانبها.. وصلتُ مدينة الزقازيق وصليت الظهر يومها خلف الأستاذ (الدكتور فيما بعد) عبد العزيز كامل، الذي صلى قصرًا وخاطب من خلفه: أتموا صلاتكم فإني مسافر. وكنتُ مسافرًا مثله، لكن المدينة معهودة له، أما أنا فأراها لأول مرة، غير أني وجدت من أخذني إلى شقة بأطراف المدينة، كانوا طائفة من الشباب يبدو أنهم مثلي قادمون من مناطق مختلفة.. وفي بضعة أيام قضيتها في الزقازيق.. حاولت التعرف على معالمهما، وأهم منشآتها.. ثم جرى نقلنا إلى منطقة أخرى، أقرب إلى المنطقة الأثرية المعروفة «تل بسطة»، حيث التحقت بالكتيبة الأزهرية.

كان المكان «عزبة» صغيرة، أو «فيلا» لصاحبها الأستاذ حسن العشماوي، اتخذت مركزًا للتجمع من ناحية، واستكمال التدريب من ناحية أخرى، وكنا قد تدربنا على الرماية في معسكرات التدريب بالقاهرة..

لم أشارك إلا في عمليات استطلاع.. وخرجت مع بعض الأفراد إلى «تل بسطة» حيث تم التدريب عدة أيام على الرماية، وكان قائد المتطوعين الأستاذ محمود عبده - وهو أحد أبطال حرب فلسطين من رفقاء البطل

أحمد عبد العزيز وأركان حربه كمال الدين حسين. وأذكر أن زميلي الأزهري - الدكتور شحاتة - لاحظ أن هذا الرجل خلع «السويتر» الصوفي المبطن الذي يرتديه لكي يختبر درجة حرارة الجو، حيث كنا نرتدي مجرد قميص وبنطلون، ويترقب كل منا دوره في محاولة - إصابة الهدف بمدفع «الاستن»، في أحد وديان هذه التلال التاريخية بالشرقية، واسمها التاريخي بويسطا، وتشتهر «بتل بسطة»، وهي من الأماكن التي ما تزال تخبئ في ضميرها بعض المعلومات عن مراحل التاريخ المصري القديم وآثاره المادية.

علمت أن والدي - الذي كان يعلق على دراستي الأزهرية أملًا كبيرًا - سعى لاستعادتي، وكان قد عانى من قبل تجربة سفر أخي - الأستاذ محمد الموظف حينئذ بوزارة العدل - ووكيل وزارة التموين فيما بعد، الذي سافر من قبل ضمن المتطوعين في حرب فلسطين، وعمل ضمن قوات «الكوماندز» تحت قيادة البطل أحمد عبد العزيز أيضًا. . في منطقة «بيت صفافا» على مشارف القدس الشريف، وشارك مع الضابط بالجيش المصري، المتطوع عبد الكريم المنزلاوي - وهو أحد أقاربنا الذي استشهد في هذه المنطقة - في الدفاع عن القدس الشريف.

فسعى لدى المشرفين على حركة المقاومة - في القاهرة - التي كانت تمارس حربًا تُعدُّ حرب استنزاف، ضد القوات البريطانية بمنطقة القناة، وكان للقرى التي حول مدينة الإسماعيلية، وتتخلل مواقع القوات الأجنبية دورٌ كبيرٌ في ذلك. . وقد شهدت هذه الفترة استشهاد الشابين عمر شاهين وأحمد المنيسي، من أفراد كتيبة جامعة القاهرة في إحدى

العمليات، وكان لاستشهادهما أثر كبير في القاهرة، التي كانت تتفجر غضبا ضد القوات المحتلة، وتمر بفترة المخاض التي تولدت عنها بعد أشهر قليلة ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢.

وفي أحد الأيام استدعاني الأستاذ محمود عبده - وكان شخصية حازمة، ذات سمات عسكرية ظاهرة، مع أنه أستاذ رياضيات بالتربية والتعليم، وقد عمل بعد الثورة مديرًا لمكتب كمال حسين وزير التربية والتعليم. . ومعي زميل آخر، وكلفنا بالعودة إلى القاهرة فورًا، لتسليم أنفسنا لإدارة معسكر التدريب بالأزهر، وتركت زملائي في الكتيبة الأزهرية وعدت إلى القاهرة، كسيفَ البال، تقديرًا لرغبة أبي؛ حيث إن القتال غير الواجب شرعًا على الكافة، يتطلب موافقة الوالدين - ورحم اللَّه الجميع، ورحم تلك الأيام العظيمة؛ إنه سميع مجيب.



(٩) مساء ٦ أكتوبر في لندن

كنت بعد وصولي إلى لندن للدراسة، ومعي زوجتي، والتحاقي بكلية الدراسات الشرقية والأفريقية بجامعة لندن، سكنت شمالي هذه المدينة - بمنطقة «هيبرى»، غير بعيد من مركزها حيث توجد الجامعة، مع أسرة مسلمة من أصول باكستانية، في شارع يحمل اسم السياسي البريطاني، الذي نكن له نحن العرب مشاعر الكراهية، لموقفه العدائي الظالم لنا في قضية فلسطين، إنه مستر بالفور Balfore، صاحب الوعد المشئوم.

أنزلني أصحاب البيت في الشقة العليا، واحتفظوا بالدورين الأرضي والأوسط، فكنت إذا احتجت التليفون المثبت عند أصل السلم بالدور الأرضي، أنزل لإتمام الاتصال ثم أصعد السلم عائدا إلى مسكني.

وكنت صبيحة هذا اليوم قد بقيت في المنزل لم أغادره إلى الكلية، ولا إلى المدرسة الإنجليزية التي أتابع فيها دراسة اللغة الإنجليزية، وإن كنت قد قُبِلتُ فعلًا طالبًا بجامعة لندن على النحو الذي وصفته في حكاية أخرى. وناداني أهل المنزل لمكالمة تليفونية من الأستاذ المصري - الذي يعرفونه جيدا - الدكتور محمد عبد الحليم. ونزلت مسرعًا، ورفعت السماعة إلى أذني - وإذ به يبادرني: كيف أنت وأخبار اليوم؟

- قلت له: أية أخبار يا دكتور محمد.

- قال: ألم تعلم بقيام الحرب بين مصر وإسرائيل؟

كان منتشيًا، وهو يسوق إليَّ الخبر، وأنا خالي الذهن، فسادت لحظةُ

صمت استعذْتُ خلالها أيام ٦٧ ، وأشفقت من النتائج - علم اللَّه - إلى حد كبير. . ولاحظ عليَّ الطرفُ الآخر من التليفون صمتي. . فقال لي: ما بالك؟ وكانت السماعة فعلًا قد كادت تسقط من يدي. فقلت: ربنا يستر، فقال لي وقد أدرك ما بي:

- لا ، ليس الأمر، كما تظن، إن الإذاعة الإنجليزية تقول: إن حركة الدبابات المصرية فوق قناة السويس أكثر انتظامًا من العربات في ميدان التحرير. . وهنا فقط بدأت أتنفس الصعداء، وأستعيد توازني - والحق يقال - وأتجاوب مع الأستاذ المنفعل بتطور الأحداث، وأشاركه مشاعر الفخر والفرحة.

لقد كانت أيامًا خالدة. . لم أعش في حياتي مثلها. . إلا الأيام الخالدة من يناير ٢٠١١ في ميدان التحرير.

حتى كانت الثغرة المؤلمة، وأذكر أن أستاذي البريطاني وكان أيرلنديا يحب مصر، وإن كان القوم هناك يحسبون للنفوذ اليهودي ألف حساب -رغم عدم محبتهم لهم- وقد لاحظ اكتئابي حينذاك، فقال متسائلًا: أنت حزين، فأجبته.

- طبعًا. فقال، مهونًا عليَّ ما أنا فيه:

- لا تحسبن الأمر بالغ السوء، إن الموقف المصري جيد.

ومن وقائع أيام الثغرة أن زميلي الدكتور فهمي حرب، دعاني للغداء عنده، وذهبنا نشتري أطعمة مصرية، من بقال من أصل يوناني مهاجر من القاهرة، وجدته في بالطو البقالين الأصفر جالسًا في مدخل «السوبر

ماركت»، فلما رآني مع د. فهمي الذي يعرفه قال: - «عمر ديل الكلب ما ينعدل!!»

وفوجئت باللهجة المصرية، ولكني لم أفهم كلامه، وفسر لي الدكتور فهمي عبارة الرجل المحب لمصر: إنه يعلق على الثغرة، وما فيها من خبث وكيد.

ومرت الأيام بأفراحها وأتراحها، وعشناها بل عاشتها الجاليات العربية والإسلامية في عمق وانفعال، وأذكر أنى في إحدى المظاهرات الكبرى دعمًا للموقف المصري بمدينة لندن، أثناء التطورات الديبلوماسية، سألت الشاب الذي يسير إلى جانبي، فقال لي: إنه يمنيُّ الأصول، يدعى أحمد يعمل في صناعة النسيج، ولد في «يورك شاير»، لا يعرف من العربية إلا القليل، لكنه عربي الجوهر، مسلم القلب، مستعد أن يذهب إلى آخر الدنيا نصرة لإخوانه المصريين.

تلك هي أيام أكتوبر، وتلك هي أمتنا الخالدة.



(١٠) خطاب من الآخرة

سافرت يوم أول مايو - عيد العمال - عام ١٩٧٣ قبل حرب التحرير في ٦ أكتوبر بخمسة أشهر، إلى مدينة «لندن»، عندما أتيحت لي فرصة «لجمع المادة العلمية»؛ لاستكمال بحثي للدكتوراه في الفلسفة الإسلامية بجامعة القاهرة، حيث أعمل عندئذ مدرسًا مساعدًا بكلية دار العلوم. وكنت في الحقيقة قد أنجزت القسم الأكبر من هذه البحث بل طبعته، ودرست من أجل ذلك اللغة الفارسية، وبلغت فيها مستوى لا بأس به. كما أني كنت بسبب ظروفي الشخصية ومعاناتي للسجن والاعتقال أكثر من مرة، قد بلغت الثالثة والأربعين من العمر، وتزوجت وإن لم أرزق بأطفال. وبرغم هذه الظروف فقد رحبت سعيدًا بفرصة السفر لأتعلم شيئًا جديدًا، وبخاصة اللغة الإنجليزية، ولأتصل ببيئات وتقاليد جامعية أكثر تقدمًا. . وكان قد سبقني إليها زميلي - الدكتور لاحقًا - محمد السنهوتي، الذي آثَرَ المقام بكامبردج، بينما آثرت الاستمرار في لندن مقر مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية. . وقد عجبت عندما زارني الأستاذ السنهوتي، وعرفت عزمه على العودة بعد بضعة أشهر فقط إلى القاهرة.

كان أستاذي الدكتور محمود قاسم - رحمه اللّٰه - قد ودعني في حفل محدود، بحديقة بيته بالدقي، وشجعني على السفر. وقد نصحني بالعودة فورًا عند انتهائي من إنجاز بحثي، للحصول على درجة

«الدكتوراه» بمصر، تحت إشرافه. وأذكر أنه قال لي عشية السفر: لسوف تجد أثر هذه الرحلة، ليس في معلوماتك وفكرك فحسب، بل في شخصيتك - رحمه اللَّه.

هبطت الطائرة بمطار هيثرو بلندن، وما لدي من كلمات لا يسعفني للتفاهم الشخصي، الذي كانت تنهض به زوجتي. واستقبلنا في المطار زميلي - الدكتور - فهمي حرب، الذي كان يدرس بإحدى مدن الشمال، ومعه الأستاذ الدكتور محمد عبد الحليم، الدرعميّ الذي طالما سمعتُ عنه، وكان قد غادر القاهرة أول الستينيات، إلى كيمبردج، ثم انتقل منها للعمل محاضرًا بكلية الدراسات الشرقية والإفريقية، بجامعة لندن، بشعبة اللغة العربية ضمن «قسم الشرق الأوسط»، القسم الذي كان منذ سنين يسمى «قسم اللغة العبرية واللغات الأخرى». ولكن تغير الموازين، بعد فورة النفط العربي، وتطور العلاقات الأوربية العربية، غيَّرت شيئًا ما من التسميات والبرامج؛ فكانت العربية التي يشرف عليها الأستاذ جونسون على سواء مع العبرية، والتركية، والفارسية التي تتولاها الأستاذة «لامبتون»، القوية الشخصية، التي ترأس القسم كله.

وسكنت بمنطقة «ماربل آرش» بجوار زميلي الأستاذ فهمي حرب، ثم انتقلت إلى منطقة «هيبري» في الشمال أيضا، بشارع بلفور، كما سلفت الإشارة - مع أسرة باكستانية الأصول، حتى عدت إلى القاهرة بعد حصولي على درجة «الدكتوراه»، في موضوع مطور عن الموضوع الذي اخترته في القاهرة. ولذلك قصة تروى:

فقد التحقت بجهد من مستر «فيولنج» - إنجليزي من أصول ألمانية -

كان صديقًا حميمًا لأستاذنا - في التاريخ - الدكتور محمد حلمي، وكان مخلصًا لمصر ولعمله بالمركز الثقافي المصري، المشرف على البعثات، قرب محطة «جرين بارك» - بوسط لندن، غير بعيد من «الهايد بارك» الشهيرة - وكان في الأصل «فيلا» يقيم بها الملك فاروق الأول، وهو ولي لعهد أبيه فؤاد الأول، يتلقى دراسة على أساتذة خصوصيين، عرب وإنجليز، بمدنية لندن، التحقت بإحدى مدارس تعليم «الإنجليزية»، بعد فترة من تلقي دروس أولية على إحدى المعلمات من أصل أيرلندي، صديقة للعرب. وحرصت على النهوض بواجباتي المنزلية وقطعت شوطًا - فيما بعد فترة عطلة الصيف - في دراسة اللغة، وكنا مجموعة تتنافس - في ذلك - الأستاذ فهمي، وزميل آخر سبقني إلى لندن؛ هو «الدكتور» شفيع الدين محمد السيد، وزميل «درعمي» آخر، ينهض بوظيفة أمين المكتبة بالمركز الثقافي. وقد عاد الأستاذ شفيع إلى مصر يوم قيام حرب أكتوبر، واضطر للنزول في ليبيا حتى يدخل إلى مصر برًّا، بعد «الدكتور» السنهوتي.

وكان هؤلاء جميعًا يلتقون كل جمعة، مع الإخوة المصريين أئمة المركز الإسلامي بلندن، منهم صديقي من القاهرة الدكتور سيد الدرش - رحمه اللَّه - فيؤنسون وحشة الغربة. ولكن الفضل الأول في الحقيقة يرجع إلى الأستاذ الدكتور محمد عبد الحليم الذي قدم لي أكبر الخدمات، عن طواعية ومحبة متبادلة. ثم إلى زوجتي وزميلتي الأستاذة ثناء محمد السعيد، فقد تحملنا معًا - عن اقتناع - عبء الإقامة بلندن، وإنجاز بحث الدكتوراه هناك، وغالبًا ما كنت أُملي وهي - جزاها اللَّه خيرًا - تكتب. وتحملنا مسئولية أنفسنا بلا بعثة آمنة ولا منحة، اللهم

إلا معونة مؤقتة، قدمتها لنا المدرسة «soas»، بعد الاقتناع بجديتي في العمل، وبعد قيام حرب أكتوبر. وكان الإعفاء من الرسوم الدراسية أهم ركن في تلك المعونة، التي يرجع الفضل فيها - بعد توفيق اللَّه - إلى مس لامتبون، التي كنت قد تعرفت عليها بعد قيامي بعرض «السيمينار التقليدي» عن موضوع بحثي، وحالفني فيه التوفيق، فقدمتني إلى لجنة المنح الداخلية بالمدرسة، وكانت ترأسها، فقُدمت لنا المعونة المذكورة. ولكن اعتمادي - بعد اللَّه تعالى - كان على دروس خصوصية أقدمها لبعض الراغبين في تعلم العربية، ودروس نهاية الأسبوع للجالية المسلمة، ضمن برامج المركز الإسلامي بلندن. ولم أتمتع قطُّ بعطلة طوال فترة مقامنا بلندن أربع سنوات وأربعة أشهر، غير أني رتبت زيارة وحيدة لزوجتي؛ لترى أهلها بالقاهرة، شهِدَتْ فيها ما سمى «بانتفاضة الخبز» أثناء عهد السادات.

أمَّا قصة الرسالة فهي أنني تلقيت دعوة على الغداء من زميلي الدكتور حرب، وكنت قد انتقلت إلى «هيبرى»، وظل هو في «ماريل آرش»، بعد «أيام الثغرة» على النحو الذي أشرت إليه في «حكاية أخرى»، وكيف خرجنا إلى «سوبر ماركت» مجاور لأحد اليونانيين المهاجرين من القاهرة أيام عبد الناصر، وكيف فاجأني تعليقه على «الثغرة» بقوله: «ديل الكلب ما يتعدلش» فتناولت معه الغداء، وبقينا نتحدث إلى آخر اليوم..

وقدم إليَّ في المساء رسالة من أستاذي الدكتور محمود قاسم أرسلها إليَّ بعنوان المكتب الثقافي بلندن، احتفظت بها حينًا ثم شاء اللَّه أن

أفقدها في بعض الظروف. وكانت حميمة مشجعة، يدعوني فيها للمثابرة والإفادة من الفرص المتاحة، وخاصة باستيعاب أكبر قدر من الإنجليزية، ويعدني أن يناقشني في رسالتي التي أعددت أهم أجزائها بإشرافه في القاهرة، فور عودتي إليها.. ويذكر أنه تلقى عرضا من الإخوة الليبيين للعمل معارًا لديهم ببدل مغر، ولكنه يفضل عدم السفر لأمرين: حسن معاملة الزملاء في دار العلوم له، بعد انتهاء عمادته للكلية التي استمرت عشر سنين وإحالته إلى التقاعد. وثانيا أني - كما يقول - لا أستطيع أن أفرط بأي ثمن في حريتي العقلية. وفي هذا السياق يشير مستنكرًا - رحمه اللَّه - إلى بعض الزملاء الذين يشاركون فيما بدأ القذافي يروج له حينذاك من ثورة ثقافية.. كانت رسالة فريدة بالغة الأهمية. ومن يعرفون الأستاذ الدكتور قاسم يعلمون أنه قليل الإفضاء بذات نفسه، ثم إنني تلميذه لا زميله، ولكن علم اللَّه كتب هذه الرسالة التي كانت آخر عهدي به، وبتوجيهاته - رحمه اللَّه - بحميمية بالغة ولطف كبير.. وكم خسرت بضياعها ولكن خلاصتها فيما سبق من أسطر.

المفاجأة القاسية كانت مصارحة «الدكتور حرب» لي، آخر اليوم: «الدكتور محمود قاسم تعيش أنت». كان الخبر كالصاعقة بالنسبة لي. وتماسكت بعد برهة، وعدت إلى مسكني، وقررت ليلتها أمرًا من أهم ما أثر في توجيه حياتي: وهو أن أستمر بمدينة لندن، وفي كلية الدراسات الشرقية والأفريقية "soas"، حتى أحصل على درجة الدكتوراه. وأعانني اللَّه - بلا غطاء رسمي - على تنفيذ قراري، وإنجاز هدفي،

وعدت خلال شهر سبتمبر من عام ١٩٧٧م إلى كلية دار العلوم - بعد أن حصلت على درجة الدكتوراه من جامعة لندن، مدرسًا بقسم الفلسفة، وبعض طلابي ممن يحرصون على سرعة التحرك الجامعي، لا على طبيعته، قد صاروا أساتذة مساعدين. وما فاتني شيء بحمد اللَّه، فقد عملت وكيلًا لكلية دار العلوم. وإن كانت الأستاذية هي أرقى المواقع الجامعية، ولم أذهب إلى التقاعد حتى اختارني الخالدون بمجمع اللغة العربية بالقاهرة عضوًا زميلًا، تحت قيادة الأستاذ الدكتور إبراهيم مدكور، وهو أستاذ لأستاذي الدكتور قاسم. ولم تمض سنوات حتى صدر القرار الإجماعي من مجلس أمناء الجامعة، الإسلامية بإسلام آباد، باستدعائي على حين فجأة رئيسًا لها.. رحم اللَّه أستاذنا د .محمود قاسم وجزاه عن تكوينه لنا، وتوجيهه إيانا، خير الجزاء، وجمعنا به في مستقر رحمته، وجزى عني، زملاء لندن الكرام، وخاصة الدكتور سيد الدرش، والدكتور محمد عبد الحليم، الرجلين الأصيلين النبيلين، خير الجزاء. آمين.



(١١) امتحانان في يوم واحد

ليس فقط في يوم واحد، وأظنه كان يوم الأحد أيضًا، بل - صدقني عزيزي القارئ، فأنا على عهدي معك، أحكي «وقائع وقعت» لي، ليس لي فيها هنا إلا «الحكي» - : في وقت واحد أيضًا. كيف كان ذلك؟ وهو يشبه «التناقض» عند أهل الاصطلاح:

أي أن يظهر المرء في مكانين مختلفين في وقت واحد! فذلك أمر محال.

كنت قبل اعتقالي عام ١٩٥٤ - في الأزمة المشئومة بين عناصر القوى الوطنية بمصر، التي لم تتعلم «ثقافة التوافق»، برغم التجارب المريرة، في ١٩١٩ وما بعدها وما بعدها - قد التحقتُ طالبًا بكلية دار العلوم، شجعني على ذلك، أني - وقد كنت الأول بين طلاب السنة الثانية بأصول الدين - لا أستطيع حضور الدروس؛ لأسباب أمنية، وحضرت متخفيا «امتحان المسابقة»؛ فليس كل من يخطب ود دار العلوم يناله فعلًا؛ إذ لابد من المسابقة، وفزت به بحمد اللَّه، وتابعت دروس «الفصل الأول» بها، حتى ظهرت وقائع محاكمتي غيابيًّا في الصحف، وجاءني زميل مشفق، وقال لي: اخرج الآن فورًا وكنت واقفًا في ركن من فناء الكلية بمبناها القديم في حي المنيرة - وقرأ هو محاكمتي في الصحف قبل أن أطلع عليه، وخرجت كما قال، وعرفت ما نسب إليَّ وقيل عني.. وانتهى إلى الحكم - غيابيًّا - بسجني عشر

سنين، ولكني عدتُ -بحمد اللَّه- إلى الكلية بعد قرابة سبع سنين، إذ قُبض عليَّ وأعيدت محاكمتي، في ظروف قاسية، قد أحكى طرفًا منها فيما بعد، وجئت في عام ١٩٦٠ لأستأنف دارستي في الكليتين معًا، وأنا فوق الثلاثين.

لكني كنت شغوفًا بالدرس، وتعويض ما فاتني؛ إذ لم يسمح لنا - كما هو الشأن عادة قبل هذه الفترة وبعدها - بحضور الامتحانات، وأذكر أن بعض زملائي في السجن من العمال، تابع الدراسة من السجن -بعد أن سمح لهم بالدراسة- حتى حصل على «ليسانس الحقوق»، وصار بعد الإفراج عنه عضوًا بمجلس الشعب، وزارني في أواخر الثمانينيات بدار العلوم.

مضت حياتي الطلابية في الكليتين سَلِسَةً يسيرة دون أية عقبات، مع أني كنت لكبر سني أعول نفسي، وأعمل إمامًا «لمسجد الفتح» بقصر عابدين، في حكاية أخرى لا تخلو من فحوى.

وكان ما يشغلني هو أداء الامتحانات «المزدوجة»، ولكني والفضل لله وحده: قضيت أربع سنين دراسية في الكليتين، وكأني أصنع بنفسي «جدول» الامتحانات؛ يومًا هنا ويومًا هناك، بانتظام دون تداخل أو تعارض.

اللهم إلا يومًا واحدًا، هو يوم الأحد العجيب الذي ألمحت إليه في بداية هذه الحكاية، كان عليَّ أن أؤدي فيه امتحانين: في اللغة الإنجليزية «بالترم» الثاني للسنة الأولى بكلية دار العلوم بالمنيرة، قرب دار الهلال،

الساعة التاسعة صباحًا حتى الثانية عشرة؛ وأن أؤدي أيضًا امتحان المنطق - فيما أذكر - بكلية أصول الدين - السنة الثانية، وكانت عندئذ في أقصى شارع شبرا «بالخازندارة»، من الساعة التاسعة صباحًا حتى الثانية عشرة؛ أي في الوقت نفسه.

واتفقت مع أخي الأستاذ علي الشافعي - وكان معلمًا يقيم بمنيل الروضة - أن ينتظرني «بتاكسي» على باب دار العلوم، حيث أديت الامتحان في قرابة نصف ساعة، وكان بدائيًّا يسيرًا، وخرجت متوكِّلًا على اللَّه، لأركب التاكسي إلى شبرا، فوصل بنا في نحو نصف ساعة أخرى، حوالي العاشرة، ويرفض المشرفون على الامتحان - الذي مضى على انعقاده ساعة كاملة - إدخالي إلى قاعة الامتحان، ويذهبون بي إلى وكيل الكلية «الشيخ محمد الديناري» الذي سألهم في هدوء: هل خرج أحد من الطلاب الذين تسلموا الأسئلة من قاعة الامتحان؟ فأجابوه بالنفي، فقال كلمة واحدة: أدخلوه.

وجلست أتمالك نفسي، ثم أمارس إحدى هواياتي في الإجابة عن أسئلة المنطق، من العاشرة حتى الثانية عشرة، وأنا - علم اللَّه - أخاف الامتحانات قبل انعقادها، فإذا تسلمت ورقة الأسئلة جلست أستمتع بالإجابة في انتظام وهدوء. وهكذا أديت امتحانين بنجاح في كليتين متباعدتين نسبيًا، في وقت واحد والحمد للَّه وحده. وتغمد برحمته أخي الأستاذ علي الشافعي، وشيخنا الشيخ محمد الديناري!

❋ ❋ ❋

(١٢) الشيخ «بِيجْرِي»

كنت في صيف عام ١٩٥٤ أسكن بحيّ «روض الفرج» إذ كنت طالبا بكلية أصول الدين، التي تتخذ مقرها حينئذ بالمدرسة الملحقة بمسجد «الخازندارة» بشبرا، ومعي أحد أشقائي، مع زملاء آخرين، بحارة حسن خير اللّٰه المتفرع من «شارع ١٠»، المؤدي إلى «وابور المياه/ شركة مياه القاهرة».

وبدا لشقيقي هذا أن يكتب خطابا سياسيا ملتهبا إلى أحد أقاربنا المعار إلى السودان، في الظروف السياسية المضطربة التي سبقت «حادث المنشية»، في الإسكندرية، ضد الرئيس جمال عبد الناصر. وكانت نتيجة ذلك الخطاب أن أعيد المرسل إليه المسكين، من السودان إلى السجن الحربي مباشرة، وأن وجهت «المباحث العامة = الأمن الوطني الآن» سيارة مليئة بالجنود يصحبها ضابط برتبة «يوزباشي = نقيب» بملابس مدنية، للقبض على مُرسِلِ الخطاب، الذي لم يكن موجودًا بالشقة، فأفلت من الاعتقال.

وكان من نصيبي، وثلاثة من «الأصدقاء»، كان أحدهم قادمًا لأداء امتحان في الصباح التالي، أن يقبض علينا لسبب لا نعرفه، وعندما سألت السيد النقيب عن أمر «النيابة» بالاعتقال، وجه إلى صامتًا صفعة شديدة لم أتوقعها، أطارت العمامة من على رأسي، وأثارت غضبي وانطلق الجنود في الشقة يعبثون بمحتوياتها، ويجمعون كل ما يشكون فيه من أوراق

أو كتب أو صور. . ، وساقونا إلى سيارة الضابط، الذي أحس مزهوًّا بأنه سيعود إلى رياسته بغنيمة كبيرة، وإن لم يكن بينهم مرسل الخطاب.

خرجنا من الحارة إلى شارع «أبو الفرج» الذي يوجد في نهايته «سوق الخضار» القديم للقاهرة، حيث يتفرع شارع السوق الذي ينتهي - بطريق غير مباشر - إلى قسم روض الفرج، وفوجئنا أن الضابط الشاب أمر سائق عربة الجنود أن يسبقوه إلى القسم؛ لفرط ثقته بنفسه، أو لسكرة النجاح الذي فاق ما يتوقعه.

وهنا تولدت لدينا نحن الأربعة المكرسين في الكرسي الخلفي، وحضرة الضابط في الكرسي المجاور للسائق، فكرةُ الهرب.

قلت لهم في هدوء خافت: إننا اقتربنا من مدخل «سوق الخضار»، حيث توجد «نقطة بوليس السوق» فتريثوا قليلًا. واتفقنا أن يمسك «سيّد» بالضابط يمنعه من الحركة، وأن يمسك «فاروق» بالسائق ليوقف السيارة ثم ننطلق هاربين.

غادرنا سور السوق وأصبحنا عند مفرق شارع «ابن الرشيد»، حيث نفّذت الفكرة، وأخذت السيارة تقف وتتحرك، زاحفةً، والسائق قد فقد السيطرة عليها، وعلى أعصابه تمامًا. أما الضابط المغرور فقد فوجئ بالأمر، ولكنه اشتبك في صراع مع غريمه «سيد» الذي كان طالبًا في آداب عين شمس. وانطلق الثلاثة الآخرون -وأنا من بينهم- هاربين إلا أن «صاحب الامتحان» ظن أنه سيمكن من أداء امتحانه، فعاد إلى مكانه في السيارة مطمئنًا، لكنه لم يطلق سراحه إلا بعد عام كامل.

وأما أنا فقد دخلت إلى حارة في مواجهة شارع ابن الرشيد بملابسي الأزهرية، وإذا به زقاق مغلق، فعدتُ إلى الشارع الرئيسي، حيث الضابط يصارع زميلنا سيّد، ودخلت في الحواري المجاورة التي أعرفها جيدًا، حتى انتهيت إلى منزل صديق لي، قضيت فيه بعض الوقت، ثم خرجت في المساء، بعد تغيير ملابسي، لأمُرَّ بفترةِ اختفاء في القاهرة، استمرت ستة أشهر، انتهت بالقبض علي عند مستشفى القصر العيني، كما وصفت في «حكاية» أخرى.

عندما غادرت السيارة هاربًا، وفوجئت بانسداد الحارة، عدت مهرولًا بثيابي الأزهرية، فلفت منظري صبيان الحارة، وتصايحوا الشيخ «بيجري، الشيخ بيجري»، وحاولوا أن يتبعوني، فتخلصت منهم، لأعود إلى موقع الهرب من جديد، وأصطنع الوقار لأدخل حارة أخرى، مارًّا بمنظر الصراع بين الضابط وصاحبنا، وقد تجمع بعض الناس حولهما. وقد علمت أن هذا الضابط ظل، مع بعض أعوانه، في المنطقة يبحث عنا في غير جدوى. وبقي منظر الأطفال وتصايحهم، وجملة الحدث، من أغرب وأحرج المواقف التي مررت بها في حياتي.. وحكاياتي.

هل تعلم أيها القارئ، وأنَّى لك أن تعلم لولا حكاياتي هذه، أنني - وقد تعاهدنا على الصدق والأمانة - عدت بعد أشهر من اختفائي، إلى هذا الصديق الذي أويت إلى منزله يوم الهروب، وما إن جلست حتى فاجأنا «معاون مباحث» قسم روض الفرج، وظننت أنها «المعطوبة»، ولكني اتفقت مع صاحب البيت أني ابن عمته، جئت من الريف، وكنا في أوائل العام الدراسي، ليستأجر لي سكنًا في جواره، وكان اسمي الرسمي حسن

محمود عبد اللطيف، يبعد عني شبهة الاسم المعروف «حسن الشافعي».
ولحسن الحظ تبين أنها شكوى روتينية من جيران، بشأن التخلص من الزبالة «الفضلات المنزلية»، وجاء سيادة المعاون «ليقفِّل» المحضر، الذي يعلم بخبرته أنه وليد خلافات عادية بين الجيران، وقَبِل منا قصة المسكن، حيث لم يكن في ذهنه، ما يشغلنا نحن من مسألة الاختفاء التي تملؤنا قلقًا. ولم أصدق نفسي، وكذا «صديقي»، وأنا أخرج من بيته مرة ثانية آمنًا، لأواجه مصيري بعد ذلك في خضم القاهرة نحو ستة أشهر، ولم يكن هناك رقم قومي، ولا تراتيب استخبارية، كالتي اتخذت بعد ذلك. وأحسب أنه لولا اتصالي تنظيميًّا بآخرين لطالت بي فترة التخفي. ولعل الخيرة فيما اختاره اللَّه، وله الحمد على كل حال. ولم تنته عجائب التخفي والوقوع لأهون سبب، فإليك واقعة أخرى.



(١٣) جنيه واحد يعكس القضية

حُمِّلت مسئولية رجلين، أحدهما شقيقي، والآخر ابن عمي، وأنا في مرحلة تعليمية دقيقة، وقد اعتدت التفوق الدراسي، ولكن التفوق جهد وتركيز لا مجرد عادة.

وكان كل منهما أيضًا في مرحلة حساسة من حياته. وقد دفعت ثمن ذلك في ترتيبي بالشهادة الثانوية الأزهرية، ولأول مرة لا أكون من العشرة الأوائل، ولقد كانت بحمد اللَّه - آخر مرة.

حين مالت حياتي إلى عدم الاستقرار، واضطررت للتخفي، سكن كل منهما منفردًا، وتقلبت أنا في محنة الاختفاء بالقاهرة. وكان ابن عمي فتى صغيرًا دون الرشد، فاخترت له سكنًا في «السبتية» إلى جوار أقارب لنا، واستغل بعض زملائه ظروفه، وزعموا له أنهم سيستضيفون عنده قريبة لهم، وحين جاءت «الضيفة» كان معها أخرى، وتناوب الذئاب عليهما، وأما فتانا فأسقط في يده - كما زعم - أو لعل الشيطان قد لعب به مع صحبة السوء، لكن الجيران، وخاصة أقاربنا، اعتبروا تلك الواقعة، في حارة مصرية، يعرف أهلها كل منهم الآخر، سبة في جبينهم، فاستدعوا الشرطة التي قبضت على الجميع، الفتاتين والولدين، وابن عمي.

وجاءني قريبي يخبرني بالحادثة المخزية، وأن صاحبنا سيعرض صباح الغد على النيابة، كنت في أزمة وضيق، ولم يكن في جيبي إلا جنيه مصري واحد، ودلوني على محام في مكتب بجوار مقر «النيابة» بالسبتية.

ذهبت إليه فحكيت له القصة، وأخرجت في حياء «الجنيه» فأخذه الرجل دون حرج أو تعليق، وطمأنني وقال: سأحضر معه غدًا العرض على «النيابة».

وظهر اليوم التالي، مررت على مكتب المحامي، الذي لقيني سعيدًا، وقال: هذه أسهل قضية حضرتها؛ لقد اكتشفت من البداية. أن الفتاتين «مسجلتان آداب»، وأن ابننا دون سن الرشد، وطلبت من وكيل النيابة أن يكيف الحالة بأنه مجنيٌّ عليه من هؤلاء المنحرفين، وأن توجه إليهم تهمة هتك عرضه!

ثم بشرني بصدور قرار الإفراج عنه، وأنه عليَّ أن أذهب لتسلمه من «قسم روض الفرج».

لم يكن الرجل يعلم، وهو يبشرني بالإفراج ما يدور في نفسي، إزاء الذهاب «برجليَّ» إلى قسم روض الفرج، لكني وجدت أن المروءة تفرض عليَّ أن أذهب لتسلم الفتى الصغير، من قسم روض الفرج، الذي يبحث عني ويسعى لاقتناصي، ولم يكن أمامي أي بديل آخر.

ودخلت بخُطى مترددة، من باب القسم، إلى إدارة الحجز، وذكرت الاسم، ومعي إخطار من المحامي بتسلم «المجني عليه»، وقرار النيابة بالإفراج، وما يدور في رأسي عالَمٌ مختلف تمامًا عن حالة «هتك العرض»، التي يُجرِي «الشاويش» ميكانيكا إحدى إجراءاتها، ووقعت باسمي الرسمي: حسن محمود عبد اللطيف، وليس حسن الشافعي طبعًا حسب الشهرة.

وخرجت ومعي صاحبنا، وأنا لا أصدق نفسي؛ فلو شكَّ أحد من الجنود الذين يحيطون بنا، في اسمي أو شكلي، لوقعت في ورطة شديدة، وكانت هذه مع ظروف الإفلات السابق من السيارة، وشكوى الجيران بشأن النظافة، المرة الثالثة للمرور من قبضة سلطات قسم روض الفرج بسلام.. وكل شيء له أوان.



(١٤) الأبيات الأربعة

لا أدري لماذا لا تطاوعني نفسي إلى رواية تجربتي، في السجن الحربي، حتى أحملها على بعض ذلك حَمْلًا، وأعتقد أن من فضل اللَّه - تعالى - أن الذاكرة الإنسانية لا تحتفظ بذكرى الآلام الحسيَّة، وإن كانت الآلام النفسية والأوجاع المعنوية تلازمها، ولا تكاد تمحى ولو طال الزمان.. وهي أشد وأقسى:

وقد ينْبُتُ المرعى على دمنِ الثرى وتبقى حزازات النفوس كما هِيَا

بعد حادثة الاعتقال الأولى، والهرب من السيارة، كما حكيت من قبل، جربت محاولة الاختفاء في القاهرة قرابة سبعة أشهر، وكان من الممكن - في ظروف القاهرة حينذاك - أن تطول لولا ارتباطي التنظيمي بآخرين، أوقعت بهم وشاية ما، وتعرضوا لتعذيب قاس حتى أفضى أحدهم بموعد بيني وبينه على «كورنيش النيل»، قبالة المبنى الذي يعرف الآن «بالمستشفى الفرنساوي»، ضمن القصر العيني القديم بجنوب القاهرة.

كنت أسير بهدوء قبيل صلاة الجمعة، مترقبًا لقاء صاحبي، فسمعت صوتًا من خلفي ينادي: «حسن شافعي»، مضيت في سيري، وتظاهرت بعدم السماع، وإذا به يضع يده تحت إبطي ويقبض على ذراعي بشدة، ويقول: ألست حسن الشافعي، فقلت: لا، أنا عصام الدين عبدالمنعم.. كما أعددت نفسي من قبل، وأغراني بذلك أني أفلتُّ من يد الشرطة ثلاث مرات.. بعد أن أكون في قبضتهم.. وأخذنا

نتجادل، والرجل المدرب قابض على ذراعي حتى وصلنا في نحو سبع دقائق إلى «نقطة بوليس» كانت بعد سور العيون عند «كوبري» المنيل، فأدخلني الحجز وإذا بي أجد صاحب الموعد «إياه» يقفُ من أثر التعذيب، مستندًا إلى الحائط، في حالة مزرية.. وفهمت أنه أخبرهم بحقيقة شخصي، وإن كنت تظاهرت أني لا أعرفه، وواصلت الإنكار.. «حلاوةَ روح»، حتى جاء الصاغ = الرائد أحمد زكي، بصورة مكبرة لي، ودخل عليَّ مُرَحِّبًا: أهلًا يا أبو علي.. وهنا أُسقِط في يدي، ولزمت الصمت، وأيقنت ألا مفر. وبعد نحو ساعة كنت أنا وصاحبي قد وصلنا السجن الحربي، شمالي القاهرة، قبل منطقة مصر الجديدة.

فأخذوه إلى مكان لا أعرفه، ووضعت في غرفة ٢×٢ مترا والأرض مغطاة بالإسمنت، في مبني - عرفت فيما بعد - أنه يسمى «الشفاخانة» أي المستشفى، وأحرى به أن يسمى «السلخانة»، ليكون اسمًا على مسمى بمعنى الكلمة. ووضعت القيود في يديَّ كليهما من وراء ظهري، وبقيت على هذا الوضع قرابة شهرين مدة التحقيق، لم أكن أعرف في البداية كيف أنام، أو أتناول ما يرمى من تحت الباب من طعام، وتعلمت - والنوم سلطان - رغم الصراخ المتواصل، الذي يتناهى إلى سمعي، أن أنام على وجهي فوق الإسمنت، وليس على جسمي إلا قميص وبنطلون، والخروج لقضاء الحاجة مرة كل أربع وعشرين ساعة. أما الطعام فبالفم من الطبق عندما يستحكم الجوع، كما تفعل الحيوانات المنزلية.

عندما حل المساء، اقتادني جندي إلى ما يسمى «المكاتب» أي إدارة السجن، حيث لقيني رجل ضخم الجثة، مهدل الثياب والشارب على

جانبي فمه، يرتدي «أوفرولا» دون رتب أو إشارات على كتفيه، ويمسك «بالكرباج» في يده اليمني كأنه سلاحه الأثير. ولهجته وتصرفاته مائعة، وغير منطقية، حسبته جنديًا أو «جاويشًا» كبير السن نسبيًا، فلم يكن في هيئته ما يوحي أنه ضابط «عظيم» أو غير عظيم، أو مدير السجن، ثم علمت فيما بعد أنه حمزة البسيوني - مدير السجن الحربي.

لا أدري لماذا حرص هذا «الرجل» على التعامل معي بنفسه، على مدى ليلة كاملة، دون أسئلة أو استنطاقات أو أي شيء، وكنت أعرف أن الواردين على السجن الحربي يتعرضون لما يسمى «تحية القدوم»، أو «الشاي والقهوة»؛ فالقوم كرماء، ويؤمنون بالقومية العربية والسخاء .. وكانت هذه عادةً «وصْلة» استقبال حارة، لمدة ساعة أو نصف ساعة.. أما في حالتي فقد أمر الرجل بنزع قميصي وتعرية نصفي الأعلى، وصلبني على ما يسمى «العروسة»: فتحة للرأس، وأخريان للذراعين، والظهر والكتفان نهب لمن قضى اللّٰه أن تمسخ إنسانيته، ويحترف - ضابطًا كان أو جنديًا - تلك الحرفة القذرة «تعذيبَ البشر»، بغرض التعذيب في ذاته، لا كوسيلة مساعدة على ما يسمى «التحقيق»! وهو في الحقيقة إملاء الأكاذيب، والحصول على توقيع المسكين، الذي وضعته المقادير بين أيدي هذه العناصر المنحطة من البشر، أو من كانوا يومًا ما بشرًا.

وأخذ الرجل يضربني بنفسه طَوالَ الليل، في عدة جولات، لا يتوقف إلا عندما يناله التعب. وقد أمر أكثر من مرة بإحضار الملح، ومسح ظهري الدامي، الذي نالت منه هذه الآلة الثعبانية المسماة «بالكرباج». وهي طريقة - أعني المسح بالملح - تحدث ما يشبه تطهير الجروح، وإن كانت

تلهب ما بقي من الجلد، وتجعل للضرب اللاحق بها أثرًا صاعقًا، وألمًا مضاعفًا. . ولا أدري كيف تحملت الضرب وأنا الضعيف البنية إلا من أنينٍ خافت، وكيف غلب على شعوري احتقار هذا «البني آدم»، الذي كان أحيانًا يسخر مني، ويناديني: «أنت حسن ولا عصام»؟ وربما قال - وأنا أعجب لقوله: «ما هو يا إحنا يا أنتم»، وسبب عجبي أنه آلة في دولة، وأنا شاب مسكين في الرابعة والعشرين، مع فتية قلائل، في الجولة الثانية من «محاكمات الشعب»، بعد الأولى التي حصدت العدد الأكبر بين قتيل وسجين، إلى جوار آلاف المعتقلين فيما يسمى بالسجن الكبير، وهو القسم الأكبر من هذه المؤسسة البغيضة في تاريخ مصر الحديث، التي حرفها الطغاة من هدفها في حفظ النظام والقانون بين أفراد القوات المسلحة، إلى تعذيب المدنيين. والتي جعلت التعذيب منهجًا وحرفة: من الضرب، والوقوف ساعات طويلة، والتعليق منكسًا، والتعذيب بالثلج في الثلاجة، والحرمان من النوم ومن قضاء الحاجة الضرورية، والضغط على الرأس بجهاز دائري يكاد يفكك الدماغ، والتعليق على «العروسة»، والصعق بالكهرباء وفي أماكن حساسة، وخلع الأظافر، والتعطيش والتجويع، والتهديد بالعدوان الجنسي، وإخراج المحكوم عليهم بالإعدام إيهامًا بتنفيذه ثم إعادتهم إلى زنازينهم، والإهانة النفسية بطوابير الأغاني في مرمى نيران المدافع، مدحًا للطاغية الذي ألقى بهم في هذا السجن، ليعانوا ألوان الأذى النفسي والبدني، والمهانات التي تضيق عن روايتها المجلدات. ولا حول ولا قوة إلا باللَّه.

ومنها ما حدث أثناء جلسات المحاكمة العسكرية لمحكمة الشعب

على يد اللواء حتاتة في مبنى المحكمة نفسه، من الضرب ساعات بأمر السيد اللواء، أثناء فترة راحته، حتى تعود «المحكمة» إلى الانعقاد.

لم يوجه إليَّ الرجل العجيب الكئيب - حمزة البسيوني - تهمة، ولا سألني سؤالًا، ويبدو أنه علم بهروبي من الشرطة، وطريقة اعتقالي، فأراد تأديبي في الليلة الأولى، وإعدادي لما سيكون عليه الحال فيما بعد.. خلال الأسابيع الثمانية، حوالي شهرين للتحقيق قبل أن يؤمر بنا إلى مكان يعرف «بسجن -٤» لمن ينتظرون المحاكمة.

أعادوني إلى الزنزانة، في حالة متدهورة، بعد ليلة كاملة من الضرب المتواصل تقريبًا، مع القيد الخلفي، ويداي وراء ظهري كخرقة بالية رُمِيتُ على أرض الغرفة .. ومرت أوقات من الغيبوبة والصحو، حتى تمالكت نفسي، ونظرت إلى حائط على يميني - وعلى شمال الباب - فإذا بأربعة أبيات كتبها زائر قبلي بخط جميل، قرأتها فيما بعد منسوبة إلى السيدة زينب رضي اللَّه عنها:

وكم للَّه من لطف خفيٍّ يدق خفاه عن فهم الذكي
وكم هَمٍّ تساء به صباحًا وتعقبه المسرة في العشي
وكم يسر أتى من بعد عسر ففرج لوعة القلب الشجي
إذا ضاقت بك الأسباب يومًا فثق بالواحد الأحد العلي

لقد كانت هذه الأبيات الأربعة بلسمًا، وعونًا ربانيًّا لهذا المسكين، الذي كان الجنود يضربون به المثل لمن عاد من الموت إلى الحياة.

❁ ❁ ❁

(١٥) الأستاذ مبروك نافع - رحمه الله

لديَّ من حديث حياته طرف أحسب أنه لا يتوافر عند غيري، أكتبه وفاء لهذا الأستاذ، الذي لم أنعم بالأخذ عنه كثيرًا؛ لاضطراب حياتي الدراسية خلال الخمسينيات.

كان أستاذًا مرموقًا في التاريخ، وقد ترجم كتاب «تاريخ العرب» للمستشرق «بتلر» عن الانجليزية، وتولى عمادة دار العلوم، فحرك النشاط الثقافي بها أواسط الخمسينيات، وكان لطول عهده بالتاريخ، وطول نظره في أحداثه وأشخاصه وتياراته، يقول: لا تنتظر من مبروك نافع أن يحدثك عن تاريخ الوقائع والغزوات، تلك تفاصيل يقدمها لك أي مؤلف، لكن خذ عني التأمل في هذه الوقائع، والانطباعات النفسية، والحكم على الشخصيات والعصور، والمفاصل التي تربطها، والدوافع التي كانت تحركها . . وتلك لعمري حكمة التاريخ أو فلسفته، التي لا تكون إلا عند أستاذٍ كبير.

كنت قد قضيت نحو عامين أو يزيد في سجن «الواحات الخارجة»، جنوبي مدينة الخارجة - في الوادي الجديد - على طريق الأربعين بين مصر والسودان، قرب واحة «باريس» وكانت ظروفٌ ما أدت إلى تدهور في صحتي العامة، فصدر قرار طبي بترحيلي من سجن الواحات إلى سجن مصر بالقاهرة، بعد أن كنا قد تمتعنا في الواحات بقدر من الاستقرار، واستحضر كل منا أهم كتبه، يشتغل بها ويزجى وقته فيما يفيد، وإن لم يخل الأمر من متاعب الخلاف والانقسام - وتلك حكاية أخرى.

وصلتُ سجن مصر أواخر عام ١٩٥٧، وانخرطت في العلاج، ونشرت في الوقت نفسه عدة مقالات بمجلة «السجون»، إذ كان مدير سجن مصر - اللواء محمود صاحب - رئيسُ تحريرها، إنسانًا مثقفًا، يرأس جمعية رعاية المساجين المفرج عنهم، وقد رأيته بعد الإفراج عني في مناسبة تعاونية لأحد زملائي السابقين. وتابعت - من سجن مصر- حركة النشر الجديد بالقاهرة، ورأيت أمي ومن لا يتيسر له السفر من أهلي، وكانت الزيارة الوحيدة التي استقبلتها في الواحات لوالدي - رحمه اللَّه - بعد إحالته إلى المعاش، ولعلها تروى في سياق آخر.

دخلت مستشفى السجن لإجراء عملية لاستخراج «حصوة» من الحالب الأيمن، وقال لي الدكتور إبراهيم فوزي: تنبه فعندك استعداد لتكوين الحصى، وأكثر من شرب الماء والسوائل، ولكن من رحمة اللَّه أني لم أتعرض لشيء من ذلك، وقد مضى الآن أكثر من نصف قرن.

كنت قد قرأت عن وفاة أستاذي الدكتور مبروك نافع فجأة، وهو يحاضر تلاميذه وتلميذاته اللائي فوجئن به تميل رأسه، ويسلم الروح على منصة التدريس، بالمدرج الكبير، بدار العلوم بالمنيرة، فتعرضتْ أكثر من طالبة - للمفاجأة القاسية - للإغماء، وحار الناس بين عميدهم المحتضر والطالبات، وكان في الحقيقة قد أسلم الروح، أما الطالبات فأغمي عليهن.

وجيء بشاب رقيق طويل القامة إلى المستشفى، في حوالي العشرين من عمره، مسجونًا احتياطيًّا تحت التحقيق، متهمًا بجريمة قتل، وفي

حالة صحية ونفسية متدهورة، وعلمت - وكان على سرير مجاور لي - أنه ابن الأستاذ مبروك نافع، وعلمت بالتهمة الخطيرة الموجهة إليه؛ وهي الشروع في قتل زميل له بالرصاص، في صراع على «بنت الجيران».

ومن ثم عرفت - والآجال بيد اللّه - سبب الموت المفاجئ للأستاذ على منصة التدريس، عندما أبلغ بالواقعة التي تورط فيها ولده . . ومن النسل ما قتل. رحمه اللّه.



(١٦) المهندس صلاح العطار رحمه اللَّه

واحد من رجال ثلاثة، لبسوا زي الرُّعاة، وساقوا قطيعًا من الإبل، وتمكنوا بالتظاهر بالبحث عن المرعى، من اختراق حصار «الفالوجا»، وتوصيل بعض الرسائل، إلى الضبع الأسود قائد المجموعة المحاصرة، ورجاله الصامدين داخل الحصار، وبينهم جمال عبد الناصر - رحمه اللَّه.

لقد كان في العشرين من عمره عندما تطوع للقتال، ضمن متطوعي الإخوان المسلمين، العاملين تحت قيادة البطل أحمد عبد العزيز، الضابط الذي تفرغ لقيادة «الكوماندوز»، القوات الخفيفة التي سبقت قوات الجيش في الدخول إلى فلسطين؛ لمواجهة المنظمات الصهيونية، التي بدأت أعمالها الإجرامية قبل ذلك بسنين.. كما حكينا فيما سبق عن جريمتهم بقتل اللورد موين، في القاهرة.

وعاد من القتال - بعد عام كامل - ليستأنف دراسته، بكلية الفنون التطبيقية، حتى تخرج فيها مهندسًا في صباغة النسيج، وكان الأول على قرنائه، كما كان أخوه التوأم في العام السابق أيضًا فعين معيدًا في الكلية، لكنه لم يلبث أن هاجر إلى ألمانيا ليستقر بها ويتزوج هناك، أما هو فآثر أن يعمل في شركات النسيج المصرية، «اللوزي الخاصة» أوَّلًا، ثم شركات القطاع العام بعد ذلك.

يبدو أن تخصصه الهندسي، وخبرته القتالية، وبطولته التي أشرنا إلى أحد شواهدها، لفتت إليه - للأسف - أنظار المسئولين في «الجهاز الخاص» بجماعة الإخوان المسلمين الذين كان لهم دور مجيد - والحق

يقال - في تلك الحرب، وهو أفضل أنشطتهم على الإطلاق، أما أعمالهم الداخلية فقد كان أكثرها أخطاءً سياسيةً أو مخالفات شرعية. . نعم لقد كانت البلد نهبًا للقصر الملكي وللاحتلال الإنجليزي وأعوانهما، مما دفع بعض الشباب الوطني - حوالي منتصف الأربعينات - بقيادة حسين توفيق الذي هرب إلى سوريا - إلى أسلوب «الاغتيال السياسي»؛ فقتلوا أمام النادي الديبلوماسي - قرب ميدان طلعت حرب - أمين عثمان باشا وزير الخارجية الذي قال يومًا : «إن الزواج بين بريطانيا ومصر زواج كاثوليكي لا يقبل الانفكاك»، في الوقت الذي كنا نحن الأزهريين وسائر الطلبة المصريين، نخرج إلى ميدان الإسماعيلية = ميدان التحرير، لنضرب المعسكرات الإنجليزية بالحجارة حتى اضطرت للانسحاب من المدن عام ١٩٤٦ - وكانت في مكان مبنى فندق هيلتون والجامعة العربية الآن وهي الثكنات التي حُبس فيها عرابي ومحمد عبده، بعد دخول الخائن توفيق القاهرة في ظل الحراب الإنجليزية. كما دفع محمود عيسوي - وهو باحث للدكتوراه في القانون وليس بلطجيًا - إلى قتل أحمد ماهر لانضمامه إلى «الحلفاء»، في أخريات الحرب. .

وكل هذه الأحداث أيًا كان الرأي فيها، لم يكن للإخوان بها أدنى صلة؛ لكن المراقب لا يفوته توجهات الشعور الوطني بعد حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ وتهديد الإنجليز للملك واستهتارهم بالشعور الوطني، وحصار القوات الإنجليزية لقصر عابدين - كما حكيت في قصة «منقذ مصر» - فلعل هذا المناخ القلق، ومعاناة الشعب المصري أثناء سنوات الحرب التي استنزفت مواردنا - بديون على الإمبراطورية - وهي حرب

«لا ناقة لنا فيها ولا جمل»، كما قال الشيخ المراغي معبِّرًا عن الشعور الشعبي، الذي تكشف عنه الوقائع السابقة. . لعل لهذا كله وتنامي حجم الجماعة، وترهل الأحزاب، هو ما دفع «حسن البنا»، عام ١٩٤٢م، إلى إنشاء ذلك «النظام الخاص» المشئوم، تنظيمًا سريًّا سرطانيًّا مسلحًا، كان برغم بعض الإسهامات الطيبة شؤمًا على الجماعة ودعوتها.

وأيًّا ما كان الأمر فقد جُنِّد صلاح العطار، الذي كان يسكن مع أسرته بشارع مسرة بشبرا - وكان لوالده صلة قديمة شبه متوقفة بالإخوان - في صفوف الجهاز السري، ونصح ألا تكون له أية صلة بالتنظيمات العلنية للإخوان، ولم ينله أي أذى، ولا ورد له ذكر، خلال أزمة الإخوان الأولى مع حكومة إبراهيم عبد الهادي السعدية، بعد مقتل النقراشي على يد الجهاز، وما سبقه من قتل القاضي الخازندار. وعند إعادة بناء النظام من جديد في مطلع الخمسينيات، بعد كارثة «السيارة الجيب»، اختير العطار قائدًا لمنطقة شمال القاهرة (شبرا)، التي كانت من أهم مناطق القاهرة إن لم تكن أهمها على الإطلاق.

كانت إعادة البناء في غياب شخصية «البنا»، الذي كتب الكثيرون عن استنكاره مقتل القاضي الخازندار، وذلك موثق تمامًا، بما تبعه من تحقيقات، في مذكرات الدكتور عبد العزيز كامل المنشورة، بالإضافة إلى مصادر أخرى، كما أن مساعي الرجل لدى وكيل الداخلية عبد الرحمن عمار؛ للإفراج عن المعتقلين تدلُّ على عدم علمه باغتيال النقراشي. . وترجع تلك الأحداث كلها إلى السيد/ عبد الرحمن السندي، الرجل الدموي، الذي هو بمقاييس التنظيمات الإرهابية المماثلة لا يخلو من الموهبة (قارن بقيادة يوسف طلعت للجهاز نفسه،

بعد تخلي الهضيبي عن السندي ومجموعته، سوى اثنين منهم، بعد «حادثة السيد فايز» أوائل الخمسينيات) لكنه بمقاييس جماعة إسلامية، ملتزمة بأحكام الشرع، شخص غير مناسب على الإطلاق، وكانت السنوات العشر التي قاد فيها الجهاز كارثة على الجماعة، لا دفاعًا عنها كما تنص لائحة «النظام الخاص»، في مادتها الأولى.. غير أني أصارح قارئي - في هذا السياق بأمرين :

أولهما : أن الصراع بين «مدير أو مساعد أو قائد ميداني» وبين القائد العام السياسي أو الزعيم أو المرشد - سمه ما تختار من أسماء - ظاهرة متكررة في تاريخ التنظيمات السياسية ذات الطابع العسكري، تذكّر عبد الرحمن فهمي قائد النظام السري الثوري ١٩١٩ ، وخلافه مع سعد باشا ذي الشخصية الطاغية (انظر مذاكرات منافسه صدقي باشا)، وراجع حادثة السردار، وبروز الخلاف بين القيادة السرية والزعامة السياسية، وتقديرات كل منهما للمصلحة الوطنية.. ألا ترى في ذلك من مشابه بظروف قتل الخازندار عام ١٩٤٦، وتعارض موقف حسن البنا حينذاك مع تلميذه المتمرد عبد الرحمن السندي.. إن الخلافات المتكررة في الحركات بين القيادة الميدانية المنفذة على الأرض، والقيادة السياسية، وآخر نموذج لها قيادات الثورة الجزائرية التاريخية وموقف أبو مدين.. ولذلك نظائر في الحركات العالمية المناظرة أيضًا. أما القول بأن البنا عجز عن مواجهة السندي لتضخم نفوذه.. فتهمة يمكن توجيهها إلى كل الذين واجهوا هذه الأزمة في تاريخ الحركات السياسية.. وحسن البنا الذي حاكم السندي، والذي تدافعت عليه الأحداث، خلال عام واحد أو اثنين قبل موته، وحاربه النقراشي قبل مقتله، بحل الجماعة، في ظروف عودته صفر اليدين

من الأمم المتحدة.. وعودة الجيش المصري محبطًا من فلسطين بالهدنة الجائرة، وعودة - وهذا من أهم عوامل اضطراب الموقف - المتطوعين من الإخوان الذين شعروا أنّ قرار «حلّ الجماعة» طعنة من الخلف.. وبدء حكومة النقراشي وبعده إبراهيم عبد الهادي في اعتقال الإخوان، ثم قتل البنا نفسه بمعرفة عبد الرحمن عمار وكيل وزارة الداخلية (راجع محاكمته من قِبَلِ ثورة ٥٢).. فلم يتمكن حسن البنا من فعل أي شيء.. وعاد السندي يشكل منظمته من جديد في مطلع الخمسينيات، وعلى رأس الجماعة قاض هو حسن الهضيبي، وجاء مقتل السيد فايز ليسوغ التخلص من عبد الرحمن وصحبه.. ولنعد إلى صلاح العطار. ولكن بعد الملاحظة الثانية:

وهي أن التنظيمات السرية، والاغتيالات في الحركات السياسية، ليست اختراعًا إخوانيًّا أيضًا؛ ففي حركة الحزب الوطني أول القرن العشرين، وفي ثورة ١٩، وفي بعض مراحل الوفد والقمصان الزرق والخضر، دع عنك تنظيمات الأستاذ أحمد حسين المتعاقبة، وتحطيم الحانات أوائل الأربعينيات، ومواقفه المتحمسة أثناء حريق القاهرة، فهو نموذج خاص.. ودع عنك عبد الناصر ومنظمته التي حاولت - فاشلة - قتل وزير الدفاع قبيل الثورة.. وهنا أذكر أن عبد الرحمن السندي كان موضع رضا عبد الناصر بعد موقعته الدموية مع الإخوان.. وهذه وقائع ثابتة لا يمكن إنكارها.. وكلها شواهد لا تعفي أحدًا من المسئولية، ولكن تساعد على الفهم فقط.. وتصحح بعض التحليلات الساذجة أو الجاهزة لهذه الأحداث.

دخل «العطار» في التنظيم الجديد بقيادة السندِي، وكان مديرُ القاهرة، ورقم ٢ بعده السيد أحمد عادل كمال، (تنظر مذكراته نقط على الحروف، ومذكرات محمود الصباغ أيضًا) واختير مسئولًا عن منطقة شمال القاهرة كما ذكرت آنفًا، وكان من مقادير اللَّه لكاتب هذه السطور، بعد عودته من الشرقية، حين انضم إلى كتيبة الأزهر، المشاركة في حرب الاستقلال والاستنزاف لقوات الاحتلال، التي تجمعت في منطقة قناة السويس - كما حكيت سلفًا - أنه وقعت عليه، للأسف الشديد بدوره، أنظار المكلفين بتجنيد العناصر الجديدة للانضمام إلى «النظام الخاص» أو السري. .

كنت في الرابعة الثانوية بزيي الأزهري، ولم تكن هناك بيعة ولا مراسم غامضة، ولكن قبل الاختبار كلفت بحمل رسالة لا أعرف مضمونها إلى من عرفته فيما بعد، شخص نحيف أصلع، بشارب دون لحية، عرفت فيما بعد أنه أحمد عادل كمال، وقد شُغل بعد الأحداث بدراسة التاريخ الإسلامي، وأبدع أعمالًا جيدة، ثم طُلب إليَّ أن أقابل شخصًا ما سيعرفك، عند تقاطع شارع فؤاد (٢٦ يوليو) مع شارع الجلاء على محطة مترو مصر الجديدة، ولاحظت وجود شخص كأني أعرفه يقف قرب باب مستشفى الأوقاف للنساء والولادة يراقب هذا اللقاء، وانصرف بعد تحركنا من المحطة، قابلت شابًّا طويل القامة أسمر، متين البنيان، في «بدلة» كاملة، بشاربٍ دون لحية، وأنا في ملابسي الأزهرية، تقدم إليَّ في أدب كأنه يستفتيني في شيء، وقال : الشيخ حسن؟ قلت : نعم، وتحرك متجهًا نحو النيل، ومشينا معًا، إلى ما خلف مبنى الشبان المسلمين، وهناك انصرف بعد أن أعطاني موعدًا ومكانًا للقاء في شبرا.

كان هو المهندس صلاح العطار الذي أراه لأول مرة، وكانت عملية «تسلم» فيما يبدو، وفي الموعد المعين، عرفت أن الرجل ضمَّني إلى المجموعة الرئيسية، وكانت تضم وكيل منطقة شبرا في التنظيم العلني، الأستاذ حسن عبد الغني الصغير وثلاثة آخرين.. وكنت مسئولًا عن تطبيق ومراجعة البرنامج الثقافي والديني، في اجتماعات المجموعة بمنازل الأعضاء الستة..

وبعد فترة قصيرة جاءت العطلة الصيفية، وسافرت إلى قريتي بعد أن انتقلت إلى السنة الخامسة الثانوية، وأنا - في العلن مسئول عن طلاب المعهد الثانوي بالأزهر، يعاونني زميلي «الأستاذ فتوح إلهامي» في متابعة القسم الابتدائي الذي كان في مبنى آخر، وقامت الثورة أو الحركة العسكرية لتطهير الجيش ووزارة الدفاع.. ثم صارت بالتداعيات الشعبية ثورة، وكان على رأسها محمد نجيب.. ومعه أعضاء مجلس قيادة الثورة وفي مقدمتهم جمال عبد الناصر، رئيس تنظيم الضباط الأحرار، الذي اجتمع - كما هو موثق الآن - بحسن الهضيبي بمنزل حسن العشماوي، صديق جمال عبد الناصر، والسندي ينتظر بغرفة مجاورة، وأفضى جمال إلى الهضيبي بما يعتزمون، وعندي أنه أمجد مواقف حسن الهضيبي الذي اتهم كثيرًا بالباطل بأنه كان عميل القصر، وكانت تكفي كلمة واحدة منه لزوال رؤوس كثيرة من على رقابها، والموقف الآخر إصداره، أول السبعينيات كتابه المهم «دعاة لا قضاة» مقرِّرًا في وضوح وقوة، وطبقًا لفكر أهل السنة والجماعة، أن جماعة الإخوان وأمثالها، جماعة من المسلمين لا جماعة المسلمين، وكانت تلك هي القضية - الجوهرية التي ينبع عن التباسها أفكارٌ إرهابيةٌ كثيرة خاطئة.. المهم أن الثورة قامت، والإخوان

من ورائها. . ومنهم مجموعات تعسكر على مشارف القاهرة من جهة القناة، ومنهم من كان يحرس بيت جمال عبد الناصر نفسه. .

ويبدو أن التطورات الدرامية التي حدثت بعد ذلك، وقبل نشوء الفتن والصراعات، ووقوف التنظيم وراء الثورة. . ومشاركة عبد المنعم عبد الرءوف قائد المجموعات الإخوانية بالجيش، بعد محمود لبيب، في مجلس قيادة الثورة، وحصاره لفاروق في الإسكندرية، حتى تنازل - بتدخل علي ماهر - عن العرش، وشُكِّل مجلس الوصاية، يبدو أن هذا كله أوجد وضعًا نفسيًا لدى رجال النظام، تمثل في الكلمة التي قالها لي صلاح العطار عند عودتي من القرية في مطلع العام الدراسي ٥٢/ ١٩٥٣ : «لقد تركتنا ونحن محكومون وجئت ونحن نحكم. . » لم أنس هذه الكلمة، واعتبرتها حينذاك توسعًا لا أتوقعه من مثل صلاح العطار. . ومضت الأمور. . حتى تفجر مجلس قيادة الثورة. . وساءت العلاقات بين القيادة الحقيقية (جمال عبد الناصر) الذي عمل حينًا - ضمن اختباراته للمنظمات الوطنية المختلفة في مصر - في صفوف النظام الخاص، والذي أَنشَأَ، وهو حاكم رسمي لمصر، قبيل منتصف الستينيات، «التنظيم الناصري السري».

لست أؤرخ للفترة ولكن أقول: إنه بعد ما فسدت العلاقات، واعتقل عبد الناصر طائفة من الإخوان - فيما سُمِّي بأزمة يناير ٥٤ - ثم أفرج عنهم، وزار ومعه أنور السادات وحسين الشافعي، حسن الهضيبي في بيته بالروضة بعد الاتهام بالعمالة للإنجليز، ترضية له وللإخوان. كان عبد المنعم عبد الرءوف الذي استبعد من مجلس قيادة الثورة يعمل في

اتجاه آخر (وهذه النقطة اجتهاد مني بناء على شواهد)، ورتَّب خلية تعتبر هي قيادة النظام الخاص، وتم إسنادها إلى يوسف طلعت.. وجرى إعادة تشكيل أفراد النظام في مجموعات قتالية، أو هذا ما تم تطبيقه في منطقة شمال القاهرة، يتولى تدريبها ضباط من قبل عبد المنعم، بالترتيب مع يوسف طلعت، ونائبه الأستاذ إبراهيم الطيب المحامي بمكتب عبد القادر عودة الذي أصبح رقم ٢، عن الأستاذ أحمد عادل كمال. وأسند إليَّ قيادة مجموعة الإمدادات والإسعاف في شبرا، وشكلت مجموعات مقاتلة أخرى. وفي هذه الأثناء التي اختفى فيها المرشد وقيادات الإخوان - في إجراء خاطئ تمامًا - حدثت ثورة الطلاب، وكان الموقف الذي وصفته في حكاية أخرى من نجيب وعبد القادر عودة والصاغ خالد محيى الدين، وحقق عبد الناصر في الليلة التالية انقلابًا كاملًا في الشارع بمعونة عمال النقل المشترك، وجاءت المواجهة التي ضاعت فيها قوى وطنية، وأريقت دماء بريئة.. حتى إن سياسيًّا قريب الصلة بعبد الناصر، وهو الأستاذ أحمد حسين اضطر إلى مغادرة مصر، إلى منفى اختياري، في بيروت -

في هذه الأثناء حصل «حادث هروبي من سيارة الشرطة - كما وصفت في حكاية أخرى - وقابلت صلاح العطار الذي قال لي: إن هذه الواقعة - يقصد الهروب - كانت «تطعيمًا» للتنظيم كله - حسب تعبيره، وفي هذه الفترة اختبرت معه البيت المواجه لمبنى مجلس الوزراء، في الجانب المواجه من القصر العيني، وكان حينئذ شبه مهجور في الإعداد لبعض الخطط التي أعدها عبد المنعم عبد الرءوف، باعتقال أعضاء المجلس في هجوم خاطف، تسانده حماية من هذا المنزل.. والحمد للَّه أنْ أَفْشَلَ كُلَّ شيءٍ.

ثم حدث حادث الإسكندرية بميدان المنشية وله روايات أسطورية كثيرة، وروى السيد الفريق حسن التهامي روايته الخاصة، وعثر على أكثر من سلاح، حملها كذابون إلى القاهرة. ولكني سأروي جُزءًا واقعيًّا من هذه الحادثة. . التي أعتقد أنها صحيحة، ولكنها مرتَّبة كتهديد «فاشل» لحياة الزعيم الجديد بعد محمد نجيب، الذي يلزم بناء صورته، وعلمت مخابرات - ربما محلية ودولية - بما يجري في أوساط الإخوان، فدفعت الأمور في اتجاه التنفيذ «الفاشل»، الذي قام به محمود عبد اللطيف وهنداوي دوير، وذلك لسبب بسيط وهو بُعد المسافة بين الرامي - في صفوف الجالسين غير المتقدمة طبعًا والهدف الذي يقف في شرفة عالية بعيدة نسبيًّا بميدان المنشية - لكن نقطة الضعف أو التسرب ليست هي محمود . . الذي تلقى الأمر، وسُلِّم المسدس ليقوم بالتنفيذ، وإنما هو الأستاذ هنداوي دوير المحامي، ذو العلاقات مع الدولة، والذي فوجئ - كما روى مشاهدوه- بحكم الإعدام: والذي أعرفه أنا شخصيًّا إنسانًا هَشًّا مطهريًّا دعيًّا لا يوثق به، ولا يعتمد عليه. وقد كان الحادث أكبر إحباط للمجموعات المنتظمة في الوضع الجديد. وخاصة شبرا، التي تحوي أهم مجموعات التنفيذ المسلحة: والتي تتصل مباشرة - بالسيد/ يوسف طلعت في مخبئه بمصر الجديدة، فضلًا عن الأستاذ الطيب رقم ٢ بعده.

كنت منذ حادث السيارة، هاربًا في القاهرة، وقد وقع حادث شبرا الذي قتل فيه اثنان من التنظيم منهم الأستاذ عبد العزيز صاحب المنزل، والآخر اسمه أحمد حسين، الذي قيل: إن عبد المنعم عبد الرءوف كان يبيت فيه، فقاوموا ليتمكن هو من الفرار، ولا أستطيع نفي هذه النقطة ولا تأكيدها. وقد كنت في طريقي إلى هذا المكان صبيحة الحادث؛

ففوجئت بجماهير الناس تتجمع لـ«تتفرج» على الأحداث، التي قادها السيد / الصاغ صلاح الدسوقي أمين عام وزارة الداخلية، ومحافظ القاهرة بعدئذ، فتظاهرت بالتفرج مثلهم ثم اختفيت.

ولاقيت صبيحة اليوم التالي لحادث المنشية صلاح العطار، وكان مختفيًا أيضًا مثلي، وكان اللقاء عند نهاية كوبري إمبابة، من جهة العجوزة، ولم يكن الكوبري العلوي قد أُقيم، ومشينا على الرصيف بجانب النيل حتى صرنا في مقابلة مسجد النيل، قبيل شارع التحرير وميدان الجلاء، وفي هذا اليوم بعد استفسارات منه عن حالة المجموعة «اللوجستية» قال لي : لقد سألت الأستاذ الطيب رقم ٢، فقال : إن «أخوك هنداوي تسرع»، هكذا بالحرف إن لم تخني الذاكرة، فهو لم ينفِ الحادثة، ولا أن المشاركين فيها من الإخوان، بل من النظام، وإنما ذكر أن السيد هنداوي -الذي يعلم أن أفرادًا يتبعونه في إمبابة، قد قاموا بمحاولات أوقفت في اللحظات الأخيرة- أراد أن يبادر هو بالتنفيذ، إما ليفوز بالشرف، أو لينفذ تعليمات مخابراتية كلف بها، وأُرَجِّحُ الاحتمال الأخير.

تساقطت بعد ذلك قيادات التنظيم ومجموعاته، كحبات عقد أفلت من نظامه، وخاصة بعد القبض على يوسف طلعت بالقاهرة، والأستاذ الهضيبي بالإسكندرية.

لم ألق صلاح العطار إلا بعد قرابة عام، إذ اختفيت في القاهرة، وشغلت برعاية الأسر التي اعتقل عائلها، وأذكر أنني ذهبت إلى مسكن الأستاذ حسن عبد الغني الصغير، في شارع بولاق الجديد، فإذا مظاهر ميلاد لولد له، وهو في السجن الحربي، وخرج إليَّ صهره الذي أعرفه،

قدَّمت إليه مبلغًا في مظروف صغير، قلت: إنه ملك الأستاذ حسن دينًا عليَّ، فرفض الرجل تسلم المبلغ وقال: نحن بخير، وذكر لي اسم الوليد، وحينما لقيت أباه في السجن الكبير بالسجن الحربي، ذكرتُ له اسم ولده، وواقعة زيارتي للبيت. ومن غرائب الأقدار أني لقيت الأستاذ حسن عبد الغني الصغير فيما بعدُ أمام مستشفى القصر العيني، في طريقه إلى الجيزة، لانتقال سكنه إليها، فقال لي بعد أن سلَّم عليَّ سلامًا حارًّا، قال: نحن عائدان - هو وزوجه - من كلية الشرطة، حيث قبل فلان (ولده) طالبًا بها. . وذكرني بأني هنأته بمولده في السجن الحربي. . مكثتُ هاربًا نحو خمسة أشهر، واعتقلت على النحو الذي قصصته في حكاية أخرى، ومررت بفترة التحقيق أو «التعذيب» إن شئت، ونقلتُ إلى ليمان طرة لمدة ستة أشهر، حتى وُجِّهنا - نحن أصحاب الأحكام الكبيرة - إلى الواحات، فوصلناها ليلًا، وإخواننا الشيوعيون يشعلون النيران عالية ترحيبًا بالمناضلين الجدد، ويومها التقيتُ بكثيرين ممن أعرف، وفي مقدمتهم صلاح العطار.

أذكر أننا في الواحات بعد الاستقرار - طلبنا من صلاح العطار كتابة فصل عن حادثة اختراق حصار الفالوجا، فكتبه، ولا أدري مصيره. . إن الرجل الذي كان لديه حِسُّ التوثيق، واحتفظ بكثير من أدبيات هذه الفترة فيما أعتقد ومجلاتها، هو الأستاذ علي رياض. . الذي كان له شقيق أصغر معنا أيضًا في الواحات، وهما شقيقا الصحفي البارز حمودة، فهل يمكن - من أجل التاريخ - إنقاذ بعض تراث هذه الفترة العصيبة؟! وخاصة ما كان فيها من مراجعات للماضي، وانتقادات للنظام السري المسلح تاريخيًّا وشرعيًّا؟!!

والأستاذ علي رياض نفسه كان هو رئيس إحدى اللجان التي شكَّلناها خلال عام ١٩٥٥م، لمراجعة الماضي ودراسة مشكلاته، وتحديد القضايا التي تنبغي مواجهتها وحلها، وهي لجنة «الهدف والوسيلة» -كما اشتهرت - وقد اشتركت باهتمام بالغ فيها، لقد كان يشغلني - وقد طهر اللَّه يدي من الدماء - ماذا يكون موقف الشخص العادي، عاملًا كان أو فلاحًا أو طالبًا مثلًا، إن جاءه أمر بقتل فلان، دون أن يستطيع أن يعرف السبب في استباحة دمه، إذا كنت وأنا الطالب الأزهري - على استعداد في وقت من الأوقات لتلبية ذلك الأمر!! سؤال أرَّقني وما يزال، وفيه كتبت، ووالَيْتُ وخاصمَتُ، ونصحت للشباب المسلم أن يصحح النية والهدف، وأن يتأكد من مشروعية الوسائل أولًا ومناسبتها للحال والوقت والأوان ثانيًا.

والذين يظنون أن مراجعة من هذا القبيل لم تتم على الإطلاق لا يعرفون تاريخ الجماعة فترة الخمسينيات، وخصوصًا في الواحات.

وقد انتهت اللجنة من حيث الهدف إلى أنه «استئناف الحضارة الإسلامية» وليس الحكم أو إقامة الدولة، ومن حيث الوسيلة إلى استبعاد أسلوب التنظيمات السرية مسلَّحةً أو غير مسلَّحة»؛ لما تجلبه من ضرر على الجماعة، وخطر على المصير عند اللَّه. وسجلت اللجنة وقائع مما ارتكب من أعمال منافية للشرع في إطار عمليات سرية، وتحت التوهم بأنها نصرة للشرع وهي - في الحقيقة - مخالفة له.

وقد كان ما انتهت إليه اللجان - وخاصة ما اشتهر بأنها لجنة الهدف

والوسيلة - من حقائق ونتائج هو الأساس لما حدث من انقسام بين مجموعة الواحات - التي كانت تضم أكثر أعضاء مكتب الإرشاد، الذين اختاروا الدكتور حسين كمال الدين لتصريف الأمور، واستبعدوا وكيل الجماعة، الدكتور محمد خميس حميدة، لموقفه قبل السجن الحريص على التصالح مع الدولة تجنبًا لما وقع فعلًا..

نعم، ربما أسهم في ذلك الانشقاق أيضًا أنه عند «العدوان الثلاثي» تقدمت الأكثرية للتطوع للقتال والعودة إلى السجن، ولم يستطع البعض تجاوز مع حدث لهم من تعذيب وتشتيت للأسر والأبناء، وورد من مكتب عبد الناصر شكر لهذا الموقف الوطني.. ولا يخفى أنه في كل جماعة يسقط بعض الناس في أعمال الخسة، ويقبلون الهوان، ويريدون الخروج من السجن بأي ثمن، ولو بالعمالة الرخيصة، وهم أفراد قلائل لا يصلون إلى عدد أصابع اليد الواحدة.. وقد أسهم كل أولئك في الانقسام، وتحول السجن إلى ثلاثة معسكرات: الشيوعيون والمنشقون، والمحافظون. وذلك في عام ١٩٥٦، وفي هذه الظروف كتبتُ بحثي عن حقيقة المصطلح الشرعي «جماعة المسلمين» وأن الإخوان هم جماعة من المسلمين، وليسوا جماعة المسلمين.

وكان صلاح العطار وأكثر أفراد شبرا مع المنشقين وقد حكيت موقفي، وأني سقطتُ مريضًا حينذاك، وحين تقرَّر سفري إلى القاهرة للعلاج قمت بزيارة لبعض الإخوة من «المحافظين» ومنهم أعضاء مكتب الإرشاد السابقون، فأبلغ العملاء هذا على أنه ردة إلى ما كان، وتأخر - بسبب الوشاية - الإفراج عنِّي عامًا ونصف العام، مع الترحيل إلى سجن قنا

للتكدير والتأديب في سجن منفرد نحو ستة أشهر، ثم الإعادة إلى الواحات (بسجن المحاريق التاريخي) لمدة عام، وبعدها خرجت أوائل عام ١٩٦٠، كما وصفت فيما سبق.

صادفت صلاح العطار الذي أفرج عنه في الدفعة الأولى عام ١٩٥٨، في أحد الأوتوبيسات بالقاهرة خلال عام ١٩٦٠، وكان عائدًا من الإسكندرية، ثم زارني هو وشقيقه التوأم عام ١٩٦٤ بكلية دار العلوم يستشيرانني في ظرف عائلي، فأوصيته بالتشبث بوحدة الأسرة، واستمرارها والاستمساك بها، ويسَّر اللَّه ذلك، برغم ما كان يعانيه من أزمة طارئة دفعته إلى التفكير في الطلاق.

وحين كنت في باكستان زرته وهو رئيس مجلس إدارة إحدى الشركات بالقطاع العام، بمدينة إمبابة، وقد كبر وتغيرت هيئته، حتى كدت أنكره، وقد أوصاني يومها ألا أعود من باكستان ما أمكن ذلك؛ وعجبتُ لوصيته تلك، ولكني تفهمت. كان آخر اتصال بالأستاذ صلاح العطار، أن كلمني عن ابنته الوحيدة مهندسة الكومبيوتر التي يريد أن يطمئن عليها ويزوجها قبل الرحيل، وكان قد أحيل للمعاش، وأقام في مصر الجديدة.

وكان الأستاذ حسن حماد صديقنا المشترك يبلغني أحواله، وفي إحدى الاتصالات، قبيل ثورة يناير أبلغني بوفاته. رحمه اللَّه.

❃ ❃ ❃

(١٧) الرقم الصديق

ليست المسألة تفاؤلًا ولا تشاؤمًا، ولكنه أمر حدث، وتكرر، وملاحظة لافتة، دعتني - في مواقف عديدة من حياتي - أن أطلق عليه: الرقم الصديق، وهو رقم ٢.

لقد حكيت ظروف انقطاعي - أو حرماني جبريًا ومبالغةً في الانتقام - من الدراسة، وكيف عدت إليها شغوفًا، أسعى بلهفة لتعويض ما فاتني، حتى أكملت الدراسة في دار العلوم بعد أربع سنوات، وفي نفس الفترة أكملت الدراسة أيضًا في كلية أصول الدين، برغم أني عدت إليها طالبًا في السنة الثانية، لكن في عام ١٩٦١ صدر ما سمِّي «بقانون تطوير الأزهر»، وتضمن زيادة سنة خامسة لدفعتنا - أول من طبق عليه القانون، وأول من نالوا الإجازات الجامعية الجديدة - بحجة استيعاب المقررات التي أضافها قانون التطوير إلى المنهج، ولم تكن - في واقع الأمر - إلا إضاعة لأوقات الشباب دون ثمرة تستحق ذلك.

بالنسبة لي: أدى هذا التطوير - أو التعطيل - إلى تأخير تخرجي في قسم العقيدة والفلسفة بكلية «أصول الدين»، إلى العام نفسه الذي أكملتُ فيه الدراسة بكلية دار العلوم.. ولأول مرة أجلت امتحان الأزهر إلى الدور الثاني، لأتفرغ لامتحان «الليسانس» بدار العلوم، وبعد فراغي منه أخذت أستعد لامتحان «الإجازة العالية» بكلية أصول الدين، قسم العقيدة والفلسفة، كما ذكرت آنفًا..

كنت مرهقًا وأستعد خلال أشهر الصيف، غِبَّ انتهاء امتحانات «الليسانس» بدار العلوم، وقد عاد زملائي إلى بلادهم ينعمون بالعطلة، ولكنها المحطة الأخيرة في الطريق المزدوج، الذي اخترته منذ كنت هاربًا في القاهرة عام ١٩٥٤. وبدا لي - بعد الخروج من السجن - أني راغب وقادر على المضي فيه إلى غايته، لأشعر ببعض التعويض لما خسرته من سنوات التوقف الجبري في السجن. . ومثلَ سائر الطلاب المنخرطين في هموم الامتحان، كانت تشغلني مسألة النتيجة. . مع أني لم أذهب قط في حياتي - على كثرة ما أديت من امتحانات، في مصر والخارج - لأطالع النتائج المعلنة المعلقة في القوائم المرصودة، بل كان زملائي دائمًا يبلغونني بها. . وكانت - بحمد اللَّه - دومًا أخبارًا سعيدة.

وذات ليلة في هذا الصيف، رأيت فيما يرى النائم، قبل ظهور نتيجة امتحانات اللسيانس بدار العلوم، وأثناء الاستعداد لامتحانات «الإجازة العالية» بأصول الدين، التي كانت - بعد التطوير - قد انتقلت من «الخازندارة» بشبرا إلى «الدَّرّاسة» بالأزهر. . رأيت شخصًا يعرض عليَّ - في وضوح تام - قصاصة من الورق، في وسطها خط مستقيم فوقه رقم ٢ وتحته رقم ٢، على هذا النحو ٢/٢.

ولم أفهم شيئًا حينئذ، حتى ظهرت النتائج المترقبة، وإذا بي «الثاني» في ترتيب الخريجين في كلتا الكليتين.

عندما قصصت هذه القصة على بعض زملائي فيما بعد، قال لي أحدهم مجاملًا: إن مقام «الثاني» هو مقام الصديقين يا دكتور حسن.

وأيًّا ما كان الأمر، فإن هذه «الثنوية» أو «الصديقية» تكررت في مشاهد عديدة من حياتي؛ فعندما سافرت إلى «لندن» للدراسة، أو لاستكمال أعمال «درجة الدكتوراه»، وكنت أوشكت على الفراغ منها، وطبعت بالفعل جزءًا منها بمصر، ولكني آثرت السفر، وأنا في الثالثة والأربعين، لأتعلم شيئًا جديدًا.. وبعد بضعة أشهر توفي أستاذي الدكتور محمود قاسم - الذي أعمل تحت إشرافه - وحين بلغني النبأ المفاجئ، قررت البقاء في لندن والتسجيل من جديد لدرجة الدكتوراه، «في كلية الدراسات الشرقية والإفريقية، وكان لابد من أداء امتحان للقبول في اللغة الإنجليزية، وأديته مع الزملاء المتقدمين من مختلف الجنسيات وفي انتظار «النتيجة»، رأى زميلي الأستاذ فهمي حرب - الدكتور فهمي فيما بعد - وكان يدرسُ مثلنا في جامعة إكستر بشمال انجلترا: أنه نجح من نجح، وفشل من فشل؛ إلا اثنين، أنا وزميل مصري آخر كنا بينَ بينَ، وبالفعل دعيت - مع الزميل الذي سماه د. فهمي وكان يدرس الفارسية، لفرصة ثانية في «إنترفيو»، سمح لنا بعدها بالشروع في البحث مع الفائزين.

وعندما عدت إلى جامعة القاهرة، وعملت مدرسًا في قسم الفلسفة الإسلامية بدار العلوم لمدة ثلاث سنين، وجاء زميلي - سابقًا - الدكتور حسين حامد حسان لأشاركه العمل - معارًا - في جامعة جديدة يجري إنشاؤها في إسلام آباد عاصمة باكستان، كنت معه «الرجل الثاني» حيث قمنا - مع كوكبة من الأساتذة المصريين، بوضع مناهجها وأنظمتها بدءًا من الصفر.. وعملت بضع سنين نائبًا لرئيس الجامعة، وهو الدكتور حسين حامد نفسه.

ولما عدت إلى دار العلوم بعد فترة الإعارة، عملت وكيلًا للكلية بضع سنين مع الأستاذ العميد الدكتور محمد البلتاجي رحمه اللَّه، أي عملت رجلًا ثانيًا، وهو وضع قد يكون مريحًا وقد يكون فاعلًا أيضًا، لكن في غير المناخ المصري، حيث يستأثر المسئول الأول بكل شيء. وحتى حينما صدر - بعد عشر سنين من مغادرتي لباكستان - قرار إجماعي من «مجلس أمناء الجامعة الإسلامية العالمية» بإسلام آباد، أن أعود إليها رئيسًا للجامعة، خلفًا للدكتور حسين حامد حسان، وصرتُ الرجل الأول، كنت ثاني رئيس يتولى مسئولية هذه الجامعة منذ تأسيسها.

وهكذا لو مضيت أخبركم بوقائع عديدة في حياتي الشخصية، فستجدون هذا الموقع أو هذه التثنية، أو هذا الرقم الذي اعتبرته صديقًا، والذي تأوله زميلي مجاملًا بمقام الصديقية، سمة غالبة - على الكثير من هذه الوقائع. وللَّه في خلقه شئون:

مَشَيْناها خُطًى كُتِبَتْ عَلَينا ومَنْ كُتِبتْ عَلَيه خُطًى مَشَاها

والحمد للَّه على كل ما قضى وقدَّر.



(١٨) من مشاهد الرؤى واليقظة

في هذه «الحكايات» أعاهدك - صديقي القارئ - في اتفاق ملزم، على الصدق والشفافية، والمصارحة.

ويغريني حديث «الرقم الصديق» أن أحكي لك، أيها القارئ الصديق، حكايتين أخريين أتردد أن أحكيهما خشية التهمة، ولم أروهما عند حدوثهما، إلا لشيخي وأستاذي الإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود، وأخيرًا لبعض الزملاء الأقربين.

خرجت من السجن أول سنة ١٩٦٠م، كبير السن نسبيًّا، أريد استئناف الدراسة، دون أن أحمِّل أهلي مزيدًا من الأعباء، وقد أحيل الوالد الكريم إلى المعاش، فأعلنت وزارة الأوقاف عن مسابقة للأئمة من حملة الثانوية الأزهرية، فتقدمت إليها، وكنا قرابة تسعمائة متسابق، وحصلت على رتبة السادس بين الفائزين، وأذكر أن سؤال الخطبة كان عن «سورة العاديات»؛ كيف تعد خطبة ملائمة للمعاصرين، حول معنى هذه السورة من القرآن؟

وصدر قرار بتعين العشرة الأوائل في مساجد القاهرة، ولكن بعد الإجراءات المعتادة، من الكشف الطبي ونحوه. قيل لي: زلال في البول، أكثِر من السوائل وخاصة «عصير القصب». وفي انتظار الكشف مرة أخرى، وكنت قد استعدت دراستي المنتظمة في «أصول الدين، ودار العلوم» . . . حدثت هذه الظاهرة:

شعرت لمدة يومين كاملين، كما لو كنت شخصين، أحدهما يدور في مصالحه بشوارع القاهرة، ويقضى مهامه، ويحضر دروسه، وهو نفسه في الوقت نفسه راقد طول الوقت، عند عتبة مسجد الإمام الحسين بالقاهرة، ممددًا يمر فوقي الداخلون، وربما نفض أحدهم تراب حذائه فوقي، ذلك الشخص الثاني أو الأول لا أدري، وإن كان التراب لا يصل إليَّ، ولكني واع بذلك، دون أن يتداخل أو يتقاطع ذلك مع شخصي المتحرك في شئون حياتي العادية حينئذاك. . ثم رفع عني هذا الإحساس، وجمع اللَّه أمري في «واحد صحيح» كما كنت امرءًا عاديًّا قبل هذه الظاهرة.

كيف حدث هذا لا أدري، وما تأويله؟ لا أدري. ربما قال أهل التحليل النفسي شيئًا، وربما ظن البعض أني مريض، ويعلم اللَّه أني شخص طبيعي، لا أشكو إلا «زلال البول». وربما ظن قوم أني من المخرفين أو المروجين للأباطيل . . . وكم قالت لي نفسي: إنك تدرس في الأزهر أن من التناقض أن يوجد الشيء الواحد، في وقت واحد، في مكانين مختلفين. . نعم، ولكن هذا هو ما حدث فعلًا، ولو اجتمع أهل الأرض لإقناعي بغيره، ما أثر ذلك في حسي وشعوري وواقعي وتجربتي النفسية. وقد كتمتها عقودًا عدة، إلا عن شيخي الإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود، فما زاد على أن قال حينها: هذا مكان مبارك، يقصد مسجد الإمام الحسين - رضي اللَّه عنه.

وإليك الحكاية الأخرى: التي لم أروها أيضًا إلا لشيخي الدكتور عبد الحليم محمود، ورويتها لبعض زملائي أخيرًا:

رأيت فيما يرى النائم الدكتور علي سامي النشار -أستاذ الفلسفة

الإسلامية بجامعة الإسكندرية- ومعه رجل بسيط رقيق، بسام، ذو لحية غير طويلة يتخللها بعض الشيب، هو إلى الكهولة أقرب منه إلى الشيخوخة. ولست أذكر الآن هل قال لي الدكتور النشار أو أُلقي في روعي: أنه الشيخ محيي الدين بن عربي. كنت على صلة قديمة وثيقة بالدكتور النشار - وتلك حكاية أخرى - ولما لاحظته عليه من الأنوار المشرقة وحسن الحال الروحية، جعلت أقول له: ألا تقول لنا ما الذي رفعك إلى هذا المقام؟ كي نتشبه بك ونقلدك، والرجل يخفضني ويقول: عيب يا حسن، دعك من هذا الكلام، ولكني أكرره عليه.

فأراد الدكتور النشار أن يغير السياق، أو يحسن إليَّ؛ فتوجه إلى الشيخ قائلًا: ابننا حسن «كويس» مشيرًا إليَّ، وإذا بي - وأنا عادة خجول، أتردد في لقاء من أراه لأول مرة - أنطلق وقد علمت أن الشيخ هو ابن عربي، أنطلق قائلًا له: لم لا تأتينا تزورنا في مصر، إن لنا أستاذًا يهتم بك وبمؤلفاتك - وكنت أقصد أستاذي الدكتور محمود قاسم عميد كلية دار العلوم، الذي ختم اهتماماته العلمية بالتوفر على إنتاج «الشيخ الأكبر» ومذهبه، وقارن بينه وبين مذهب «لبنتز» من الديكارتيين، وحاضر في ذلك بأم درمان في السودان، وغيرها من الجامعات الأفريقية. وربما كانت عبارة «يهتم بك وبمذهبك» غيرَ مناسبة، لكن هذا ما كان، وكنت مخلصًا حريصًا على تشجيع الشيخ على القدوم إلى مصر - لا أدري أين كنا؟ - فإذا به يجيبني:

لقد زرنا مصر مرتين، ولن نأتي مرة أخرى؛ لأن من ننزل عليهم فيها قد يؤذون بسبب ذلك، ولا نحب أن يلحق بهم أي أذى.

وتدخل الدكتور النشار قائلًا: هذا حسن، «كويس»، أي لا بأس به، ادع له.

وهنا وقف الرجل «الخفيف الروح» كما نقول في مصر، البسيط المظهر، ووقفنا نحن الثلاثة، ورفع يديه، وأخذ يتلو سورة الفاتحة، ونحن نتابعه، حتى قال آمين. وانتهت الرؤيا التي مضى عليها نحو أربعين عامًا.

لما حكيت هذه الرؤيا لأستاذي الدكتور عبد الحليم محمود، أوائل السبعينيات من القرن الماضي، ما زاد على أن قال لي:

إن الشيخ فعلًا قد زار مصر مرتين، أولاهما عندما مر بها في بدء رحلته إلى المشرق، وأخرى وقع له فيها مع شيوخها وقائع، ولم يأت بعد ذلك. وأضاف: إن تأويل الرؤيا التي تتضمن شيئًا من القرآن هو معنى ما فيها من القرآن الكريم.

وقد حكيت لك - أيها القارئ الكريم - بعض مشاهد الرؤى واليقظة.. للمزيد من التقارب والتفاهم والصدق، ولعل في هذه الوقائع فائدة لمستفيد، أو مغزى لمستبصر.

واللَّه من وراء القصد.



(١٩) التصفيق عند الكعبة المشرفة

حججت لأول مرة عام ١٩٧١م، وتكلفت الرحلة كلها مائتي جنيه مصري، تلقيتها من «المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة»، مقابل نشر كتابي الأول - الذي حصلت به على درجة «الماجستير» في الفلسفة الإسلامية، وهو «كتاب غاية المرام في علم الكلام» لسيف الدين الآمدي.

وفي أحد الأيام في انتظار يوم التروية «للخروج إلى منى، ومنها في اليوم التالي إلى «عرفات»، أديت صلاة الفجر بالبيت الحرام، ولقيت في هذا الصباح أخا سورِيًّا عزيزًا، كان قد غادر القاهرة منذ سفره، بعد أن نال «الدكتوراه» في الشريعة الإسلامية، من كلية دار العلوم، وهو الزميل الفاضل الدكتور عجاج الخطيب.

وعندما بدا نور الصباح، وكنت في المنطقة التي تواجه باب الكعبة المشرفة فيما بينها وبين المسعى، بالقرب من بئر زمزم. . إذا بقادم مهيب من جهة المسعى متوجهًا إلى الكعبة، في ملابس الإحرام، طويل القامة، رقيق الجسم، أبيض الوجه، خفيف اللحية، «منفردًا» وخلفه بخطوات كوكبة من المرافقين. فلما أمعنّا النظر تبين لنا أنه «الملك فيصل بن عبد العزيز» - رحمه اللّه - وكان حولي طائفة من الناس انطلقوا في حركة تلقائية يصفقون جميعًا له.

وإذا بالرجل الساعي نحو الكعبة يقف في جلال وهدوء، ويتوقف

الجمع عن المسير، ويقف الحرس المرافق بعيدًا عنه بأمتار. . ويتوجه هو إلى جمهرة الحجيج المصفقين، قائلًا في صوت واضح رصين:

- هذا لا يجوز. . هذا لا يجوز.

لقد قال اللَّه - تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: ٣٥]. ثم أضاف: والمكاء الصفير، والتصدية التصفيق. وكرر هذه العبارة ثلاث مرات. ثم مضى إلى الطواف.

كانت هذه المرة الوحيدة التي أرى فيها هذا الرجل العظيم عن قرب، وفي ظروف طبيعية غير مرتبة، قبل أن يمضي إلى ربه بنحو أربع سنوات.

فقد رأيته شابا قبل ثلاثين عامًا تقريبًا من هذه الواقعة التي رويت، وكنت مع الجماهير بميدان الأوبرا، وهو مع آخرين بسمته المميز - وكان بعدُ شابًّا - في شرفة فندق «الكونتنتال»، بقلب القاهرة عام ١٩٤٥، عندما جاء مع والده - رحمه اللَّه - وأمراء آخرين، وسياسيين من المملكة، للمشاركة في اجتماعات تأسيس «الجامعة العربية» بالقاهرة.

وكنت يوم استشهاده -رحمه الله- في مدينة لندن للدراسة، ولم أر المسلمين المقيمين بالمملكة المتحدة، والوافدين إليها من بلدان آسيا وأفريقيا كافة، على اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم، يبكون أحدًا، كما كان في هذا اليوم. . فبدا لي مجدَّدًا مدى عظمة هذا الرجل. . ومدى حساسية الأمة بالمخلصين الصادقين من رجالها - رحمه اللَّه!!

❀ ❀ ❀

(٢٠) مناجاة العوامّ لمولاهم عزَّ وجلَّ

حكى أحد علماء السعودية، ودعاتها البارزين، أنه كان بين يدي اللَّه - تعالى في بيته المبارك، بمكة حرسها اللَّه تعالى - وفوجئ بفلاح مصري إلى جواره يقوم للصلاة، فيبسط يديه إلى السماء ويقول : يا رب : أنت عارف وأنا عارف، وكُتر الكلام ما منه فايدة. ثم يرفعهما مُحرِمًا : اللَّه أكبر.

أذكَرَني هذا الكلام بفلاحة مصرية ساذجة، تحققَ أملُ حياتها بالوقوف أمام النبي - صلى اللَّه عليه وسلم - في حرمه الشريف بالمدينة، وكلما حاولت أن تلصق صدرها بمثوى الحبيب، تجد على رأسها من يمنعها، وربما تعنف في منعها خشية الابتداع، وهي لا تفهم في لغة محبتها - بالحركة أو اللفظ - معنى، لما يردده الرجل من كلمة «البدعة»، فاتجهت بقلبها إلى الحبيب، وإذا بها تقول - كما روى المرحوم الدكتور محمود الطناحي - لِمَ تصبر على هؤلاء، من أمثال هذا الحارس الجافي؟. . . تعال عندنا بمصر، ولسوف نفرش لك المكان ونهيئ المزار. . ونجعل في نافذته البحرية نافذة للقلل نعطرها بماء الورد، ونغطيها بأغطية النحاس اللامعة. . دعك منهم وتعال إلينا، فإنا واللَّه لأعرف بقدرك وحقوق زوارك من هؤلاء. . ».

ويبدو أن هذا النموذج الساذج من خطاب الدعاء - في أوساط العوام من المؤمنين، ليس جديدًا؛ فقد رفع أحد الأعراب، بعد تعرفه إلى النبي - صلى اللَّه عليه وسلم، وإعجابه به - يديه إلى السماء : اللهم

أدخلني ومحمدًا الجنة ولا تدخل أحدًا بعد ذلك؛ فقال له الرحمة المهداة - صلى اللَّه عليه وسلم - : لقد ضَيَّقتَ واسعًا يا أخا العرب!!

ومثله ذلك الذي لاحظ كثرة التلاوة، والهينمة بالدعاء، من سيدنا رسول اللَّه - صلى اللَّه عليه وسلم - ومن علماء الصحابة، وخاصة واحدًا من أوثقهم صلة بالقرآن وأقومهم، وهو سيدنا معاذ بن جبل. فتوجه إلى النبي - صلى اللَّه عليه وسلم - وقال له : إني لا أعرف دَنْدَنَتك ولا : دَنْدَنَة معاذ، إني أسأل اللَّه الجنة وأعوذ به من النار، فقال له الرحمة المهداة - صلى اللَّه عليه وسلم -: «حولهما نُدَنْدِن!!».

الدعاء مناطه كله على الصدق مع اللَّه؛ فهو روح الدعاء، وهو مجداح السماء، وهو رأس الأمر كله، وبدونه فلا قيمة لصيغ مرسومة ولا هينمات وتمتمات مكرورة.. لكن كما أن الإنسان بروح وبدن، فكذلك الدعاء - وهو يوجَّه نحو اللَّه وحده - فإن استطاع المرء أن يضم إلى الصدق التزام الوارد من الصيغ، أو ما يشبهها فخير له، وأوجبوا ذلك في الدعاء داخل الصلاة.. فأما خارجها فيستحسن لك إن كنت العوام، ممن لم يحفظوا ولم يقرأوا، أن تدعو اللَّه مثلهم بروح العبودية، وصدق الولاء واليقين، وإن بدت فيه بساطة السذج المخلصين.. وهذا غاية الداعين والحمد اللَّه رب العالمين.

أما إن قدر لك أن تكون من أهل العلم أو المتصلين به، فعليك التطلع إلى أفق أعلى في خطاب الدعاء والمناجاة، ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [الحشر: ١١] فتعلم أن تخاطب ربك بخطاب

الأنبياء، الذين عرفوه حقًّا، ولجأوا إليه صدقًا، حتى كان الكون من حولهم يشاركهم الدعاء: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧- ١٩]. . ولنبينا - صلى اللَّه عليه وسلم - الذي سبَّح الحصى بيده؛ أحاديث في باب الدعاء، وصيغ من النجوى والرجاء، هي من أروع وأصدق ما تحويه «العربية» من جمال وصدق، تنسجم معه العبرات، وتستجاب الحاجات.

وقد تتبع شيخنا الشيخ محمد الغزالي هذا الباب من الحياة النبوية في كتاب خاص - وإن كان قد عرض له في كتابه «فقه السيرة» - أسماه: «فن الذكر والدعاء في حياة سيد الأنبياء»، فجمع وأوعى، وأتمَّ وأوفى، ولعلك بمطالعته واصطحابك له في أسفارك تجد المتعة والقوة، والقربى واليقين.



(٢١) سأغادر هذه المدينة قبله

عملت - كما سيتكرر مرارًا - بإسلام آباد، خمسةَ عشرَ عامًا، مع زملاء كثيرين من مختلف الأقطار العربية، وبعض الباكستانيين، بين أكاديميين وإداريين.

وتحصلت عندي مجموعة من التجارب والخبرات، عن أوضاعنا الجامعية، وعما يمكن تسميته «بأزمة الأستاذ الجامعي»، الذي هو في الحقيقة القلب النابض للحياة الجامعية، يتلقى المنهج وأدوات التطبيق والأداء، ويعيد إنتاجها حياةً وفكرًا وتربية؛ إنها أشبه بالمعجزة الإنسانية.

وكان من بين من عرفتُ: قوم أوساط، وقوم متميزون، وفئة لا تصلح لهذا المقام.. وقد يشتهر قوم من الأوساط، بل ومن دونهم، لا بالعلم والأداء.. ولكن بأمور أخرى، وينالون من الشهرة ما ينالون، عبئًا على أكتافهم، فهم ليسوا لها بأهل.. وما خدعت بأحد من هؤلاء يومًا، ولكنى كنت أعطيهم حقوقهم الواجبة عليَّ.

جاءني يومًا بمكتبي في الجامعة، وأنا نائب رئيسِها - ذلك الرئيس الذي لا يحضر إلا يومين أو ثلاثة كل شهر - سبعةُ رجال، علمت أنهم يمثلون «المخابرات الباكستانية» ورياسة الجمهورية، بشأن أحد إخواننا الشوام، من أهل فلسطين الذين درسوا في مصر، ويدرِّس معنا بالجامعة، من المعنيين بالشأن العام، ولكن على نحو من «الديماجوجية».

كان هذا الأخ قد كتب في بلده، قبل قدومه إلى باكستان بعدة سنين بحثًا أو مقالًا، تعرض فيه للسيد / محمد على جناح أول رئيس لباكستان، وهو سياسي كبير يعتبره الباكستانيون مؤسس الدولة الفعلي - وإن كان إقبال هو مؤسسها المعنوي - ويسمونه «القائد الأعظم». ولكن أخانا، القليل المعرفة، هاجم الرجل؛ لأنه من أصول شيعية. وهي ناحية -على صحتها- لم يكن لها في حياته أي أثر ظاهر، حتى خفيت على كثير من معاصريه.

دس بعض الناس لهذا الأستاذ لخلق مشاكل له، واستعانوا على ذلك بالمقال القديم، ولما علمت بالأمر، قلت لهم يا سادة:

هذا رأي أبداه الرجل في بلده، ومنذ عدة سنين، لو كان قد أبداه في بلدكم، أو حتى هناك بعد إعارته، لقلنا: إنه مغرض، ويهدف إلى إفساد العلاقات. لكن المسألة برمتها تاريخية، وفي إعادتها الآن ناحية كيدية طائفية؛ فلا وجه لإثارتها إلا العداء الشخصي؛ ومن ثم فإني لا أرى أي وجه للتعرض لهذا الأستاذ، بهذا الخصوص على الإطلاق، بل إن المساس به قد يثير من المشاعر ما ليس في صالح باكستان.

تفكروا حينًا، ولما رأوا صلابتي ومنطقي الواضح، قال كبيرهم: نحن أردنا أن نناقش الأمر معك، ومع الأستاذ نفسه. ففهمت قصده، وقلت له: إني لا أرى داعيًا لاستدعائه، ومناقشته في الأمر. وقد تداولناه بيننا، وظهرت لكم حقيقته الكيدية.

كان القوم قد شربوا القهوة، وتفهموا الموقف، وظهرت عليهم بوادر الاقتناع، ولكني حرصت أن أذكر لهم؛ لعلمي أن أمثالهم قد يبدون انطباعًا

وينصرفون على قرار مخالف له: إنكم لو تعرضتم لهذا الأستاذ بأي إجراء غير مناسب، فسأغادر مدينتكم إلى بلدي، قبل أن يركب هو الطائرة إلى بلده. وماتت المسألة.

هل أقول: إنه ظهر من تصرفات هذا الزميل الحمقاء - رغم إخلاصه - ما جعلني أراجع نفسي في موقفي السابق، لا من حيث المبدأ الذي قصدتُ الحفاظ عليه، ولكن من حيث استحقاق هذا الزميل لمنصب «الأستاذ الجامعي». وأكتفي هنا بالإشارة. ولِلّه عاقبة الأمور.



(٢٢) الإمام الأكبر عبد الحليم محمود

عرفته - رحمه اللّه - في أوائل الخمسينيات من القرن الماضي - أستاذا «منطويًا» بكلية أصول الدين، التي أسكن بجوارها، وأنا بعد طالب في المرحلة الثانوية، لكنني كنت أعد نفسي للالتحاق بها، وما زلت أذكر محاضراته عن الفيلسوف الفرنسي «برجسون» لطلاب الليسانس، في «الخازندارة».

وقد قدر لي أن ألتحق بالكلية بعد ذلك عام ١٩٥٣، وأخذت اقترب منه، وكان في هذه الفترة يدرس «التصوف وفلسفة الإمام الغزالي» بكلية دار العلوم أيضًا، غير أني حين تعثرت حياتي التعليمية، أوائل الخمسينيات، حرمت منه حتى مطلع الستينيات، وأذكر أن العمل الأول لي الذي كتبته - في سجن الواحات - في كراستين، ملخِصًا دروسي هناك - في علم مصطلح الحديث، أرسلته مع شقيق لي إلى فضيلته، ولعله حتى الآن ما زال في مكتبته.

وعندما عدت إلى الدراسة - كما وصفت في سياق آخر - توثقت صلتي به، وحضرت دروسه في الفلسفة الإسلامية، والتصوف، في السنة الثانية بأصول الدين وما بعدها، وأذكر أنه كان يومًا يدرس لنا مسألة «التحسين والتقبيح»، وكان دأبه ألا يلقى إلينا المعلومات، بل يستنبتهما من عقول الطلاب بأسلوب سقراطي، وعندما سأل عن الفرق بين موقفي المعتزلة وأهل السنة من هذه المسألة، تصديت للجواب.. وكان سعيدًا

بتوفيق اللَّه لي، حتى إنه، وهو يعلَم دراستي المزدوجة، بدار العلوم أيضًا، كان - كما روى لي زميلي الأستاذ الدكتور عبد العزيز سيف النصر - يحكى ذلك الموقف لطلبته، ويحضهم على المثابرة، مشيرًا إلى حال هذا الذي يدْرُس في كليتين، مع اشتغاله بكسب عيشه، في وقت معًا.

كان بسيطا زاهدًا، انتقل في مطلع الستينيات، بعد قانون تطوير الأزهر ١٩٦١م من أصول الدين إلى كلية اللغة العربية، وأذكر أنه عرّفنا حينئذ بأحد شيوخ الشاذلية «الشيخ الفشني»، في زاوية قرب دار الكتب القديمة، في مواجهة «مسجد البنات» بباب الخلق. صلينا الظهر في هذه الزاوية يومًا، وجاء فضيلته بعد انتهاء محاضراته بكلية اللغة، ومعه «ثمرة مشوية» من الذرة، اشتراها في طريقه، وكان ذلك غداءه، وأذكر أنه كان يختصّ من شقته التي جاء إليها، بعد العودة من باريس - وفيها توفى - بغرفة فيها سريره وكتبه، وإذا جاءه الطبيب نام على الأرض وتركه يؤدي عمله، وقد لقيت عنده فيها - رحمه اللَّه: الشيخ النواوي، والشيخ محمد أبو العيون، والسيد/ محمد رشاد مهنا، وكثيرًا من رجالات مصر.

وعندما هاجم عبد الناصر شيوخ الأزهر، ترك الشيخ «البذلة الإفرنجية»، وعاد إلى ارتداء العمامة والزي الأزهري الكامل - وكان دأبه قبل ذلك ألا يجمع بين شيئين حتى الحذاء: إن اشترى جديدًا ترك القديم في الطريق - وأخذ يعنى بمظهره الأزهري، طبقًا لنصيحة إخوانه، حتى وفاته ١٩٧٨، رضي اللَّه عنه.

وكان يوزع جانبًا كبيرًا من راتبه على الجمعيات الإسلامية، صوفية وغير صوفية، وكان على صلة طيبة بالعاملين في الحقل الإسلامي، داخل الأزهر وخارجه، بل داخل مصر وخارجها، وقد بلغني أنه لما اعتقل أحد العلماء من معارفه، صمم على زيارته في سجنه، كما كان يزوره قبلها. وقرأت له - في منتصف السبعينيات، في مجلة لبنانية -الشهاب فيما أذكر- أنه لبى دعوة الوليمة التي أقيمت على زواج المهندسة «استشهاد»، صغرى بنات «الشيخ حسن البنا»، التي ولدت بعد مقتله. ولم يكتف بالحضور - وهو تفضل كبير - بل تحدث طويلًا عن أسرتها: جدِّها المحدث، وأبيها الداعية الذي بذل نفسه في سبيل دعوته، والجود بالنفس أقصى غاية الجود. وأعرف صلته الأخوية بالشيخ محمد زكى إبراهيم، رائد العشيرة المحمدية الراحل، ومؤسس مجلة «المسلم» القاهرية، وكذا برجال «الجمعية الشرعية» ومجلة «الاعتصام».

ويعرف الجميع أن السادات - على دهائه وخبرته - ضاق ذرعًا بصلابة الرجل فيما يراه حقًّا، وقد بقي في بيته معتكفًا قرابة ستة أشهر، يرفض تسلمَ راتبه، لعدم قيامه بما يقابله من عمل. وذلك لمعارضته تعديل قوانين «الأحوال الشخصية»، ولم تصدر هذه التعديلات إلا بعد انتقاله إلى جوار ربه.

لم يكن برجل سياسة، لكنه معلم وداعية، ويرى في ذلك شرفه وشرف كل عالم رباني ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩] - ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [فصلت: ٣٣] وكان أسلوبه في التعليم والدعوة من «السهل

الممتنع»، قريبًا من المتلقي والمستمع، يسيرًا واضحًا، حتى ليخيل للمرء أنه يستطيع تقديمَ مثله، وهيهات.. ولقد ذكرتُ مثالًا لطريقته غير التقليدية في التعليم، حتى ليكتفي بإثارة الموضوع ويترك طلابه، أو بعض الزائرين المدعوين، يجيبون، وكان هذا الأسلوب التفاعلي غير معهود في ذلك الحين.

من لطف اللَّه به أن قضى نحبه قيل توقيع معاهدة «كامب ديفيد». ولكنه كان في قمة نشاطه زمن حرب الاستنزاف، وحرب التحرير في ٧٣، وروى عنه أنه بشر «السادات» بالنصر. وقد زار لندن عام ١٩٧٥ ليفتتح مع الملكة إليزابيث «مهرجان العالم الإسلامي، وكان أحيانًا ينشغل بمناقشة بعض العلماء «كعبد الحكيم سراج الدين» عن محاذاة الملكة، حتى ينبَّه إلى المقتضيات «البروتوكولية»، فيحرص على التزامها - رحمه اللَّه.

كان شيخي الذي أُفضى له بذات نفسي حتى بالرؤى والأحلام، وكان أحد أساتذتي الموجهين، وصديقًا لأستاذي المشرف على بحوثي ودراساتي الدكتور محمود قاسم، ولا حدود لفضله عليّ.. وهذه الحكايات تحكي «أطرافًا» من ذلك:

ألا ليت شعري هل يعودن عهدهم وتبقى لذاذات النهى تتجدد
وهل أردن يوما حياض معينهم أم الأمر جبّات وكم ممدد

❋ ❋ ❋

(٢٣) البروفسور لاميتون

كانت البروفسور «لاميتون» عندما التحقتُ بكلية الدراسات الشرقية والأفريقية بجامعة لندن آنسة في ستينياتها لم تتزوج، وترأس «قسم الشرق الأوسط» بالكلية «Soas» بجامعة لندن. كانت أستاذة صارمة قوية الشخصية. قال لي الدكتور سعيد بدوى - رحمه اللَّه -: لقد كنا ونحن طلبة بالمدرسة نتجنبها هيبة لها، وكانت تذكرنا بالدكتور محمود قاسم في مصر، عميد دار العلوم في الستينيات، في صرامته، وهو الذي قال لي أحد عمدائها بعده: قاسم آخر العمداء، فقلت مستغربًا: ولا أنت؟! فقال الرجل الذي لم يكن على ولاء مع الدكتور قاسم: ولا أنا.

كان تخصصها «اللغات الشرقية، وخاصة الفارسية» ولها أعمالها وأبحاثها في الفكر الفارسي والإسلامي، السياسي والحضاري، المعروفة للمشتغلين. وكان عملي في «الفكر الكلامي والفلسفي لنصير الدين الطوسي» يثير اهتماماتها، وبخاصة عندما سمعتني - ومعها سائر أساتذة القسم وطلاب البحث فيه - ألقى «السيمينار» التقليدي، الذي يتيح لمن يجتازه بنجاح أن يتحول بحثه، المسجل في الكلية، إلى أطروحة لنيل «درجة الدكتوراه» بدلًا من درجة تكاد تماثل «الماجستير»، فلمّا وفقتُ - بحمد اللَّه - يومئذ في إثارة اهتمام الأساتذة بالموضوع، وفي الإجابة على كثير من أسئلتهم الدقيقة، وأعانني على ذلك خبرتي بالفكر الإسلامي عامة، وبأبعاد الموضوع العلمية والفلسفية والكلامية خاصة، وخبرتي البحثية والتدريسية في مصر، رغم إنجليزيتي المحدودة حينذاك، حرصت هي على متابعة بحثي والتعاون معي.

كان المشرف على عملي رسميًا هو أستاذ اللغة العربية البروفسور جونسون - الذي ذكرته في إشارتي ليوم ٦ أكتوبر، وأصداء الأداء المصري في تلك الحرب المجيدة - ومعه الدكتور محمد عبد الحليم خريج «دار العلوم»، الذي استقر - بعد دراساته بكمبردج - أستاذًا بالمدرسة، وانضمت إليهما بصفة غير رسمية الأستاذة «لاميتون»، وتحت إشرافهم جميعا كان عملي في بحثي، بين بداية صيف **١٩٧٣** إلى نهاية صيف **١٩٧٧**م.

كانت تُراجع معي، ما أعِده من أجزاء البحث، تفصيلًا، وتناقش معي مشكلاته، وتنصحني باستشارة المراجع الضرورية، بعد انتهاء العمل الرسمي بالمدرسة، وتبقى معي أو تبقيني معها إلى العاشرة مساء، وداومتْ على ذلك مدة ليست بالقصيرة، وكنت أتركها بعد ذلك في مكتبها تخلو إلى أعمالها الأخرى.

لطالما تساءلت فيما بيني وبين نفسي، لم لا نجد مثل هذا النموذج متكررًا لدينا في مصر؟ نعم، كان أستاذنا محمود قاسم نموذجا طيبا، لكنني أعلم أن طلاب البحث العلمي في مصر - في أكثر الأحيان - مهملون، وفي بعضها يعانون تعنت بعض الأساتذة، وإهمالهم.

هي سيدة تنتمي إلى أسرة عريقة، منها لورد «لاميتون» الذي كان أحد وزراء الدفاع، ولكنها - على صرامتها وهيبتها وسنّها - تركب «الباسكاليت»، حاملة أوراقها في «خرج» قماشي، تعلقه بمقدمة «العجلة» أو في كتفها، فيما بين شقتها التي تقيم بها ومكتبها بالمدرسة،

نذرت نفسها للعلم، وهي مسيحية ملتزمة، تشارك في الإشراف على بعض الكليات الدينية في برمنجهام، ولكنها لم تكن تعاملني كطالب بحث، بل كخبير بالثقافة الإسلامية.

عندما علمت بقراري الاستمرار في الدراسة بالمدرسة، دون «منحة أو بعثة» من مصر أو غيرها، نصحتني بالتقدم إلى «لجنة رعاية الطلاب» التي ترأسها - بعد تعقد الموقف المصري والدولي في أعقاب حرب أكتوبر - وناقشني أعضاؤها في طبيعة عملي، والمدى الزمني الذي أتوقعه، فقلت نحو أربعة أعوام، وقد أكملت بحثي وناقشته وحصلت على درجة الدكتوراه في «الفلسفة الإسلامية» خلال أربع سنوات وأربعة أشهر، وهي مدة قياسية نسبيًّا. وقد أعفتني اللجنة من الرسوم الجامعية طوال هذه المدة، مع معونة «اسمية»، لكني اعتمدت على اللَّه - تعالى - ثم على جهدي الشخصي، وقليل مما يأتيني من راتبي بمصر، لإعالة نفسي وزوجي، حتى أنجزت هدفي بحمد اللَّه.

كان أستاذي الدكتور جونسون، الذي يتعامل مع «مس لاميتون»، كما يدعونها أحيانًا، على نحو رسمي دون مودة، يقول لي: إنها على مودة معك، فأقول له: الحمد لله، ويضحك.. وأعتقد أن القارئ الكريم، سيصدقني إذ أروي له، أن البروفسور جونسون هذا عندما دعاني إلى منزله قبيل عودتي إلى مصر - مع زوجي - في قرية خارج مدينة لندن، حيث يقيم، وعرفني بزوجه وبناته وولده الصغير، ذي الشعر الأحمر، وخرج معنا بعد الغداء مودعًا، إلى محطة القطار، سلم عليَّ مستأذنًا في منتصف الطريق، وجلس على إحدى المقاهي «البارات»،

وقالت زوجه التي ودعتنا على المحطة: إنه يبكي، ولم يستطع أن يتحمل ساعة الفراق؛ فهو رجل عاطفي، عودوا إلى مصر يحفظكم اللّه.

أذكر أن مس لاميتون دعتنا أيضًا إلى منزلها مودِّعة قبيل عودتنا، وقدمت لنا الغداء على مائدتها بنفسها، ومعنا الأستاذ «الدكتور» فيما بعد - صلاح حافظ - الناقد الأدبي المرموق، وجلسنا معها في شقتها البسيطة بعد الغداء، ودار نقاش حول «القاديانية»؛ وقلت يومها للأستاذ صلاح: إنهم ليسوا مجددين بل يدعون إلى ديانة أخرى، وملة مخالفة. وشاركتني سيادتها الرأي، بعد أن ذكرتْ أنها زارت «الربوة» مقرهم المركزي، في باكستان، وتأكدت من ذلك بنفسها وهذا ما لسمته أنا شخصيًّا بعد ذلك، عندما قدر لي العمل في إسلام آباد، خمسة عشر عامًا، زرت أثناءها «الربوة» وتعرفتُ الأحوالَ الباكستانية من قريب.

وذات يوم، وقد قاربت إتمام عملي، سألتني: لماذا يتجه الأكاديميون المصريون إلى العمل بالسياسة، وتقلُّدِ الوزارات؟ أليس العمل الجامعي كافيًا نفسه بنفسه؟ ثم قالت لي: لقد عرفت طرفًا من حياتك، وأقول لك مخلصة: «مصر لا تحتاج إلا تطبيقَ القانون، أيًّا كان ذلك القانون».

زرت المدرسة في تسعينيات القرن الماضي، بعد قرابة عشرين عامًا من تخرجي فيها، ومررنا أنا والدكتور محمد عبد الحليم - حفظه اللّه - والدكتور سعيد بدوي - رحمه اللّه - على المكتب الذي كانت تشغله مس لامتيون نستعيد ذكرياتها، وعندما نزلنا إلى الدور الأرضي، وجدناها وقد تجاوزت التسعين أو ناهزت المائة تشارك في ندوة، وتسير

على عكازين متصلتين أمامها، تحركهما خطوة خطوة، فسَلَّمنا عليها وتناولنا معها الغداء بالمدرسة، ثم ودَّعناها لنسمع بعد فترة قصيرة بوفاتها، ونتذاكر جهودها التي لا تنسى!



(٢٤) صورة بالألوان

لقيت الدكتور حسن الترابي مرات كثيرة، بمصر والسودان وباكستان ولندن، ولكن المرة الأولى التي رأيته فيها عن قرب، كانت في حفلٍ عامٍّ بأحد مدرجات كلية الحقوق بجامعة الخرطوم، عام ١٩٧٩م.

كنتُ مُعارًا لجامعة أم درمان الإسلامية؛ لتدريس بعض العلوم الفلسفية بكلية العلوم الاجتماعية، وقد كتب عليَّ أن أدرس كل المواد الفلسفية تقريبًا، حيث كنت أعاون رئيس القسم الذي تركني وسافر في إعارة إلى دولة الإمارات.

ودعينا إلى ملتقى بجامعة الخرطوم لا أذكر مناسبته، لكن كان فيه مندوبون من البلاد العربية، وجلست وإلى جانبي كهل لم يبلغ الخمسين، لحيته سوداء خفيفة، يبدو في الزى السوداني الفضفاض، أقرب إلى النحافة، وأميل إلى الطول، مستوفِزًا. رجل بسيط، ليست تبدو عليه مظاهر الشيوخ والزعماء. ولكنه حين دُعي باسمه ليرقى المنبر، وعرفت أنه هو الدكتور الترابي، أخذ بألباب السامعين، وكشف عن فكر رصين وكفاءة خطابيه مرموقة.. وأخذت أنظر إليه بغير العين التي رمقته بها وهو جالس إلى جانبي، منذ بداية الحفل.. كنت قادمًا من قاهرة السادات، وبعد «كامب ديفيد»، وقد شرع السادات في أخريات عهده يرتكب غلطته القاضية.. يشد القبضة ويبطش بالخصوم كافة.. وكانت بين الحرية في ظل حكم عسكري في الخرطوم - اللواء

جعفر النميري - وبين حالنا التي أدت إلى حادث المنصة الشهير، وأودت بحياة السادات نفسه، اختلافات كبيرة تلفت نظر أي مصري.

وبقيت في نفسي انطباعاتُ اللقاء الأول عن الدكتور الترابي، ولست أنكر أنني ربما كنت متأثرًا أيضًا بمعلومات أخرى حينذاك عن شخصيته، دعتني إلى التورط فيما سأذكره من موقف - كان تلقائيًّا في الحقيقة، لكنه لم يكن متفقًا مع مقتضيات الضيافة.

كان ذلك عندما قدِم إلى إسلام آباد - باكستان - خلال التسعينيات فيما أذكر - المشير سوار الذهب والدكتور الترابي، مدعوَّيْنِ لأحد المؤتمرات، ودعاهما الطلاب السودانيون في الجامعة الإسلامية العالمية للقاء تكريمي، ووقفت أرحب بالضيفين الكبيرين، وأذكر أنني أشرت في حديثي إلى موقف السيد المشير سوار الذهب، الذي ربما كان الرجل الوحيد، في العالم العربي، الذي رفض الاستمرار في الحكم برغم مطالبته بذلك، وقلت: «إن هذين الرجلين كانا من الذكاء بحيث تركا كراسي الحكم، ليحتلا كراسي القلوب في مختلف أنحاء العالم الإسلامي». ولا أدري لماذا استطردت لأروي واقعة لقائي الأول بالدكتور الترابي، وكان مما قلت عن هذه الجلسة، التي تجاورنا فيها بمدرج جامعة الخرطوم: «ونظرت إلى جاري فرأيت في عينيه «ألوانًا» كثيرة. . » كانت الكلمة تتفق مع ما في نفسي من انطباع تلقائي، ولكنها - والحق يقال - لم تكن متفقة مع الموقف الذي كنا فيه على الإطلاق.

وسكت الرجل الكبير ولم يعلِّق، ولكنني فوجئت به يعلق في ذكاء

ولماحية، عندما دعينا في نهاية الحفل إلى صورة «فوتوجرافية» جماعية، إذ ناداني الدكتور الترابي قائلًا: تعال يا دكتور حسن إلى جانبي حتى تكون الصورة «بالألوان..»!!

لم تنقطع الصلة بالدكتور الترابي، برغم اضطراب العلاقة بين الخرطوم والقاهرة، والتقينا بعد ذلك دون أي أثر لما كان في إسلام آباد.

وحين زار الدكتور الترابي الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر، بعد ثورة يناير، وكنت أعمل طوعيًّا في فريقه، نزلت مع الضيف لملاقاة الصحفيين، وأعطيته حقه، مركزًا على الصلات الروحية والدعوية الحميمة، بين شعبي وادي النيل مصر والسودان. وقد فوجئت بعد ذلك بأشهر، باتصال من الدكتور الترابي، يحيي ويطمئن على ظروفي في تلطفِ أخوي مشكور، لا يستغرب من مثله!



(٢٥) الدكتور أحمد حمدي يوسف

كأني أنظر إلى الدكتور أحمد حمدي، وهو يقف على حافة سَاحة رياضية صغيرة، وهو بعد ما يزال في مرحلة دراسته الثانوية، بمدينة ببا، بمحافظة بني سويف عام ١٩٥١، ينظر إلى مجموعة من الشباب والكهول، يحاولون تنشيط أنفسهم بعد ليلة قضوها، في مقر شعبة الإخوان المسلمين، التي كان قد أعيد تشكيلها عشية اليوم السابق، بمشاركة عدد من الرجال القدامى والجدد، منهم والده الحاج يوسف، ووالدي - رحمه اللَّه، والأستاذ عبد الحفيظ الصيفي، الذي ينتمي إلى أسرة عريقة في مدينة «سفط راشين» بمحافظة بني سويف، وكان يشغل - حسب اختيار الأستاذ حسن البنا - منصب رئيس قسم الاتصال بالعالم الإسلامي، في المركز العام للإخوان المسلمين بالقاهرة.

تمر الأيام ويتقدم الفتى المتفوق إلى كلية الهندسة، ويتزامل مع بعض من عايشتهم في فترة السجن مثل المهندس فخري أبو النور، ويتخرج مهندسًا، ليلتحق بالمشروع القومي الرئيسي للعهد الناصري، «السد العالي»، فيبلي فيه بلاءً حسنًا، ويشاركه في ذلك قريب لي اسمه حسن منصور الذي ورث حنكة إدارية فطرية عن والده (خالي) السيد/ محمد منصور.

ويترك «المشروع القومي» ليدخل الجيش المصري، أحد معاقل الوطنية المصرية، ليعاصر فترة من أقسى فترات العمل العسكري وأمجدها في الوقت نفسه، وهي فترة الاستنزاف التي أعقبت هزيمة ٦٧ التي ذاقها عمليًا منسحِبًا مع بعض جنوده من سيناء، ويستمر في العمل حتى يبلغ درجة

العقيد، ويمارس مواهبه في الرياضيات في خدمة القوات المسلحة، ويشارك عام ٧٣ مقاتلًا في حرب التحرير. ويتقاعد من العمل العسكري بعد النصر، ليعمل بالجهاز المركزي للتعبئة والإحصاء، وتجد مواهبه فرصتها في طبيعة العمل، حتى يصبح نائبًا لرئيس الجهاز، ولكن ضَنَّ عليه نظام مبارك بمنصب رئيس الجهاز، برغم ترشيحه له رسميًّا.

لم أكن بعيدًا عن الدكتور حمدي، رغم حساسية المجالات التي يعمل بها، فكنت شاهدًا بحمد اللَّه على زواجه، وضيفًا دائمًا على مائدته الكريمة، مفيدًا من مكتبته العامرة، وآرائه النافذة.

وينتقل الرجل إلى ميدان المصارف الوطنية، بعد أن خدم فترة بوزارة الشئون البلدية، وهو في الوقت نفسه منذ ترك الجيش - وربما قبل أن يتركه - يدرس القانون حتى يحصل فيه على درجة رفيعة، والتربية حتى يحصل على درجة الدكتوراه.. ويستخدم خبراته المتعددة في خدمته لجهاز الدولة، في مجالات متنوعة.. وقد علمت من غيره أن كان له دور بارز في مشروع «الرقم القومي» الذي هو علامة تقدم مفْصَلِيٍّ إداري في الدولة المصرية. وحصل أيضًا من «أكاديمية ناصر العسكرية على درجة «أركان الحرب» التخصصية، وكان الأول على فريق الخريجين.

عشت كل أحوال الوطن في نصف القرن الماضي مع الدكتور حمدي، أتراحه وأفراحه، دون ارتباط بأحد أو فئة، وما زلنا نتابع حياتنا في خدمة القضايا الوطنية، وحمل هموم الأمة الإسلامية، لا نريد جزاء ولا شكورا، ولا نبغي إلا مرضاة ربنا وحسن الخاتمة.

وأذكر أنني رويتُ له رؤيتي للسفير الإسرائيلي في القاهرة، يمشي

مختالًا في ميدان «سيدنا الحسين»، غير بعيد من مشيخة الأزهر، وقلت له: لن تمر هذه الأمور بسلام - مجردَ توقع - وقد تودي بكثير من . . ولم يمض طويل وقت حتى حدثت مأساة «مقتل السادات» - رحمه اللَّه.

من أهم الأشياء في حياة الدكتور حمدي - متعه اللَّه بالصحة الكاملة - مكتبته المتميزة التي تعد مكتبة ثقافية ومتخصصة في الوقت نفسه، متخصصة في المجالات التي عني بها واشتغل بدراستها؛ كوّنها لخدمة دراساته في درجة «أركان الحرب»، ودرجة الدكتوراه في التربية من جامعة عين شمس، وليسانس القانون من حقوق القاهرة. وهو أساسًا مهندس حاصل على «البكالوريوس» من هندسة القاهرة. وقد أنفق على هذه المكتبة نحوًا من مليون جنيه مصري.

وحين وقع أحد أفراد أسرته في ضائقة، وليس لدى الرجل من المال ما يعينه به، عرض المكتبة للبيع، وليس لدى الخبراء المقَيِّمين - عادة - تقدير مناسب لما بذل في بناء أي مكتبة من جهد ومال، وإنما هي أشبه «بالكراكيب» القديمة. . وشاء اللَّه أن ينقذها في النهاية، والحمد للَّه رب العالمين.

تكثفت شبكة العلاقات بيننا، فتزوج زميلي الأستاذ الدكتور عبد الحميد مدكور إحدى شقيقات الدكتور حمدي، ورزقه اللَّه منها ثلاثة من الشباب الممتازين، وصيدلانية بارعة تتابع دراستها العليا في الولايات المتحدة، مع زوجها حفظهما اللَّه. وقد قدر اللَّه - وله الخلق والأمر - رحيل هذه السيدة الكريمة، بعد صراع طويل مع مرض المصريين (مرض الكلى) وتوابعه القاسية. فضلًا على شهادتي على زواج الدكتور

حمدي من السيدة الفاضلة زوجه الكريمة من قبل. وكانت لي معرفة وشبه صداقة مع شقيقها الأستاذ محمود، حين كان مديرًا ماليًّا للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، في السبعينيات والثمانيات - حفظه اللَّه.

وقد كان للدكتور حمدي فضل تعرفي على عديد من الأصدقاء المشتركين، من أبرزهم الأستاذ الكبير طارق البشري - متعه اللَّه بالصحة والعافية.



(٢٦) الأستاذ/ مصطفى بهجت بدوي

عرفته لأول مرة عن طريق أحد إخواني في سجن الواحات الخارجة، جنوبيَّ عاصمة الوادي الجديد، قرب واحة «باريس»، حيث قضيت نحو ثلاث سنوات في منتصف الخمسينيات، كان هذا الأخ الصديق - وهو المرحوم بإذن اللَّه الأستاذ محمود شكري - قبل سَجنه يعمل بالقوات البحرية رقيبًا، لكنه مثقف لبق، وكنت أقضي معه بعض وقتي في الأمسيات الهادئة بالسجن، عندما يهدأ الجو ويهدأ الناس المستوفَزن دومًا، وما أدراك ما السجن؟! وقال لي يومًا: بهجت صديقي الشخصي، نشأنا معًا في الإسكندرية، وهو شخص رقيق الشعور شديد التدين، ومن أسرة مثقفة، من الطبقة الوسطى، وأنا أدنى من ذلك بكثير.. وقد ذكرت أن صديقي كان - قبل السجن - «باشجاويش» رقيبًا أول في القوات البحرية، حكم عليه بالمؤبد، رجلًا واسع الخبرة، متين الخلق، زاهدًا لا يأكل إلا من عمل يده، حتى في السجن.

قال لي هذا الرجل عن الأستاذ مصطفى بهجت: برغم التفاوت الاجتماعي بيننا كنا لميولنا الدينية، على صلة برجال «الجمعية الشرعية» في الإسكندرية. ووصف الرجلَ لي، بما يتطابق مع ما قرأته بعد مضي أكثر من نصف قرن للفنان أحمد طوغان، في جريدة «الشروق» - عدد الجمعة ٥ شعبان ١٤٣٤/ ١٤ يونيو ٢٠١٣ - يصف الأستاذ بهجت مؤكدًا نفس الصورة التي ارتسمت له في ذهني: «جاءنا الأديب الشاعر - رئيسًا لجريدة الجمهورية - الرجل المهذب، مرهف الحس والشعور، مصطفى بهجت بدوي، الذي عشت في فترته أنعم بالتقدير والمودة،

وفي عهده سافرت إلى الجزائر، وعشت مع ثوار جيش التحرير الوطني الجزائري، وعدت إلى مصر بأربع عشرة صفحة، نشَرتها «الجمهوريةُ» تباعًا، وعن طريقها عرف الناس ما يحدث في الجزائر .. وبعدها بسنوات انتقل الرئيس جمال عبد الناصر إلى الرفيق الأعلى .. وأصدر الرئيس أنور السادات قرارًا بإعادة مصطفى بهجت بدوي رئيسًا لمجلس إدارة الدار، وسارت الأمور طبيعية بلا مشاكل ولا متاعب، في ظل دماثة وحسن تصرف، وكياسة مصطفى بك».

تعلقت بالرجل وقلمه المتميز الخفاق، ثم شغلتني عنه الشواغل في خضمها، وشاء اللَّه أن أخرج من بطن الحوت أول الستينيات؛ ليلتقمني حوت أكثر شراسة وأضيق صدرًا، حوت الحياة الواسعة في قاهرة جديدة لا أعرفها، رجلًا جاوز الثلاثين ولم يتم تعليمه الجامعي - حيث كان سجن عبد الناصر وإن كان يبيح أحيانًا قراءة الكتب، لكن يحرم متابعة الدراسة، وحضور الامتحانات، وهو حق مقرر للسجين في كل أنحاء الدنيا، ومنها مصر ما قبل عبد الناصر وبعده، لكن رحمة اللَّه التي أحاطت بيونس عليه السلام في الظلمات، نالني منها حظ في الحوت الجديد، ممثلًا في رفيق دربي وزميل حياتي، الدراسية والعملية والروحية، الدكتور علي عشري زايد، المعجب بالأستاذ بهجت كشاعر، وعن طريقه جددت صلتي بمصطفى بهجت، وعرفته أديبًا وشاعرًا بعد أن عرفته إنسانًا وصحفيًا؛ فقد كان يكتب لعدة سنوات «عمودًا» في الأهرام يشف عن شخصيته النبيلة وروحه الفنية، واحتفائه باللغة العربية، وبالثقافة التي تحويها. وإذا كانت الحياة الأدبية بزخمها كادت تنسي الناس اسم مصطفى بهجت بدوي، فإني أعتقد أن نور إنتاجه وأعماله سيسطع يومًا ما، وتستمتع بها أجيال لاحقة.. فهذه النجوم التي سطعت في سماء الثقافة المصرية العربية لا يمكن أن تموت.

(٢٧) كلمات هادية

يتأثر أحدنا بكلمات بارزة في مراحل من حياته، تتدخل في اختيار مواقفه، وتتسرب إلى وجدانه، وتصحبه - بعد ذلك - حتى لو نسيها أو نسي ألفاظها، فالأفكار كالأشخاص يمارس كل منها دوره - في عالمه - كما يرى المفكر الجزائري مالك بن نبي.. وبعض الكلمات المأثورة - وخصوصًا ما ورد عن فترات الضعف والتراجع، وظروف القمع والتضييق، وأفكار الخرافة والانفصال عن الواقع - تمارس أدوارًا بائسة، بل هدامة أحيانًا في حياة الأفراد والجماهير. وقد تتبع أحمد باشا تيمور - رحمه اللَّه - أمثالنا الشعبية، وعنى غيره بالحكم والأمثال التي هي خلاصة تجارب جمعية أو وليدة حكمة إلهامية.. وهذا باب كبير في تراثنا يمكن أن يعدّ جنسًا أدبيًّا على حياله، يتربع على قمته ولي الإسكندرية وعبقريها «ابن عطاء اللَّه السكندري»، دفين القاهرة بحِكَمه الشهيرة، والشيخ الجليل الأمازيغي الأصول، دفين مصراته في ليبيا «أحمد زروق» في «قواعده»؛ فهو وإن كان هدفه التقعيد للحياة الصوفية يتضمن من «الحكمة الهادية» نظرات نافذة لمَّاحة، تهدي قارئها وسامعها ولو لم يكن له بالتصوف عهد أو رباط..

وعلى قلة الإبداع في وقتنا الحاضر - في هذا الجنس - فإن الطبيب السعودي الأديب «الدكتور سالم المالك» قد عرض عليَّ، في إحدى زياراتي لمدينة «الرياض» عاصمة المملكة السعودية الشقيقة، عملًا طريفًا وبديعًا في إطار هذا الجنس الأدبي، وقرأت أخيرًا للصحفي البارز الأستاذ

فاروق جويده بعموده في جريدة الأهرام تنويها بعمل مماثل، لأديب مصري، هو أيضًا طبيب؛ وهو الدكتور محمد الحفناوي، الذي قدم إليه من إبداعه، طرفة تنتمي إلى هذا الجنس الأدبي، جنس اللمحة والحكمة. الأمر الذي يوحي بأن أدبنا المعاصر لم ينس تمامًا هذا الفن، الذي يقترب أو يختلط بأبواب من الحكي والمثل في التراث، وقد كان لأديب الثورة العرابية وخطيبها، الشيخ المناضل الصامد - إبداعاته أيضًا في هذا المجال، وكتاباته في مجلاته المتعددة . . وفي أدبنا العربي من أقوال الحكماء والعارفين بوجه عام، ومنها ما في «حلية الأولياء» لأبي نعيم، و«الرسالة» للقشيري، وغيرهما الخير الكثير.

على أية حال، ففي حكاياتي هذه، التي هي خلاصات وملتقطات من حياتي المتواضعة، التي رأيت أن أشرك فيها القراء، الذين قد لا يعنيهم أن أقول: إني قمت بذلك بعد إلحاح متكرر من زملائي، الذي يعرفون تقلب الدهر معي، وطول مكابدتي لوقائعه ورجاله، أن أكتب سيرة ذاتية فبدا لي أنه ربما كان الأيسر للقارئ، عوضًا عن سيرة ذاتية مكتملة وشاملة، أن أقص عليه هذه الحكايات. . وأن أروي له أيضًا بعض الحِكَم التي كان لها تأثير في نفسي، وبالضرورة في سلوكي ومواقفي. ومنها:

١- قول شيخي الأستاذ علي حسب اللَّه وكيل دار العلوم: العِلمُ كثيرٌ؛ فخذ منه ما ينفعك.

٢- والقول المأثور: لا تقل: إني أكره فلانًا - حتى لو كان عاصيًا - وقل: إني أكِره عمله.

٣- ومقالة شيخنا الأستاذ حسن البنا - رحمه اللَّه -: «الوقت هو الحياة»، وقوله في المعنى نفسه: «الواجبات أكثر من الأوقات».

٤- وقول الأستاذ أبي الأعلى المودودي الرائع: «لا يوجد خطأ عقيم».

٥- وقول الأستاذ محمد حسنين هيكل للأستاذ أنيس منصور - رحمهما اللَّه -: لا تختبر أصدقاءك - في وقت الضيق- فربما فقدتهم جميعًا.

٦- والقول المأثور: صديقك من صَدَقك، لا من صَدَّقك.

٧- وقول الشيخ محمد الغزالي: «إن ديننا حياة، فلنجعل حياتنا دينا. وقوله أيضًا: إن ديننا يقوم على كلمة التوحيد، وعلى توحيد الكلمة.

٨- وقول سيدنا أنس بن مالك - وهو حديث صحيح-: خدمت النبي -صلى اللَّه عليه وسلم- عشر سنين: فما قال لي «أفٍّ» قط، ولا قال لي لشيء فعلتُهُ: لِمَ فَعَلْتَه؟»

٩- وقول الأستاذ حسن البنا: إذا كنت في قوم، فلا تقدم نفسك عليهم، حتى يقدموك هم؛ عرفانًا بفضلك.

١٠- والقول المأثور: الهدف لا يبرر الوسيلة.

١١- والقول المأثور: «كل شيء يَقِلُّ بالإنفاق، إلا العلم؛ فإنه بالإنفاق يزيد».

١٢- والقول المأثور: «الحب هو التضحية».

١٣- وقول النبي - صلى اللَّه عليه وسلم -: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينارِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ».

١٤- وقول الإمام علي -كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ- في الإشفاق على الحيارَى المخلصين: «ليس مَن طَلَبَ الحَقَّ فَفَقَدَه كمَنْ طَلَبَ الباطِلَ فوَجَدَه».

١٥- والقول المأثور: آخر ما يخرج من قلوب الأصفياء حُبُّ الرِّئاسَةِ.

١٦- وقول النبي - صلى اللَّه عليه وسلم -: «لا يَمْنَعَنَّ أَحَدَكُمْ مَخافَةُ النَّاسِ أنْ يقولَ بالحَقَّ، إذا رآه أو عَلِمه».



(٢٨) وأشعارٌ سامية

كما تصاحبني هذه الحكم والوصايا المأثورة، فهنالك أبيات، وقطع من قصائد شعرية، لها في نفسي، وحياتي أيضًا، مثل هذا الأثر، بصرف النظر عن قيمتها الفنية، وإن كان بعضها فعلًا من عيون الشعر العربي:

(١) فمن ذلك ما رويت في حكاية سابقة، أني عثرتُ - بعدَ تأمُّلي لحوائطِ زنزانة التحقيق، فيما يُسمَّى في السجن الحربي «بالشفخانة»، وهو في الحقيقة «السلخانة» - على لوحة باهتة، بخطٍّ نسخيٍّ جميل، للأبيات الأربعة التالية التي كانت بلسمًا، ومددًا إلهيًّا في تلك الأيام القاسية:

وكم للَّهِ مِن لُطْفٍ خَفِيّ ... يَدِقُّ خَفاه عن فَهْمِ الذَّكِيّ
وكم هَمٍّ تُساءُ بِه صَباحًا ... وتعقُبُه المَسَرَّةُ في العَشِيِّ
وكَمْ يُسْرٍ أَتَى مِن بَعْدِ عُسْرٍ ... فَفَرَّج لَوْعَةَ القَلْبِ الشَّجِيِّ
إذا ضاقَتْ بِكَ الأسبابُ يَومًا ... فَثِقْ بِالواحِدِ الأحَدِ العَلِيِّ

وقد أسعدني أن أقرأ - بعد انفراج غمة السجن - أنها منسوبة إلى السيدة زينب بنت الإمام علي كرم اللَّه وجهه، وتختم بيت يقول:

وصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ فكُلُّ هَمٍّ ... يُفَرَّجُ بالصَّلاةِ عَلَى النَّبِيِّ

(٢) والبيت الشهير:

إنَّ الكِرامَ إذا ما أَيْسَروا ذَكَرُوا ... مَن كانَ يَأْلَفُهُمْ في المَوْطِنِ الخَشِنِ

(٣) والبيت الذي كان يردده الشيخ محمد الغزالي - رحمه اللَّه - ضمن قصيدة طويلة عن الأخلاق العربية:

وأغض طرفي عن محاسن جارتي حتى يوارى جارتي مأواها

(٤) والقطعة التي حفظتها عن أبي - رحمه اللَّه - قبل دخولي الأزهر، وأنا في الكُتَّاب، عن الأخلاق العربية أيضًا، وقد قرأتُها بعد ذلك في ديوان الحماسة:

وإنَّ الذي بَينِي وبَيْنَ بَنِي أَبِي وبينَ بَنِي عَمِّي لَمُخْتَلِفٌ جِدّا

إذا أَكَلُوا لَحْمِي وَفَرْتُ لُحُومَهُم وإنِ هم هَوَوْا غَيِّي هَوِيتُ لَهُم رشدَا

وإنْ زَجَرُوا طَيْرًا بِنَحْسٍ يَمُرُّ بِي زَجَرْتُ لَهُمْ طَيْرًا يَمُرُّ بِهِمْ سَعْدَا

ولا أَحْمِلُ الحِقْدَ القَدِيمَ عَلَيهُمو وليسَ رئيسُ القَومِ مَنْ يَحْمِلُ الحِقْدَا

وهذا البيت الأخير هو بيت القصيد، وإن كانت سائر الأبيات غُرَرًا في جبين الشعر العربي، وهي تختم بالبيت القائل:

وإنِّي لعَبْدُ الضَّيْفِ ما دامَ ثاوِيًا وما شِيمَةٌ لِي غَيْرَها تُشبِهُ العَبْدَا

٥- ومنها قول المتنبي، أمير الشعر العربي في كل عصوره:

إذا غامرت في شَرَفٍ مَرُومِ فلا تَقْنَعْ بِما دُونَ النُّجُومِ

فطَعْمُ المَوْتِ في أَمْرٍ حَقِيرٍ كَطَعْمِ المَوْتِ فِي أمْرٍ عَظِيمِ

٦ - وقوله - رحمه اللَّه:

من يَهُنْ يَسْهُلُ الهَوانُ عَلَيهِ ما لِجُرْحٍ بمَيِّتٍ إيلامُ

٧- وقوله أيضا:

إذا تَرَحَّلْتَ عَن قَوْمٍ، وقَدْ قَدرُوا أَلَّا تُفارِقَهم، فالرَّاحِلُونَ هُمُو

٨- وقول أحمد شوقي، أمير الشعر الحديث، في همزيته عن

المصطفى - صلى اللَّه عليه وسلم-:

فإذا رَحِمْتَ فأَنْتَ أُمٌّ أَو أَبٌ هذان في الدُّنيا هُما الرُّحَماءُ
وإذا خَطَبْتَ فللمَنابِرِ هِزَّةٌ تَعرو النَّدِيَّ، وللقُلُوبِ بُكاءُ

٩- وقول قطرِيّ بن الفُجاءة:

أقولُ لها وقد طارَت شَعاعًا مِنَ الأبطالِ: وَيْحَكِ، لَنْ تُرَاعِى
فَإِنَّكِ لو سَأَلْتِ بَقاءَ يومٍ عَلَى الأَجَلِ الَّذي لَكِ لَنْ تُطاعِي
فَصَبْرًا في مَجالِ المَوْتِ صَبْرًا فَمَا نَيْلُ الخُلُودِ بمُسْتَطاعِ
ولا ثَوبُ البَقاءِ بثَوْبِ عِزٍّ فيُطْوَى عن أخِ الخنعِ اليراعِ
سَبيلُ المَوتِ غايَةَ كُلِّ حَيٍّ ودَاعِيه لأهْلِ الأَرْضِ داعِ



(٢٩) في المعتقلات

كان حظي من السجن في العهد الناصري - خلال الخمسينات سبع سنين توقفت فيها حياتي الدراسية، وكما هي العادة، في بلادنا وبلاد العالم الثالث أو النامي - أن تلاحق التهمة أو بالأحرى الوصمة السياسية صاحبها، فلا يسلم من المسئولية عنها طوال حياته، حتى لو أراد أن يتوقف عن ممارسة الأنشطة العامة. . وذلك أنني استعدتُ في السنينَ الأربع الأولى - بعد خروجي من السجن - متابعة حياتي الدراسية بالأزهر ودار العلوم، كما وصفتُ سابقًا وانخرطت في خدمات اجتماعية، منها عملي رائدًا دينيًّا بمركز شباب عابدين، الذي ربما كان أنشط وأشهر مركز من نوعه في الستينيات. فما إن جاءت أزمة التنظيم المنسوب إلى الأستاذ سيد قطب - رحمه اللَّه - الذي دفع حياته ثمنًا لتهمة قيادته له، حتى صدر قرار استبدادي باعتقال كل من سبق له في حياته كلها - ولو قبل قيام الثورة الناصرية - أن اعتُقِل أو سُجِن، وذلك في أواخر عام ١٩٦٤، وكان من حظي أن أجدد سيرتي الأولى سجينًا، ولكني بصفة «معتقل» هذه المرة، حيث لا يوجد حكم قضائي سالب للحرية في حقي، وحق سبعة عشر ألف رجل تم اعتقالهم، طبقًا لهذا القرار الناصريّ الجائر.

أولَ ما أُخذت من بيتي أُودعت في قسم عابدين، وقد وصفت ذلك بإيجاز من قبل، وما لم أذكره - ويعلمه اللَّه - أنني نويت إذا فرَّج اللَّه

عني الكرب، أن أذهب إلى مأمور قسم عابدين، وأقدم له تبرعًا لتنظيف وطلاء القسم من الداخل، لأنني بعد أن طافت بي السيارة عدة أماكن، في تلك الليلة، بين الفلكي وعابدين، ومررنا على شارع الشيخ ريحان، فظننت أنني ارتكبت شيئًا لا أعرفه، أثناء عملي بهذا المركز «مركز شباب عابدين»، حتى أُودعت بقسم عابدين القديم، الذي كان في الزاوية المواجهة لمسرح الجمهورية، فيما بين شارعي الجمهورية وعبد العزيز. ووضعت مع المحجوزين بالقسم في غرفة مليئة بهم، وإن كانوا، حين أحسوا بأني معتقل سياسي، أفسحوا لي المكان شيئًا ما، ولكني لم أنَمْ، وبقيت يقظًا، ببدلتي الكاملة وحقيبة ملابسي في يدي، حتى الفجر. ويعلم اللَّه أن البقَّ كان ينزل من سطح الغرفة، وعلى حيطانها، سلاسل متصلة لا تنقطع. وهؤلاء «الغلابة» يقضون ليلهم أيقاظًا وهم رقود، وقد ينام البعض من شدة التعب، وهو ما دعاني إلى النذر الذي لم يتحقق؛ لأني خرجت من المعتقل لكيلا أجد قسم عابدين، فقد شاء اللَّه أن يُهدم، وزُرع مكانه أعشاب خضرة وأشجار، ونقل مبناه إلى شارع مسجد عابدين، مقر عملي القديم، إمامًا لمسجد عابدين.

ثم نقلت عند الفجر إلى غرفة الضابط المشرف على القسم، وفي الضحى بعد أن نمت على الكرسي المريح، جاء من «المباحث العامة» من نقلني إلى سجن القلعة، سجن محمد علي باشا، تحت الأرض تمامًا، والساحة ما بين الغرف هي وحدها التي ترى السماء. وقضيت فيه نحو شهرين، وقد حكيت أنه كان من بين زملائي في الغرفة أحد الطيارين يسمى عبد اللَّه شداد، أفرج عنه من القلعة، وقرأت بعد سنين خبر استشهاده مع زوجته، في حادث سقوط إحدى طائرات مصر للطيران بماليزيا.

وبعد شهرين كنا فيهما - وأغلب الموجودين بالقلعة من زملاء السجن سابقًا - نتندر بقول الرئيس عبد الناصر: «أنا جمعت ١٧ ألفًا في ليلة واحدة، واللي هيلعب بديله منهم سيلقى جزاءه. . » نتندر بمسألة «الذيول» هذه. . بعد الشهرين جاء أمر لا يخلو من إنسانية، يدلك على أن القسوة على الخصوم السياسيين تزداد بمرور الوقت في مصر حِدّةً، وهو أن يفرج عن كل من يجاوز عمرُه الستين، فخَرَجَت طائفة ليست بالقليلة، وحوّلتُ مع كثيرين من زملاء السجن السابقين إلى معتقل قنا، وهو غير سجن قنا العمومي، الذي قضيت فيه من قبل نحو نصف عام سجينًا عام ١٩٥٨م.

المعتقلات عادة أقسى معاملة من السجون؛ لأن الاعتقال يكون على إثر غضبةٍ من السلطة، ولأن الأعداد تكون عادة كبيرة، فلا يراعى فيها ما يراعى في السجون، ولأن أماكن الاعتقال تكون عادة متطرفة فهي شبه منافي، لا يسمح فيها بزيارات، أو خروج إلى المستشفيات. ومعتقل قنا كان «عنابر» كبيرة طويلة في كل واحد منها نحو خمسين شخصًا، لا يسمح إلا بنحو ساعة للتريض يوميًا. فكنا نقضي الوقت يحكي كل منا، عن مهنته أو تخصصه ما يراه مناسبًا لتسلية زملائه أو إفادتهم. وكنت حينها قريب عهد بدراسة علم أصول الفقه، على شيخي الأستاذ علي حسب اللّه، وأعدته على الحاضرين معي في «العنبر»، وأكثرهم من مسجوني الواحات، وبعضهم حقوقيون كانوا يعجبون لتذكري المسائل، وأدلتها، وأمثلتها الفقهية. . ومرت الأيام، وبعد أشهر سمح لنا، بأن نوكل، من نختار من الأهل أو الزملاء، بصرف مرتبات الموظفين منا، وأهل المهن الحرة لهم اللّه. . فوكلت الأستاذ علي عشري، وأعانتني تلك الحصيلة في مصاريف الخِطْبة والزواج بعد الإفراج.

وبعد نحو ستة أشهر أو تزيد نقلنا عائدين إلى القاهرة، حيث أودعنا بالعنابر الجديدة في سجن أبى زعبل المجاور لليمان أبي زعبل.. وقد تعرفت وأنا أنظر من العربة قبل دخول السجن على مستشرق ألماني مسلم، كنت أؤدي معه صلاة الجمعة، بمدرسة العباسية الثانوية للبنات، التي كانت تديرها السيدة التي عرفت باسم «أم المعلمين»، وكانت - رحمها اللَّه - تدعوني إلى أداء هذه المهمة، بعد أن تحررتُ من العمل بوزارة الأوقاف، خطيبًا للجمعة، بمسجد عمر بن عبد العزيز بمصر الجديدة، الذي قضيت فيه عام ١٩٦٤م، وكان رئيس مجلس إدارته الأستاذ عبد العزيز علي، الذي كان أول وزير للشئون القروية في حكومة الثورة الأولى، وقد حوكم في قضية الأستاذ سيد قطب مع السيدة زينب الغزالي رحمهما اللَّه.

كانت قنا أرحم من أبي زعبل، فقد كان لكل منا، في هذا الأخير، ما لا يزيد عن نصف متر، ينام فيه إلى جوار زملائه، جنبًا إلى جنب كالفسيخ وكان البعض يفضل أن ينام - بلا مبالغة - في المرحاض حيث يجد بعض الفسحة، ويغطي فتحته بشيء ما.. وحيث لم يسمح لنا لا في قنا ولا في أبى زعبل بأي كتاب، حتى بالمصحف الشريف، فكنا في قنا نتداول أورقا من مصحف واحد لكي نتلو منها ما تيسر من القرآن.. وفي أبي زعبل كنا نقضي وقتنا في الحوار الشخصي، أو بعض الألعاب الهادئة، فتعلمت عندئذ لعبة الشطرنج وبلغت فيها شأوًا، ثم تركتها، وكانوا يسمحون لنا بالخروج خارج العنبر في طابور للمشي نحو نصف ساعة كل يوم.. وقد علمت من أحد أشقائي - الأستاذ محمد الشافعي - الذين اعتقلوا طبقا للقرار الجائر نفسه، الذي أشرت إليه من قبل، أنهم جيء بهم من الصعيد

إلى سجن أبي زعبل هذا - ونحن في القلعة - وحكم عليهم بالتجرد من جميع الملابس، وأدخلوا عرايا إلى العنابر، ثم سمح لهم بارتداء ملابسهم بعد ذلك؛ للتكدير والإهانة، فيا ضيعة المروءة في سجون الجبابرة.

واذكر أننا في أحد الطوابير اليومية للتريض مررنا بالضباط، وكان فيهم أحد ضباط النجدة في غاية الأدب، وكان يسألني أحيانًا أسئلة فقهية، فلما رآني نهض فسلمت عليه، وإلى جانبه اثنان من الضباط الأقدم جالسيْن، فلما أسلم عليهما، فحيَّاني لذلك زملائي، وهو أمر عاديّ.

ثم نقلنا إلى سجن مزرعة طرة، حيث كانت الأحوال أفضل كثيرًا، وإن كنا نعيش في عنابر، وننام على «أبراش»، والبرش قطعة مستطيلة منسوجة من حبال الليف، نفرش عليها بطانية ونتغطى بأخرى.. بينما كان البهائيون - الذين اعتقلهم عبد الناصر، بعد النكسة، لصلتهم بالصهاينة؛ حيث تستقر قيادتهم الدينية في حيفا، في ظل إسرائيل - كانوا لصلتهم بالخارج والمنظمات الحقوقية.. ينامون على أسِرَّة.. فانظر إلى التمييز بين المواطنين، لصالح من يخشى النظام تأثيرهم على سمعته.. وبعد فترة ازدادت أوقات الخروج من العنابر حتى إننا كنا نستمتع بمشاهدة بعض زملائنا يمثلون ويهرجون.. واذكر أن فريقًا بقيادة الأستاذ حسين عاشور قدموا المسرحية الغنائية، «الليلة الكبيرة»، لصلاح جاهين بكاملها على مسرح نصبوه بسجن مزرعة طرة..

وفي هذه الفترة، وكان قد مرَّ على اعتقالي قرابة عامين، سمعت - من إذاعة القاهرة - بمحض الصدفة نتيجة تخرج الفرقة التي درست لها وهم في الفرقة الأولى عام ١٩٦٣، وسمعت أسماء الخمسة الأوائل:

الدكاترة فيما بعد «عبد الرحمن سالم، ومحمد حماسة عبد اللطيف، وحامد طاهر، وأحمد درويش.

وطلبت بعض الكتب، بعد تحسن المعاملة في طرة بعد النكسة، من أهلي، فجاءني منها عدة أجزاء من «المغني» للقاضي عبد الجبار عن مذهب المعتزلة، طالعتها مع الأستاذ الدكتور محمد رشاد سالم -رحمه اللَّه- وعنه أخذت جمهرة من قواعد تحقيق النصوص، كانت هي النواة لما كتبته بعد ذلك في رسالتي المعنونة: «بعض صعوبات تحقيق النصوص العربية».. ومن مزرعة طرة تم الإفراج عني عام ١٩٦٨، لأعود إلى الإقامة في شقتي «بالفلكي»، مع زميلي الدكتور علي عشري زايد - رحمه اللَّه، ولأتابع حياتي بعد ذلك، على النحو الذي وصفت في حكاياتي الأخرى، بعد قضاء قرابة ثلاث سنين في المعتقل؛ ظلمًا وجورًا.



(٣٠) الدكتور محمد النويهي، ومشروعه التحديثي

دخلت على الأستاذ مكتبه، في الدور الأرضي من مبني الجامعة الأمريكية القديم بميدان التحرير، بالقاهرة، طبقًا لما أُعلن عنه سلفًا، عن «مِنَح» تتيح فرصة للمتميزين، من خريجي دار العلوم والأزهر الشريف، لمتابعة الدراسات العليا بالجامعة الأمريكية، إلى جانب تعلم اللغة الإنجليزية وإتقانها؛ لتكوين عقليات جامعة بين تعمق التراث، واستيعاب الحداثة في وقت معًا. . ويبدو أنها فكرة الأستاذِ نفسِه، وأقرتها سلطات الجامعة، وأعلنت عنها أواخر العام الجامعي ٦٢/ ١٩٦٣م، وتقدم لها عدد من خريجي كلية اللغة العربية بالأزهر، ومعهم عدد من خريجي دار العلوم، صيف عام ١٩٦٣م.

كنا سبعة ممن حصلوا على ليسانس دار العلوم في العام المذكور منهم الأوائل الخمسة: السيد/ علي عشري زايد، وكاتب هذه السطور، والسيد/ عبد اللّٰه جمال الدين، والسيد سعد مصلوح، والسيد محمود شرف الدين، إلى جانب اثنين من أنبغ الخريجين هما الأَخَوان محمود الطناحي، وعبد الفتاح الحلو. وقد حرص الأستاذ أن يلقاهم جميعًا، للتأكد من صلاحيتهم للانخراط في «المشروع»، وليشرح لهم أبعاده ومقاصده، وزكَّاهم جميعًا - رحمه اللّٰه.

وجدت لدى دخولي أستاذًا يجلس هادئًا، وأمامه كتاب تراثي أصفر، تبيَّنتُ فيما بعد أنه «الكامل في اللغة والأدب» للمبرد - أبي العباس

محمد بن يزيد، إمام العربية في عصره وصاحب المؤلفات البارعة من أهمها - مع «الكامل» - وكتاب «المقتضب» الذي حققه، شيخنا محمد عبد الخالق عضيمة. وبعد ترحيب عابر دعاني أن أتناول «الكتاب»، الذي قدمه إليَّ مفتوحًا على إحدى الصفحات، التي اختارها فيما يبدو قبل دخولي، وأشار إلى موضع يتوسطه البيت المعروف - لكونه أحد الشواهد النحوية المتداولة في العلوم التراثية، وبخاصة علم النحو- قرأت:

«فغدَتْ كلا الفَرجيْنِ تحسَبُ أنه مَولى المخافةِ، خلفُها وأَمامُها

أعجبه أنني قرأت البيت صحيحًا، برفع الكلمتين الأخيرتين في الشطر الثاني، مع أن ذلك خلاف الظاهر أو المتوقع؛ لأنهما ظرفا مكان، والظرف زمانيًّا كان أو مكانيًّا حقه النصب دائمًا، ولكنْ هناك الظرفُ المتصرف الذي يتبع في إعرابه موقعَه من الجملة، كما هو هنا بَدَلٌ من قول الشاعر «كلا الفرجين» وهو في موقع الابتداء وحقه الرفع، والبدل يتبع المبدل منه فيُرفع مثله».

حين أحسست بتساؤله الصامت على وجهه؛ فهمت أنه يريد البيان أو «التوجيه النحوي» السابق، فذكرتُه له، لتنتقل المناقشة إلى الجانب الأدبي أو مضمون البيت: فذكرت أن الشاعر يصف حال مهاة أو غزالة، وجدت نفسها في الوادي شبه مشلولة، لا تطمئن إلى التقدم والهروب إلى الإمام لتنفذ من فتحة الوادي، ولا العودة إلى الخلف تتراجع هاربة من المنفذ الخلفي؛ لتوقعها الخطر من الجانبين، واستيلاء الخوف عليها حين حصرها الصياد، لا تدري مولى المخافة أي جهة الخطر؛ أتنالها السهام، من خلف أو أمام..

قلت شيئًا كهذا، لا أذكره إلا إجمالًا، بعد مضى نصف قرن أو يزيد. .
فتحول الرجل - راضيًا - يخاطبني كمن يحادث زميلًا أو صديقًا، قال:

لقد تعلَّمنا من دراسة التاريخ الفكري لمصر، وبالأخص من تجربة الإمام محمد عبده، الذي كان يحسن الفرنسية، ويعرف الإنجليزية، أن أحدًا لا يستطيع أن يصنع شيئًا ذا بال فيما نسميه «الأصالة والمعاصرة»، أو تطوير الثقافة العربية في ضوء ما نعيشه من تغيرات معاصرة، ما لم يكن متمكنا - أو لديه فرصة التمكن - من التراث العربي أولا . . ثم يستكمل الجانب الآخر، أو يمد له جناحا نحو الحداثة أو الفكر المعاصر، ليمكنه بهذين الجناحين أن يطير في الفضاء الثقافي، وينجز شيئا ذا بال - كما قلت - سواء في ميدان الأدب والثقافة، أو الفكر الديني والشريعة.

ومن حاولوا مثل هذه المحاولة مستعينين بجناح واحد، خصوصا أولئك الذين لا يحسنون إلا جانب الفكر الغربي أو المعاصر، لم تخط محاولاتهم بالقبول في الساحة الفكرية لأمتنا، حيث لم يحصلوا على اللغة المناسبة.، ولا يعرفون النبض الحساس»، وكانوا - إذا شئنا التبسيط - «خواجات أو أفندية» أكثر منهم مواطنين عاديين. وفي المقابل كان أهل التراث على غير صلة غالبًا، حتى بالفكر السائد محليا في الساحة العامة، فضلًا على الفكر العالمي المعاصر. كانوا مشايخ في مقابل الأفندية، وهذه الثنائية - حسب عرضه - ما تزال تحكم حياتنا الثقافية والفكرية، وتقضي بالفشل على كل المحاولات الأحادية البعد.

أضاف الرجل في حماس ظاهر: لذا صح عزمنا أن نتعاون مع

مؤسستينا التراثيتين؛ الأزهر ودار العلوم، لخدمة لغتنا وثقافتنا، بإتاحة الفرصة للمتميزين من خريجيهما لاستكمال الجانب الآخر. . أملًا في أن نقدم لمجتمعنا ووطننا تلك النوعية من الرجال، القادرة على الإنتاج الفكري الذي يجيب على أسئلة الحاضر، بما لا يخرج على مقاييس التراث الفكري القومي أو روحه، ويضع هذا التراث في موقعه الصحيح من الفكر الفعال، الذي يشكل - أو يمكن أن يسهم في تشكيل - اتجاه الإنسان المعاصر، العربي أولا، وعلى المستوى العالمي بعد ذلك.

كان الرجل متحمسًا لمشروعه - رحمه اللَّه - وكنتُ بعد أن تلقيت أفكار محمود قاسم في الفلسفة، ومحمد غنيمي هلال في الأدب والنقد، وإبراهيم أنيس في اللغويات الحديثة، وعلى حسب اللَّه في أصول الفقه والفكر التشريعي، وضياء الريس في الفكر السياسي، أقربَ إلى روح الرجل وخط تفكيره. . وإن لم تخل رأسي من أنني في الجامعة الأمريكية بالقاهرة، ذات المشروع الحضاري الخاص. . ولكنني أحسست من كل أولئك، أنني إزاء تفكيرٍ لإنسان طموح مخلص لثقافته معتد بها. . غير مغلق دون سواها، كما كان عليه حالي قبل ذلك بنحو عشر سنوات حين كنت أودع المعهد الديني منتقلًا إلى كلية أصول الدين، وسمعتُ كلامًا قريبًا من ذلك المنطق، من الشيخ سيد سابق: أن محمد عبده - وأي أزهري - لم يكن ليستطيع أن يقدم شيئًا جديدًا، إلا بعد خروجه من الدائرة الأزهرية إلى مجال أرحب، أو دائرة أخرى. . فأنكرته ورفضته عندئذ.

لا يعجبَّن القارئُ إذا قلت: إنني حين سمعتُ هذا المنطق من الشيخ سيد سابق، بلحيته وعذبته المرخاة، أوائل الخمسينيات، وأنا فتى

أزهري ناشئ، أنكرته بادئ ذي بدء، ولم أستطع التجاوب معه قط. . رغم ثقتي بالقائل وتقديري له. . ثم جاءت، في الحقيقة، تجربة «دار العلوم»، أكثر تفتُّحًا من تجربة «أصول الدين» لتهيئ ذهني أو مزاجي العقلي، في أوائل الستينات، لتقبل فكر الدكتور النويهي - رحمه اللَّه - تقبلًا إيجابيًّا إلى حد كبير. .

ولقد كنت على استعداد للانخراط في هذه السبيل، ولربما كانت أكثر جدوى مما تهيأ لي فعلا المضي فيه من السبل، لست أدري، وبيد اللَّه نواصي العباد وتوجيه أقدارهم. . لكن الذي حدث فعلًا أنني عُيِّنتُ بعد يوم أو يومين - في قرار واحد لوزير التعليم العالي حينئذٍ - معيدًا بقسم الفلسفة الإسلامية، مع زميلي - الدكتور فيما بعد - علي عشري زايد الذي عين معيدًا لقسم الأدب والنقد والبلاغة بدار العلوم، فتوقفنا عن المضي في مشروع الدكتور النويهي. وإن كان تسلمي العمل قد تأخر فترة، لتاريخي الخاص، حتى تدخل الدكتور عبد الرحمن أيوب - رحمه اللَّه - كما ذكرت في «حكاية» أخرى. .

مضى زملاؤنا - مع حفظ الألقاب - سعد مصلوح، وعبد اللَّه جمال الدين، ومحمود شرف الدين، مع الزميلين: محمود الطناحي وعبد الفتاح الحلو - مع بعض خريجي كلية اللغة العربية بالأزهر - في المشروع شوطًا أو شوطين، يدرسون - بطريقة مكثفة - اللغة الإنجليزية. . ولهم في ذلك طرائف وغرائب؛ فقد كنا متواصلين كزملاء. . لكن الزميلين الأولين لم يلبثا أن عينا في العام نفسه بدار

العلوم، ثم عين الأخيران - رحمهما اللَّه - في معهد المخطوطات بالجامعة العربية. . وكانت هذه ضربة غير مقصودة، أو نيرانًا صديقة - بلغتنا الآن - «للمشروع النويهي» إن جازت التسمية؛ صحيح أن الزملاء جميعا استمروا في دراسة الإنجليزية، ولكن الوجهة اختلفت، وكذا مركز الاهتمام، والهدف النهائي من الدراسة.

لم يبق في الجامعة الأمريكية سَلَما لدراساتها، أعنى متفرغًا لها، إلا رجلان فيما أذكر: أحدهما زميلنا الدكتور محمود شرف الدين والآخر زميله - نسيت الاسم - خريج كلية اللغة العربية، لكنهما، انضما تلقائيًّا إلى هيئة التدريس بالجامعة الأمريكية، ونامت الفكرة المحورية في «المشروع النويهي»، ولا حول ولا قوة إلا باللَّه.

قد يكون لبعض القراء الكرام تحفظ على هذه الأفكار أو بعضها، كما كان لأهل ذياك الزمان، منذ أكثر من نصف قرن، تحفظ على الأستاذ النويهي نفسه، أو المؤسسة التي يعمل بها. . ولكني أشعر الآن، وأنا أسجل هذه الوقائع أو «الحكايات» التي عشتها مع زملائي، أشعر بشيء من الأسى؛ لحبوط مشروع ثقافي طموح كهذا - رغم كل التحفظات.

إن المشروعات الثقافية الكبرى التي تبني الفكر، وتحركه، نادرة لدينا، كثيرة متواصلة متداخلة في الغرب، ونحن هنا نستعير بعض ثمراتها، كالموسوعة الإسلامية مثلًا. ومن هذه النوادر لدينا ما التزم به طه حسين وزميلاه أحمد أمين والعبادي: في الأدب، والتاريخ الفكري، والتاريخ العام على الترتيب، ونهضوا بالمشروع في جدية ومسئولية،

وإن كان زميلاه - كما اعترف طه حسين في بعض كتاباته - كانا أكثر تركيزًا وعناية. والدكتور النويهي الذي أترحّم عليه، وأدعو له من قلبي، كان في نظري طموحًا مخلصًا، وكان - وهو المخضرم الذي عمل بجامعتنا وجامعات الغرب، في إنجلترا على الأخص - متحمسًا مصممًا، ولكن الظروف، التي وصفت طرفا منها في حكايتي، نقضت غزله، وأجلت أمله..

هل أجلته أم أحبطته إلى الأبد، وهل ينطلق بعض رجالنا أو مؤسساتنا، في إقامة مشروع آخر أسعد حظًّا، إن الساحة ما تزال تنادى أمثال هؤلاء.

رحمك اللّه يا دكتور نويهي.. ورحم اللّه تلك الأيام!!



(٣١) الشيخ خربوش

زقاق صغير، ينتهي بمسجد أثري ويحمل اسمه، في حي عابدين بالقاهرة، أهم ما فيه محل الشيخ خربوش، الذي لم يكن مجرد بائع كتب قديمة، بل كان خبيرًا بها، مُحبًّا لها، مستمتعًا بخدمتها، كما كتب عنه بحق الزميل الموفق محمود الطناحي - رحمهما اللَّه. كان درويشًا لا يعبأ بالمال، ولا بالمجاملاتِ المصطنعة، وإذا سمع أن هناك مكتبة غنيَّة، في مصر الجديدة مثلًا، سعى إليها من عابدين ماشيًا، وما أيسر الركوب.. ولكنه يعتبر ذلك تقديرًا للكتاب ولمن اقتناه من العلماء..

عرفته وأفدت منه، وتعلمت من مسلكه، وفزت بنوادر من مقتنياته؛ ومنها: «مجمع الضمانات» في الفقه، وسيرة علي مبارك بقلمه، استخرجها الدكتورالدُّرِّي، وطبعها في «المطبعة الدرية». وحين علمت باعتزام بعض الزملاء نشرهما، أعطيتهم هذه النسخ النادرة، ونُشرت تلك النصوص، ولكن الزميلين ضنًّا عليَّ بمجرَّد الإشارة إلى أني يسَّرت لهما الحصولَ على النصِّ الأصلي!!

لقيتُ في هذا المكان المبارك الكثير من العلماء والكُتَّاب، وفي يوم جمعة، قبل الصلاة، رأيت شيخي الأستاذ محمد الحافظ التيجاني، في زيِّه الأزهري الكامل لأوَّل مرة، وكنت أراه بالعباءة العربية وما يشبه «الغطرة» وكان في صحبة أحد علماء السنغال، جاءا يبحثان عن نصٍّ مالكيٍّ طُبع في القرن التاسع عشر.

وتعرفت على فضيلة الشيخ «عبد الصمد» الذي كان من المحققين البارزين والمشتغلين بالحديث الشريف، والشيخ عبد الوهاب عبد اللطيف، أستاذ الحديث بكليتي الشريعة وأصول الدِّين، وبالشيخ علي جمعة شابًّا مشغولًا بالمعرفة في منتصف الثمانينات، وكنت معارًا لباكستان وكان هو عندئذ، يجمع المادة العلمية لرسالته لدرجة الدكتوراه في أصول الفقه، وردَّني يومها إلى بيتي في سيارته، دون أن أعلم أنه أصلًا من «مدينة طنسا»؛ التي تبعد عن قريتي «بني ماضي» نحو ٣ كيلو مترات، ضمن محافظة بني سويف.. وتعاونا بعد ذلك كثيرًا، كما ذكرتُ في حكايات أُخرى.

تعرَّفتُ أيضًا على «الأخ محمد.. وشقيقه الشيخ شعبان» وكانا يعملان، مع الشيخ خربوش، أثناء طلب العلم: الأستاذ محمد بدار العلوم ثم تخرج فيها بعد لأيٍ، وعمل معلِّمًا للعربية في مدرسة «الجمعية الخيرية الإسلامية» التي أسسها محمد عبده، وعمل فيها حسن البنا، وهي على بعد خطوات من الزقاق ومحل الشيخ خربوش. أما الشيخ شعبان فتخرج من الأزهر واعظًا، ويشارك في المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، شيخًا «مطمطما».. وأَنظرُ إليه وأفرحُ لما حقَّقه بكفاحه الرجولي.

وأما الشيخ إبراهيم خربوش، الذي قام على المكتبة بعد رحيل والده - رحمه اللَّه - فالناس يقسون عليه إذ يقارنونه بالشيخ الأب، ولكن الولد سر أبيه على كل حال.. وقد ورِثَ حُبَّ الكِتاب، وعدم

الاكتراث كثيرًا للكسب المادي.. وحكى لي أحد زملائي الباكستانيين بعد عودته إلى إسلام آباد من رحلة الحج: كنا متحلقين حول الكعبة المشرفة، وإذا بحاج مصري أمامي كبير الجثة، يرفع يديه إلى السماء، ويدعو لأسماء كثيرة، تبينت منها اسم الدكتور حسن الشافعي، فحرَصتُ على التعرف عليه، وعلمت أنه الحاج إبراهيم خربوش من مصر، وأنه يدعو لحسن الشافعي الذي لم يره منذ بضع سنين لغيابه في باكستان، فقلت، لنفسي: إنها لمسة روحية من الشيخ الكبير، والولدُ سِرٌّ أبيه. واللَّه يجزي الجميع عني خير الجزاء!!



(٣٢) في المستشفيات

كان لي شيخ اسمه حسن عبد الغني الصغير، من المنيا، تعلمت منه أمورًا في غير مسائل العلم النظري. كان يقول: «من لم يزر المحاكم أو يتابع أخبارها، ولم يزر المستشفيات مريضًا أو بريئًا، لا يعرف مجتمعه»، وقد علَّمتني تجاربي أن أضيف إلى هذين السجون أيضًا.

كأنما يريد الرجل أن يقول - كما فهمت: إن المرض والجريمة من أهم عوامل التأثير في المجتمع عامة، وفي الإنسان الفرد كذلك. ومن ثَم كنت، في تأمل كلمته، أضيف إليها: ولا يعرف نفسه. وفي الحديث الشريف يروي النبي - صلى اللَّه عليه وسلم - عن ربه، في حديث قدسي: «عبدي: مرضت فلم تعدني [من عيادة المريض أي زيارته]، فيقول العبد: كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ فيقول اللَّه - تعالى: مرض عبدي فلان فلم تعده، ولو عدته لوجدتني عنده». !! وقرأت وأنا سجين حديثا ضعيفا من حيث النقل والرواية، لا المعنى والدراية: «أفضل العبادة انتظار الفرج. .» وأكثر الناس ترقبا للفرج - مهما اشتدت الأهوال - المرضي، والسجناء. . كما تعلمت بالتجربة فيما بعد، بعد أن دخلت المحاكم والسجون، وزرت المستشفيات وترددت عليها بريئًا ومريضًا أيضًا.

كانت أول مرة أدخل المستشفي مريضًا، مستشفى جامعة عين شمس بالعباسية، عام ١٩٥٣، بعد انتهائي من امتحان «الثانوية الأزهرية»

مباشرة؛ لاستئصال «الأعور» كما تسمى الزائدة الدودية المغلقة الطرف - وهذا هو العور أو العمى - ويقول عنها الأطباء إنها بداية الأمعاء الغلاظ. . وكنت أسكن في أول شبرا «شارع السبتية». . وبعد أيام برئت «وكتبوا لي خروجا»، وليس في جيبي إلا قرش واحد. . فحملت بقية ملابسي، وتحاملت على نفسي، وخرجت فعلًا. ومن أمام الكنيسة المرقسية - لم تكن بعد كاتدرائية كبرى، فقد بناها عبد الناصر وبنى فيها أعلى برج في أفريقيا، وافتتحها مع إمبراطور الحبشة «إثيوبيا» هيلا سلاسي فيما بعد - وكان الشارع عندئذ اتجاهين ركبت الأوتوبيس المتجه إلى شارع شبرا، ونزلت في أول محطاته، وسرت «أتعكز» على نفسي وأمسك بيدي اليمني جنبي الذي ما زال جريحًا، وبيُسْراي «اللَّفّة» هدومي، وذقت ضعف المرض حقًّا. والذي لا أنساه في هذه التجربة الباكرة هو الدكتور الشاب نائب القسم - جزاه اللَّه كل خير - أفتح عينيّ أحيانًا لأجده واقفًا فوق رأسي، كأنما ينتظر لا يريد أن يوقظني؛ كان يقدر ظروفي الأزهرية. . وكلما مررت على «مستشفي الدمرداش» أحن إلى تلك الأيام، وإلى ذلك الإنسان.

وكانت الثانية في المستشفي العام لمركز «الواحات الخارجة» فقد كنا بسجن / معتقل، أقرب إلى واحة «باريس»، في طرف الوادي الجديد، جنوب «الخارجة». وحُوّلتُ لهزال عام اشتد بي إلى المستشفي، لم يتخذوا معي أي إجراء سوى «التحاليل»، وقرروا سفري إلى القاهرة؛ لعلاج ضعف التمثيل الغذائي، والواقع أن الغذاء نفسه ضعيف، وانضاف إليه ضعف الاستفادة منه. كنت في السادسة

والعشرين من سني، وقد بلغت الرابعة والثمانين بحمد اللَّه الآن. وقد قصصت في «حكاية أخرى من حكاياتي» طرفا من معايشتي، بعد قدومي من الواحات، للمرض بمستشفى سجن مصر العمومي - فيما بين القلعة وضريح السيدة عائشة «رضي اللَّه عنها»، وقد صار حديقة عامة الآن - مثل قسم عابدين القديم - وكان يعرف بسجن «قرة ميدان»؛ نسبة إلى الاسم القديم لميدان القلعة خلف الرفاعي. وحكيت ما كان من أمر الأستاذ مبروك نافع عميد دار العلوم وولده..

وأذكر عن مستشفي الخارجة أني لقيت ابن «عمدة المدينة»، وكان خريج دار العلوم، فقال لي: إن أهل «الخارجة» يؤدون الصلوات الخمس رجالا ونساء، ولا يعرفون شيئا اسمه «السرقة»، وأن أباه يقضى العام والعامين أحيانًا لا تأتيه شكوى واحدة.. وأن أولى الحوادث الكبيرة كانت من عمال مشروع «الوادي الجديد»، القادمين من الوادي القديم، وجدوا عجلا فذبحوه وأكلوه. «وكلما قرأت عن «الوادي الجديد»، أو تنمية الصعيد، أحن إلى أهلنا في الواحات وأدعو أن تشملهم خطط التنمية حقًّا، مع الحفاظ على طابع المجتمع «الواحاتي» وسماته..

وقلت مثل هذا أخيرًا لإحدى تلميذاتي، تتهيأ للتخرج من «دار العلوم»، ولكن مظهرها كشباب أوربا، العام الحالي، وهي من أهالي «واحة باريس».. ضاحكًا: أنت «جاية من عند برج إيفل أو من عند درب الأربعين؟

ولا أنسى عناية «الدكتور إبراهيم فوزي»، طبيب سجن مصر العمومي

بسجين أزهري، وهو الأخ القبطي، الجراح الماهر، الذي استخراج حصاة من الحالب الأيمن من ذات الموضع الذي كانت فيه فتحة «المصران الأعور»، وقال لي يتندر: محافظة على منظر البطن، فقلت له: أعدك أنني لن أرقص. فانفجر ضاحكًا..

وأذكر من وقائع هذه الرحلة، أني رأيتُ أمي - في مستشفى أحمد ماهر - بعد أربع سنوات في الهرب والسجن. أما أبي - رحمه اللَّه - فقد زارني مرة واحدة في الواحات عام ٥٦، قبل ترحيلي إلى القاهرة، وحكى لي أن مفتش مباحث بني سويف استدعاه لمقابلته، ليجد أحد عمد البلاد المعروفين في مكتبه، جالسًا على البلاط بالمكتب في هوان ظاهر، وأنه سأله أسئلة حسّاسة، فأجاب أبي بما يعتقده بكل صراحة، فخرج معه الرجل يودعه باحترام وتقدير، ثم عاد ليتعامل مع «العمدة المسكين»!

وأذكر أن المكان المخصص لمستشفى سجن مصر، كان شقتين أو جناحين متواجهين، أُخلى أحدهما ليكون مقر إقامة شبه مدنية، يتردد عليه الأقارب في كل وقت، مزودا بكل الأثاث اللازم والأجهزة المنزلية، وذلك من أجل نزلائه «الأميرالاى / العميد» الدمنهوري، الذي اتهم بقيادة انقلاب ضد عبد الناصر، أواسطَ الخمسينيات، وكان من مساعديه الصاغ/ الرائد «أحمد المصري» الذي كان يتجول في السجن ليلًا ونهارًا، ويحمل «عسكري المراسلة» له كرسيًّا، يجلس عليه في فناء السجن عندما يتوقف. وكنا نراه ونحن نتجول للرياضة أو نجلس على الأرصفة، ومما سمعته منه حينذاك، يقول - بعد ذكر أخبار عن الأسرة الحاكمة بالعراق - عام ١٩٦٨: إنهم يمرون بالمرحلة التي مرت بها مصر في أول

الخمسينيات، ولم نلبث أن سمعنا بالانقلاب العسكري هناك بعد أشهر.

آخر تجاربي وأخطرها مع المرض والمستشفيات: أن ابتليت صيف عام ٢٠٠٦ بمرض «الهربتز = الشقيقة»، أصاب العصب السابع الذي يسيطر على الجانب الأيمن من الوجه، بسبب «فيروس» ماكر خطير، كان يتهدد المخ، لولا تيقظ الأطباء بمستشفى الجامعة الملقب «بالفرنساوي»، ضمن مستشفى قصر العيني، التي قضيت بها قرابة ثلاثة أشهر، وخرجت بحال لا بأس بها، قادرًا أن أحكي حكاياتي، وأشارك قومي أفراح التحرير وأتراحه، وأواصل خدمة اللغة العربية بالمجمع، ولطلابي بدار العلوم في الدراسات العليا، ولهواة العلوم الأزهرية العقلية بالرواق العباسي والمغاربي بمسجد الأزهر، لا أدري بنفس الكفاءة أو أقل قليلًا.

نعم فقدتُ أسناني، وإحدى أذنيّ، وأثّر المرض على العين اليمنى، لكن الخطر كان أشد، قال لي الدكتور الجارم عضو المجمع: لقد كانت إصابة مزعجة، وبثرات الجلد تغطى الوجه كله حتى داخل الجفون وعلى حدقة العين. وعلقت الدكتورة رئيسة قسم العيون بالمستشفى عند خروجي: يا عم لا أعرف ماذا أقول لك، لكن «بالبلدي كدا: اللي في الريش بقشيش»؛ فالحمد للّٰه. رآني الدكتور بدر الدين غازي، رئيس نادي أعضاء هيئة التدريس بجامعة القاهرة - رحمه اللّٰه - فلم يتمالك نفسه من البكاء، لكنه تماسك ودعا لي. كانت الدكتورة هدى - رئيسة القسم الباطني - هي الطبيبة ذات العيون الخضراء؛ لأني لم أكن أرى منها إلا

هذا، والدكتور رضا عوضين - شفاه اللَّه مما حلَّ به - وهو أحد خبراء المجمع، يرأس فريق العلاج. والدكتور الصافوري «أستاذ الجلدية» قدَّم لي خدمات لا أنساها، وكذا أساتذة السمع والأذن، جزاهم اللَّه كل خير.. ومن شدة آلام هذا المرض التي تفوق كل وصف: أني كنت أدعو ألا يبتلي اللَّه به أي كائن حي، فضلًا عن إنسان.. ولن أنسى الدكتور يحيى - الذي انتقل إلى مستشفى السرطان - ورعايته الأخوية..

وقد شاركني الإقامة، بالمستشفى حينذاك، زميلان من دار العلوم، أستاذ للتاريخ وآخر للنحو، هما الآن في جوار اللَّه.. وقد كتبت أثناء هذه الأيام قصيدة فقدتها بعد ذلك، مطلعها:

قضّيتُ شهرين في مشفايَ والنيلُ ... سيفٌ يلوحُ على يُمنايَ مصقول

وفيها أشكو اختلال المواعيد بالشفاء:

إذا رأيت فتاة الطب سانحة ... فلا تظنّنّ أن الوعد مبذول

تعطيك لَمْحًا لمعنى لا تترجمه ... فإن ظننت فإن الظن مخذول

يا من بعثت مياه النيل سائلة ... من الجنان، وفي عِطفَيْهِ تهليل

أجب رجاء عُبيد جاء يدفعه ... حب وعجز وتحنان وتأميل

❊ ❊ ❊

(٣٣) في سجون مصر

قضيت نحو ستة أشهر، في ليمان طرة، في «زنزانة» في الدور الثالث من العنبر الثاني، الذي أعلن - فيما بعد - أن السادات، قد هدم بمعول في يده ركنًا منه، رمزًا لعهد جديد مختلف. وكانت ثلاثة أمتار في ثلاثة تقريبًا، تضم -فيما أذكر- الشيخ حسن أيوب، وهو العالم الفاضل والداعية المربي -والرفيق الرابع لكل من الشيخ محمد الغزالي والشيخ سيد سابق والأستاذ خالد محمد خالد- وكان يجمع بين نشاطاته بالجمعية الشرعية وصلته بالإخوان، مثل هؤلاء جميعًا، سوى الأخير، الذي بدا أنه انتقل مباشرة من «الجمعية الشرعية» إلى «الفردية الليبرالية»، وإن كان قد تطور موقفه كثيرًا بعد ذلك، عودًا إلى سيرته الأولى.

وكان فيها السيد عبد العدل الذي كان يُضرب مثلًا «للميت الحي»؛ إذ ضرب كثيرًا على ظهره حتى أصبح قطعة واحدة من اللحم العاري، والسيدان محمد، وأحمد وكانا عاملين أحدهما من أهل المنيرة بالقاهرة في متوسط عمره، والآخر من «بين السرايات» في مقتبل شبابه، وشاب آخر قاهري أيضًا اسمه السيد/ علي عبد الحليم، كان يعمل في «المطبعة بدار الشعب فيما أذكر، والسادس كان كهلًا - من سكان المنيرة أيضًا - يعمل بوزارة التربية ويسمى الأستاذ شقير، من العياط أصلًا. وكنت السابع.

بعد الإجراءات العادية، التي كان منها تسجيل بعض - لا كل - الإصابات الموجودة في أجسامنا، وكنا فوجًا ثانيًا من «محاكمات

الشعب» الهزلية على يد السيد اللواء «حتاته»، الذي أمر حين شعر في كلامنا بنوع من الخروج على الأدب، بإنزالي وآخرين إلى بدروم «المحكمة» أو «المهزلة»؛ «لعلقة» سريعة كالوجبات السريعة، ثم عدنا لاستكمال الجلسة، بعد أن أخذ سعادته بعض الراحة بغرفة «المداولة» - أو لا أدري ما اسمها في هذه المحاكم، التي نسبت إلى الشعب والشعب منها براء. أقمنا أسبوعًا - فيما يُسمَّى بقسم العزل أو التأديب، في زنازين انفرادية. ولا أنسى الأستاذ محمود بسيوني، الصحفي بدار التعاون فيما بعد، الذي كان يتعلق بشراعة الباب العلوية، ويواصل الكلام مع من يقابله من الزنازين، حول التاريخ، والجغرافيا - وكان متخصصًا فيها - ويعرض لأحداث معاصرة حينذاك، ومنها أحوال الولايات الخليجية السبع، التي كانت تابعة لبريطانيا، وهي دولة الإمارات العربية المتحدة الآن.

وبعد العزل الصحي، أو التأديب النفسي، وزعنا على الزنازين الدائمة، في العنبر الثاني كما قلت بالدور الثالث، ولا أذكر رقم الزنزانة. وبعد أيام بدأ تكليفنا بالخروج إلى «الجبل» - لأننا أشغال شاقة، وأكثرنا مؤبدة أيضًا، لإنجاز «مقطوعية» محددة من الحجارة، بصفة منتظمة، فيما بين الساعة العاشرة والثانية بعد الظهر، كل يوم، عدا يوم الجمعة، وكان من أقسى ما في تجربة الجبل رحلة الذهاب والعودة، فقد كان موكب المساجين يسلك طريقًا محددًا معزولًا عن الناس، تحرسه خيول الشرطة وعلى ظهورها الضباط، مزودين بالكرابيج والسلاح، وحوالينا جنود الشرطة، اللذين ينهرون من يلتفت يمينًا أو شمالًا: انظر إلى الأرض

يا «مُذْنِب»، ونظرًا لأن بعض من سبقونا من «المذنبين» الحقيقيين، المعتادي الإجرام، كان قد نجح في الهرب من هذا النظام المحكم، الذي لم يتغير منذ أنشأ الإنجليز «الليمان»، وكانت هذه الخيول «العربية» مطية للضباط الإنجليز، بل كان «التوتر الشرطي» . . على أشده، في رحلة الجبل ذهابًا وعودة.

الليمان مملكة أو عالم على حياله، والجبل عالم آخر أيضًا، وإن كان «الرِّيس» أقوى شخصية في الليمان، يكون من مسجوني قضايا الثأر عادة في الصعيد، وهو الزعيم المقدم، وفي الجبل هو السلطة الوحيدة الحقيقية، فالضباط يأوونَ إلى حيث الظل والراحة، و«المذنبون» في جو معبأ بالغبار شديد الحرارة، وكمٌّ من العمل قاسٍ لا يقوى عليه إلا الأشداء، وأكثرنا كان من أصحاب الأعمال الذهنية، فتم الاتفاق مع «الريس»؛ تقديرًا لظروفنا ومقابلَ مبلغ معين جمعناه: أن نقوم بحمل الحجارة دون تقطيعها، وهي المهمة الأصعب، ونقلها إلى مكان «التشوين»، وعلى نحو رمزي غالبًا.

وكانت معاناة الشمس والحرارة، حيث لا ظل، إلا في جنب كوم من الحجارة، «لا بارد ولا كريم»، أقسى من العمل الروتيني المتكرر، وكذا طابور الذل» الذي لا تسمع فيه إلا : «انظر إلى الأرض يا مذنب»، مع فقر التغذية؛ فقد كان «المَيك» = الطبيخ» غالبًا، عبارة عن «الكرومب» توخذ الشجيرة كما هي من الحقل، وتلقى كلها في «جفنة» على النار كالصهريج؛ وتغلي مع الماء وقليل من المرق، أما اللحم فيذهب إلى الظلمة من الحراس ورؤسائهم، فتجد في «القروانة» سائلًا

ثقيلًا لا تعرف له اسمًا ولا طعمًا، وأكثرنا كان يعافه ثم تحمله الضرورة على تناول شيء منه لحفظ الرمق. وأحسن جانب في تجربة الليمان أني حظيت بزيارة جاءني فيها أحد إخوتي - حسب طلبي، ولم أطلب غيره - طَوالَ سجني - غير «بلوفر» لمواجهة برد الواحات - بنسخة من «صحيح مسلم»، لأقرأه على الشيخ حسن أيوب، فقرأنا مقدمة «النووي» وشيئًا من الجزء الأول، ثم رُحِّلتُ إلى الواحات.

بعد بضعة أشهر تدهورت صحة الكثيرين، وحول أصحاب المواهب والصنائع إلى ورش السجن، ولكن بقى «طابور الجبل» واجبَ الأكثرية، ونصفهم من الجامعيين تقريبا، فلم يحتملوا هذه الحياة القاسية، مع أن الأطباء من بينهم - وأذكر منهم الدكتور حسين عبد الدايم، نجل الشيخ محمود عبد الدائم من شيوخنا أساتذة كلية الشريعة، رئيس لجنة الفتوى بالأزهر، الذي ظل ينهض بهذه المهمة، في مسجد الأزهر الشريف، حتى جاوز عمره المائة عام - يبذلون جهدهم للتخفيف، وينجحون أحيانا في إعفاء البعض من «الجبل» بالتحويل على مستشفي الليمان.

وأذكر أنى حولت يومًا على المستشفي، أواخر سنة ١٩٥٥م، ولقيت فيها الأستاذ سيد قطب مع زميل آخر معه يقيمان بصفة دائمة في المستشفى لمرض صدري - وقد كان ذا رئة واحدة - وكان هادئا بسيطا، لا يذكر إلا الصبر والتحمل.. ولم أسمع منه أي كلام «أيدلوجي»، وقد حكى لي بعض معارفي في لندن، واسمه الدكتور الصلاحي، عمن زاروا الأستاذ سيد قطب في طرة، تلك الأيام، أنه سأله: أنت حقًّا تكفر المسلم إلا إذا أقر بوجوب «تحكيم الشريعة»؟ فنفى ذلك بشدة، ونادى على أحد عتاة المسجونين، وقال له: لو سمعت

يا فلان أحدًا يسب الدين أو يهين الإسلام - ماذا تفعل؟ قال: آخذ فيه «تأبيدة ثانية». . فالتفت الأستاذ سيد - كما روى لي الدكتور الصلاحي في لندن - إلى محدثه، وقال له: أتظن أني أكفِّر مثل هذا الرجل؟!

لكن التدهور الصحي، وقسوة العمل، وسوء المعاملة، دفع هؤلاء الشباب بعد أن غادرنا نحن إلى الواحات، ولم يكن بينهم من كبار السن أو القادة، إلا الأستاذ منير الدلة القاضي السابق بمجلس الدولة، وأذكر أني زرته مرة في زنزانة بالدور الثالث، من العنبر نفسه الذي كنت فيه، وكان يلبس ملابس السجن ولكن بيضاء لا زرقاء. وأشهد أنه كان ينصح بالهدوء وحسن المعاملة للجميع، بمن فيهم الحراس ومن أقواله، وذلك سنة ١٩٥٥: نريد أن يكون المسلم بشوشًا لا عبوسًا، ومجاملًا لا عنيفًا. . وتلك نغمة لم تكن سائدة في ذلك الحين. . ولكن الشباب الذين اشتد عليهم الضغط قرروا أن يُضربوا عن الخروج إلى الجبل، وطالبوا الإدارة بمعاملة أكثر إنسانية، لمسجونين سياسيين. فأبلغت إدارة السجن الموقف إلى وزير الداخلية السيد/ زكريا محيى الدين عام ١٩٥٦، بعد حرب العدوان الثلاثي الذي شنته «إسرائيل»، في مؤامرة سرية مع فرنسا وبريطانيا - وأوقفتهما أمريكا، وتولت هي منذ ذلك الحين التصرف وحدها في شئون الشرق الأوسط.

ولكن السيد زكريا محيى الدين - رحمه اللَّه، وغفر له - لم يقدِّر ظروف شباب مُحبَط، يعاني منذ قرابة ثلاث سنوات، معاملة قاسية، فبدلا من أن يكلف أحدًا بالتفاهم مع المُضربين المحصورين في العنبر رقم ٢، بحيث لو منع عنهم الماء والكهرباء؛ لاستسلموا وتفاهموا - أمرَ سيادتُه

باستخدام الرصاص، فكانت تفتح الزنازين المغلقة؛ ليتلقي من هم فيها رصاصات الجنود فيموت من يموت ويجرح من يجرح، ويجن من يجن من وقع المأساة!! وقد حكى لي ذلك زميلي الشيخ حسن صالح العناني - رحمه اللّه - الذي صار بعد ذلك أستاذا للتفسير بكلية أصول الدين بالقاهرة، وهو شاهد عيان نالته رصاصتان في ساقيه، ظل يعاني منهما، حتى أصابه مرض في الدم أوائل الثمانينيات ومضى إلى جوار ربه.. وذكر لي أنه قتل في هذه المذبحة «اللاضرورية - في أقل تقدير» نحو خمسة وعشرين شابًّا، أكثرهم من خرجي الجامعات، وجرح عدد كبير.. وبعض القتلى - كما ذكر رحمه اللّه، وهناك أحياء الآن شهدوا هذه الوقائع - حملوا جرحى إلى مستشفى السجن، ولكن الجنود المساكين، الذين خاضوا المعركة وشمُّوا رائحة الدم، أصابهم الجنون أيضًا، واستخدموا عصيَّهم للإجهاز على الجرحى العزْل الأبرياء، وهم في الطريق إلى المستشفى للعلاج..

وحملت قوائم الضحايا من أبناء الشعب المصري، أسماء جديدة، بعد من ماتوا تحت التعذيب في السجن الحربي، وأذكر منهم شابا كان مدرسًا ابتدائيًّا يسمى «حسين السيد» من حي «الإمام الشافعي»، ضرب حتى تورم جسمه وتسمم لعدم العلاج، ورأيته، عشية موته، يحاول غسل فانلته الداخلية غيرَ مستطيع، فألقى بجسمه على الحوض، وحمل مع الفانلة إلى «زنزانته» في الدور الأعلى. وكنتُ حينئذ في الدور الأرضي بسجن رقم ٤ بالسجن الحربي، في زنزانة الركن الجنوبي الشرقي، وفي صباح اليوم التالي سُدَّت الفتحات الصغيرة للأبواب

بالقطن؛ لئلا نرى شيئًا، وحملت جثة حسين، الذي قضى نحبه أثناء الليل، إلى خارج أسوار السجن، حيث ووريت التراب، بإشراف حمزة البسيوني نفسه - كما علمنا حينذاك - بعد اختفاء حسين، وتسجيله في دفاتر السجن: «خروج للإفراج عنه».

أما نحن، أصحاب الأحكام الكبيرة مثلي، أو الأسماء الكبيرة من قادة الجماعة، فقد قرروا أواخر عام ٥٥، نقلَنا إلى سجن الواحات الخارجة، الذي نقل إليه قبلنا المحكوم عليهم بأحكام طويلة، وأكثر القياديين في محاكمات الشعب الأولى. . وجاء قطار إلى داخل الليمان، عن طريق «خط المواصلة» الذي يخترق صحراء الإمام الشافعي، من العباسية إلى طرة، ويستخدم غالبًا للأغراض العسكرية، ويتصل بالخطوط الرئيسية، للسكك الحديدية المصرية، شماليَّ القاهرة. وأُمِرْنا بحمل أغراضنا الشخصية وركوب القطار، إلى وجهة لا نعرفها، حتى غادر محطةَ القاهرة في اتجاه الصعيد، فعلمنا حينئذ أننا متجهون إلى الواحات الخارجة. وودعت ليمان طره للمرة الأخيرة، وزملائي الستة في الزنزانة، وفي محطة القاهرة - وكنا طول الطريق نهتف ضد الظلم والظالمين، حتى شقت حناجرنا واحتبست أصواتنا - رأيت الرجل الذي كان يقوم بالتحقيق معي في السجن الحربي، ويأمر بضربي، ثم يقول لي: ادعي للأولاد؛ إنهم يؤدون امتحان الثانوية العامة الآن، وكان يرتدي الملابس الرسمية للبوليس المصري، ويحمل «كتفيه علامات رتبة الأميرالاي = العميد - سامحه اللَّه!!

❃ ❃ ❃

(٣٤) في سجون مصر - مرة أخرى

عرضت «لتجربة الجبل» في ليمان طرة، وتجربة المستشفي» في معتقل الواحات الخارجة، وطرفٍ من تجربة الحياة في «قرة ميدان = سجن مصر العمومي»، «في حكاية: من النسل ما قتل»، وما زال في الجعبة ما يحكى عن هذه الأماكن جميعًا، ولكن هناك أماكن أخرى في مصر زرتها سجينًا أو معتقلًا، لم يعرض لها ذكر، ومنها «قنا»، وسجن المحاريق.

فأما قنا فقد زرتها مرتين: كانت الأولى أثناء عام ١٩٥٨؛ عقوبةً لي ولزميلي الأستاذ فتحي البوز المحامي؛ لأننا حين رُحِّلنا من الواحات إلى القاهرة للعلاج، قمنا؛ لدافع إنساني بحت، بلقاء بعض الإخوان في المعسكر القديم، بعد أن غادرناه، لأجل ما وقع من خلاف لأسباب متنوعة فكرية وسياسية. فقررت السلطات - بعد الوحدة السورية المصرية - الإفراج عن زملائنا «المنشقين» جميعًا، إلا أنا والأستاذ فتحي للسبب الذي ذكرت. . ورُحِّلنا من القاهرة إلى سجن قنا الشديد المعاملة، وإن كنا لم نذق فيه إلا «السجنَ الانفرادي» قرابة ستة أشهر - مع التريض ساعة واحدة يوميًا - ولا نأكل إلا شظف الطعام الرسمي للسجن.

ولكنني كنت أشاهد أحيانًا السيد مدير السجن - الصاغ محمد فريد شنيشن، وكان معروفًا بقسوته - حين مروره على الزنازين المجاورة، يأمر من لا يرضى عنه من النزلاء، أن يرفع الوعاء الخاص بقضاء الحاجة ليلًا في الزنزانة، ويلبسه كغطاء للرأس، حتى تغطى الفضلات

كل بدنه وملابسه، وربما أضاف إلى ذلك عقوبات أخرى.. كانت فترة التفرغ بالزنزانة طويلة مع الوحدة، التي لا أنيس فيها في الحقيقة إلا شيء واحد، هو المصحف الشريف، فاستعدت حفظ القرآن الكريم في هذه المدة، بعد أن كاد يتفلت من الذاكرة في السنوات السابقة. وكنت أتلقى من والدي خطابات تشجيعية منتظمة، بعد أن كنت أسعد بزياراته في القاهرة.

ويشاء اللّه - تعالى - أن أعود إلى قنا مرة أخرى، لا إلى سجن قنا العمومي الذي وصفت بعض شأنه، ولكن إلى معتقل قنا، في خارج المدينة، وهو معسكر قديم، رُحِّلت إليه من سجن القلعة الذي أنشأه محمد على تحت الأرض - كالبدروم - مع آخرين ممن جمعوا بأمر أصدره جمال عبد الناصر - خلال أزمة محاكمة الأستاذ سيد قطب، وما نسب إليه من تنظيم، عام ١٩٦٥- باعتقال كل مصري سبق اعتقاله من قبل، ولو في عهود ما قبل الثورة، وأشار إلى ذلك في زيارة له إلى «موسكو» حينئذ، وأنه جمع من «هؤلاء» ثمانية عشر ألفًا في ليلة واحدة، كأنه فخْرٌ للدولة المصرية. وأذكر تلك الليلة، حين جاء ضابط يشهر مسدَّسه مع خمسة من الجنود بأسلحتهم مشرعة في منتصف الليل، إلى شقتي في شارع الفلكي - عماره ١٣ - بجوار دار العلوم، يوجهون أسلحتهم نحوي ومن معي من الأشقاء حينئذ، ونحو زميلي الأستاذ علي عشري المعيد بدار العلوم. ثم أخذوني لأقضى عامين ونصف العام، بلا سبب على الإطلاق، ولا سؤال أو تحقيق طوال هذه المدة. وقضيت ليلة لا أنساها بقسم عابدين، حيث سلاسل البقّ متصلة من السقف على

المحجوزين المساكين، في قضايا أو تهم جنائية، لا يجد بعضهم مكانًا لا يزاحمه فيه جيران، إلا مراحيض الغرفة بعد غلق فتحتها. وفي الصباح الباكر أشفق الضابط «النوبتجي» على حالي - ولم أنم قط - فأخذني إلى مكتبه، لأنام قليلًا جالسًا على كرسي، حتى جاء ضباط المباحث العامة، فأخذوني إلى سجن القلعة، وبعد فترة أفرج عمن تزيد سنه عن الستين، وأرسل الباقون إلى معتقل قنا الذي وصفت.

يحضرني من ذكريات سجن القلعة: الطيار أحمد شداد - من الشرقية، الذي ذكر لي أنه جرب في حياته عديدًا من أنواع الانحراف، حتى قدَّر اللَّه له التوبة والزواج، فشك فيه البعض لتدينه المفاجئ، ولكنه أفرج عنه قبل ترحيلي إلى قنا، وقد قرأتُ بعد ذلك بسنين في الصحف، أنه سقطت به طائرة مصرية في ماليزيا، احترقت كل محتوياتها - ومضى هو شهيدًا - إلا شيء واحد لم يحترق هو المصحف الشريف. وقد قضيت نحو سبعة أشهر في معتقل قنا، ومعي طائفة ممن أعرف: الأستاذ. الدكتور فيما بعد عبد الصبور شاهين، والأستاذ محمود الشربيني المحامي، والأستاذ صلاح حمودة المحاسب زميلي في الواحات، مع كثيرين من زملاء الواحات.

ثم رحلنا من قنا إلى معتقل مزرعة طره، وكنا ننام فيها على الأبراش كالمساجين، وحين اعتقل عبد الناصر «البهائيين المصريين» بعد نكسة ١٩٦٧، جيء بهم إلى «مزرعة طرة» ليناموا على أسرة، ويعاملوا معاملة مختلفة؛ لصلتهم بالمؤسسات الحقوقية في الخارج، ولا عزاء للآخرين.

وفي المزرعة لقيت الدكتور محمد رشاد سالم، وأخذت عنه أكثر قواعد تحقيق النصوص، كما ذكرت في سياق آخر، وقد اختاره الدكتور قاسم وهو في المعتقل، أستاذا بدار العلوم، ولكنه آثر البقاء في قسم الفلسفة بكلية البنات بعين شمس بعد الإفراج عنه، فكان الدكتور قاسم يقول لي: أين صديقك؟!.

بقي أن أقول: إني رحلت عام ١٩٥٩ م من سجن قنا إلى سجن الواحات، بعد تصفية سجن (أو معسكر) الواحات قرب باريس، وتجميع من فيه بسجن المحاريق التاريخي الذي وضع فيه الإنجليز بعض رجال ثورة ١٩١٩، وكان يضم بعض المساجين العاديين، وعنبرًا ثالثًا للمعتقلين الشيوعيين، كان منهم بعض الفنانين الذين يمارسون الرسم ويصنعون الخزف، حتى غضب عليهم عبد الناصر بعد أزمته مع خروشوف ١٩٥٩، فضربوا ضربًا مبرحًا، وقتل منهم الأستاذ لمعي تحت التعذيب بالكرابيج وجريد النخل، وجرح الكثيرون.

وقد قضيت في المحاريق قرابة عام رحلت في ختامه إلى القاهرة، بعد أن قضيت شهر رمضان أؤم زملاء الغرفة في التراويح، وأخطب الجمعة للمساجين العاديين في عنبرهم، وكان منهم من محافظة بني سويف من يعرفونني ويصرون على غسل ملابسي، وكنت أعاملهم كإخوة جمعنا البلاء.

وقد قضيت في سجن القاهرة، الذي عشت فيه نحو عامين، كما حكيت من قبل، أناجي السيدة عائشة - رضي اللّه عنها - وكان معي

أثناءهما، الأستاذ محمود عبده المربي الفاضل، والمهندس مجدي زهدي نجل القاضي رئيس استئناف القاهرة، والمهندسان بمصلحة المساحة علي وزميله الجريسي من زملاء الواحات، وكان من أغرب ما تلقيت من زوَّارٍ عندئذ، أحد زملاء المعهد وهو الأستاذ حسن سبتان - رحمه اللَّه - جاري في شبرا، الذي أعتز به وبولده الوفيِّ كأبيه، رئيس قسم التفسير بأصول الدين القاهرة الآن، وبعد أيام من وصولي القاهرة، خرجت مفرجًا عني صحيًّا نهاية عام ١٩٦٩م، لأستأنف الحياة، بدءًا من أول الستينيات. والحمد للَّه رب العالمين.



(٣٥) ترد المبلغ الذي أخذته

أردتُ إنجازَ القِرانَ، بعد فترة خطبة حافلة، وبعد التفاهم مع الأصهار على كل شيء، فذهبتُ مع خطيبتي إلى رجل عرفتُه في «معتقل قنا»، وهو أحد الأسماء القيادية البارزة حينذاك، الأستاذ محمود الشربيني المحامي، بشارع «عبد السلام عارف» الذي أرسلني إلى صديق له، من المحامين الشرعيين أصلًا، هو الأستاذ محمود الذكر، فقال لي: اذهب وسأرسل إليك بالعنوان -عنوان صهري- غدًا «مأذونًا شرعيًّا»، يقوم بكل شيء، ودع عنك أمره، فأنا أحاسبه، ونتفاهم فيما بعد.

لم تكن المشكلة أجر المأذون، فقد ذهبت فترةُ الخطوبة ومصروفاتها غيرُ المنظورة بالمخزون، وذهبت إلى أخي «الدكتور علي عشري» وحكيت له الحال، فقال: عال، ولا يهمك. وتولى هو الاتصال بوالدي - رحمه اللَّه - ليحضر في مساء الغد، لحضور العقد، ووجهتُ الدعوة إلى أستاذي الدكتور محمود قاسم عميد الكلية لشهود عقد القِران، وأصبح اليوم التالي وليس في جيبي المبلغ المطلوب كمقدم صداق. . . وكان الدكتور عشري قد استطاع الحصول على زميلنا الوحيد، الذي يمكن أن يوفر المطلوب، وهو الدكتور محمود شرف الدين، الذي، كان قد عُيِّنَ «معيدًا» بالجامعة الأمريكية، ويتابع ظروفي منذ خرجت من المعتقل قبل أشهر، وذهبت إليه ظهر اليوم في الجامعة. . فقال - في مروءة لا أنساها: إن لدي واجبات هنا في الجامعة لا يسعني التخلف عنها، وخذ هذا مفتاح الشقة، رقم كذا

بشارع يوسف الصديق بشبرا، وهذا مفتاح المكتب، اذهب وستجد في الدرج الثاني ما تريد، خذ المبلغ، وردَّ إليَّ المفاتيح. كانت الشقة مقر إقامته هو وشقيقه الأصغر، مع أخيهما الذي نهض بتربيتهما - رحمه اللَّه - أستاذنا الدكتور عبد العظيم شرف الدين الأستاذ المساعد بقسم الشريعة بدار العلوم، المعار إلى السعودية، بجامعة أم القرى حينذاك.

وكنت خبيرًا بشبرا؛ أحيائها وشوارعها وأزقتها منذ الخمسينيات، فذهبت إلى شارع يوسف الصديق، وصعدت سلم العمارة إلى الدور الثالث، إلى الشمال، فأخرجت مفتاح الشقة، كأني أحد السكان، ودخلت وأنا الغريب إلى ردهتها، ومنها ولجتُ إلى غرفة المكتب، فأدخلت المفتاح في قفل «الدرج» فانفتح عن. . «رزم» من العملات النقدية المصرية، وبمختلف القيم، من الجنيه إلى العشرة إلى المائة. . كان المنظر غريبًا بالنسبة لي. . ولكن ما زاغ البصر وما طغى، وأخذت المائتي جنيه فقط، وأعدت الدرج مُغلقًا كما كان، ووضعتُ المبلغ في جيبي، والمفاتيح في الجيب الآخر، وفي أقل من ساعتين، عدتُ إلى الدكتور محمود في «الأمريكية» وأسلمته المفاتيح شاكرًا، وتسلَّمها مبتسمًا هادئًا داعيًا لي بالتمام على خير. وتركته إلى بيتي، حيث أشرف الدكتور «عشري» على استعدادي وتهيئتي لحفل القران، في بيت أصهاري أول شارع ضريح سعد، على بعد دقائق مشيًا، وكانت شقة الفلكي قد أُعدت من قبل، واقتصر الحفل على الأبوين، وأستاذي الدكتور قاسم - رحمه اللَّه - وأشقاء العروس.

وتمَّ كلُّ شيءٍ على ما يُرام. . وعدت عَبْرَ «المصوراتي»، إلى شقتي ومعي زوجتي، وذهب «الدكتور» علي عشري ليقيم - كما كان منذ ستة أعوام - مع شقيقته في شبرا.

بعد أسابيع عاد الدكتور عبد العظيم شرف من الإعارة، وعلم بأمر المبلغ، وإن لم يعلم بطريقة الحصول عليه والحمد للّه، وطلب مني أن أصحبه عند مغادرته الكلية عائدًا إلى بيته، وسلكنا معًا شارع المبتديان، لنميل مع الفلكي، وأشار سيادته إلى الشقة في الدور السادس من العمارة رقم «١٣»، بلغني أنك تسكن هنا، فقلتُ: نعم والحمد للّه؛ فقال: أرجو ردَّ المبلغ الذي أخذته من «محمود». فقلت: حاضر. . وهيَّأ اللّهُ رده بفضله. وتلك حكاية أخرى.



(٣٦) الشيخ المجاهد محمد الخضر حسين

نزل مصر منذ الربع الأول من القرن العشرين، مهاجرًا بعد احتداد الحركة الوطنية التونسية ضد الفرنسيين، الذين حكموا عليه غيابيًّا بالإعدام، كان زميلًا للشيخ الطاهر ابن عاشور مفسر القرآن الكريم.. وكان بينهما تزاور وصِلاتٌ، وخاصة في مواسم الحج.

جاء مصر عالمًا متمكنًا، ومع ذلك حرص على أن يتواضع مع علمائها، ولم يجد غضاضة في أن يتقدم لنيل درجة «العالمية» من الأزهر، ونالها بطبيعة الحال.

ولغيرته ومواهبه ظهرت شخصيته العلمية والعملية في بيئته الجديدة، وأنشأ جمعية «مكارم الأخلاق» ومجلتها المعبرة عن فكرها، بجانب كتاباته بمجلة الأزهر وغيرها. وشارك في تأسيس جماعة الشبان المسلمين، واتصل به وعمل معه نفرٌ من رجال الفكر والإصلاح، منهم الأستاذ الوطني الكبير فتحي رضوان، والأستاذ محمود محمود شقيق الدكتور زكي نجيب محمود، أستاذ اللغة الإنجليزية بدار العلوم وغيرهم كثير:

ولم يمنعه أنه مهاجر إلى غير الموطن، أن ينتقد في كتاب ماتع، كتاب الدكتور طه حسين الذي أصدره في منتصف العشرينيات، عن «الشعر الجاهلي» وفيه مسائل علمية خلافية، وفيها مساسٌ أيضًا بجانب الوحي في القرآن الكريم، إذ ينسب إلى النبي - صلى اللّه عليه وسلم - أنه كان يبغي التقرب إلى أهل الكتاب، فيتحدث القرآن عن وحدة الدِّين

والوحي.. إلى آخر ما هو معلوم.. وقد لخصه وناقشه فيما بعد - الدكتور محمد البهي - رحمه اللَّه - في «كتابه: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي»، وراجع الدكتور طه حسين نفسه كتابه، وأصدره من جديد خاليًا من تلك الأفكار الملتبسة.

والمهم أن كتاب شيخنا «نقض كتاب: في الشعر الجاهلي» كان من أقوى الردود العلمية والموضوعية على هذا الجانب من فكر طه حسين، في موكب الكثير من الردود التي صدرت حينذاك.

عرف الشيخ باستقامته و غيرته الإسلامية، وواصل كفاحه في وطنه الجديد.. وعندما قامت في مصر، أوائلَ الخمسينيات، ثورة ٢٣ يوليه ١٩٥٢؛ اختارته أول شيخ للأزهر في عهد الثورة، وكان ذلك بجهد من الأستاذ فتحي رضوان الذي يعرفه جيدًا.

وقد حكيت في سياق سابق كيف صرَّح لنا -ونحن طلبه بالمرحلة الثانوية الأزهرية- باستعمال مبنى قاعة الإمام محمد عبده، في الاحتفال بذكرى ميلاد النبي -صلى اللَّه عليه وسلم- وكيف فاجأنا بحضور الحفل، ومحاولة الإسهام في مصروفاته، كدأبه في المشاركة بنفسه وماله في الأنشطة الطلابية الأدبية والدينية..

وسجَّل له التاريخ أنه ساند مطالب العلماء الأزهريين، وقال قولته: «لا يُنتقَصُ الأزهرُ وأنا حيٌّ»، وشفع ذلك باستقالته -رحمه الله- عالمًا غيورًا مجاهدًا في سبيل الدِّين والوطن الإسلامي.

(٣٧) الشيخ الشعرواي

كنت خارج مصر في الفترة التي لمع فيها نجم الشيخ الشعراوي، في أعقاب حرب أكتوبر ٧٣. وأوَّل لحظة أسمع فيها عن الشيخ كانت حين جاء أخي وزميلي الدكتور أحمد عبد العظيم إلى مدينة لندن، مبعوثًا من دار العلوم لدراسة النحو المقارن واللغويات الحديثة، ونزل ضيفًا عليَّ في شمال لندن لأيام، حاولت فيها أن أقنعه بالبقاء فيها، بل حصلتُ له على مقعد في الكلية التي أدرس بها، ولكنه شدَّ رِحاله، بزوجه وولديه التوأم، إلى شمال إنجلترا؛ ليدرس مع البروفيسور ميتشيل في جامعة ليدز. وكان مما قاله لي: لقد ظهر بمصر داعية جديد، يخلبُ ألباب سامعيه، ومشاهديه في وسائل الإعلام.. وقد ملأ الدنيا وشغل الناس، اسمه الشيخ الشعراوي.

ثم زرت شيخي الإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود الذي جاء من القاهرة في عام ١٩٧٥؛ ليفتتح مع الملكة إليزابيث مهرجان العالم الإسلامي، في الفندق الذي نزل به، وجاء رجل نحيف الجسم خفيف اللحية، يلبس «البدلة» الأوروبية، عاري الرأس، وهو إلى الكهولة أقرب منه إلى الشيخوخة، ويدخن أحيانًا.. ولم أشعر أن هذا هو الشيخ الشعراوي، وزير الأوقاف المصري، الذي أدهش الجميع وخلب ألبابهم، إلا عندما طلب إليه فضيلة الإمام أن يقول شيئًا في ختام اللقاء.. وكان أن أبدى الرجل «العادي» كما ظهر لي يومها، أفكارًا ثاقبة غير عادية. وسألت فقيل لي: إنه الشيخ الشعراوي.

وتكرر المشهد حينما تكلم في الملتقى العام بإحدى القاعات

الكبرى، بعد الأمير محمد الفيصل الذي افتتح الحديث، بالإنجليزية، في رصانة وقوة، ثم تكلم الشيخ بالعربية. . وكان إلى جواري الدكتور سيد الدرش، الرجل الثاني في المركز الثقافي الإسلامي بلندن، وقال لي - وهو من تلاميذه -: إن الشيخ كان شاعرًا أديبًا، وقد سألناه عن شعره، فقال مقالة لبيد - رضي اللَّه عنه: أبدلني اللَّه خيرًا منه، إذ إنه بعد سنين قضاها في الجزائر، وتواصل مع بعض شيوخ الصوفية هناك، نذر نفسه للقرآن الكريم، وبلغ في ذلك شأوًا رفيعًا، وقدَّم خِطابًا فكريًّا - بذوق بلاغي - جديد أيضًا. ويتجلى وجه العبقرية في هذا العرض القرآني الفريد، فيما منحه اللَّه -تعالى- للشيخ من مقدرة فائقة على التبسيط، وتقريب اللمحات الروحية، والنكات البلاغية، إلى أقل الناس ثقافة من مريديه. . إلى جانب المتابعين المثقفين من تلاميذه، وما أفاضه عليه من قدرة على ربط المتعلمين والعوام - من رجال ونساء - بالقرآن الكريم، وتذوق تجليات الإعجاز في النص المقدس. .

إنه يختلف عن الشيخ الغزالي الذي يخاطب الجماهير أحيانًا. . ولكنه يُفهم من النُّخبة أكثر، إنه مفكر أكثر منه معلِّمًا. . بخلاف الشيخ الشعراوي الذي عاش معلِّمًا في الأروقة الأزهرية -بطنطا والزقازيق- وإذا به ينتقل معلِّمًا - بذات الدرجة من النجاح- للجماهير المصرية كلها. . ومنذ خلا موقع الشيخ الشعراوي، وبعده الشيخ الغزالي. . لم يظهر بعدُ مَن يقوم مقامهما. . ويقدم من الزاد الفكري والروحي ما اعتادت الجماهير المصرية والعربية أن تسمعه منهما، وتقرؤه لهما - تغمدها اللَّه برحمته.

تابعت الشيخ وجهوده بعد عودتي من لندن، وسعدت بزيارته في منزله بصحبة أحد مريديه من تلاميذي، بل نَعِمتُ بكَرِمه وسخائه في مطعم «أبي

شقرة» في القصر العيني. . وكان مما علمت من أصول البراعة الجماهيرية والحضور الطاغي. . أن الشيخ كان في شبيبته الأزهرية، وبعد تخرجه، زعيمًا للشباب الوفدي، مُقرَّبًا جِدًّا من الزعيم مصطفى النحاس، وكان يتبادل هذا الموقع مع شيخ آخر متميز أديب أريب أيضًا، هو شيخنا الدكتور محمد كامل الفقي، صاحب الدراسات عن «أثر الأزهريين في الأدباء المعاصرين»، الذي تولى عمادة كلية اللغة العربية بالقاهرة فيما بعد. وقد سعدت بالتتلمذ للشيخ الفقي - رحمه اللَّه - في المرحلة الابتدائية بمعهد القاهرة الديني.

سمعت أنه رشح لمشيخة الأزهر، وشاء اللَّه -تعالى- أن يبدله خيرًا من ذاك كله، وكان يقدِّر هذه النعمة الإلهية، بالارتباط بالقرآن الكريم، وحرص - في مسلكه ومظهره - أن يبتعد عن كل منصب؛ اعتزازًا بهذا المقام القرآني الرفيع.

ومما لا يعلمه الكثيرون أن الشيخ الشعراوي تبرع للعديد من المؤسسات المصرية والأزهرية، ومن ذلك أنه خصَّص جائزة سنوية، يمنحها مجمع اللغة العربية بالقاهرة -الذي كان عضوًا فيه- لمن يقدِّم بحثًا متفوِّقًا يدور حول لغة القرآن الكريم، وهي إحدى الجوائز التي يقدمها المجمع: في الأدب العربي، وفي إحياء التراث، وفي البحث اللغوي، ثم في القرآن الكريم. وما تزال «جائزة الشعراوي» تؤدِّي دورها في دعم الدراسات القرآنية، وآخر موضوعاتها، التي فاز فيها ثلاثة من الباحثين، كان عن (المجاز في القرآن الكريم).

رحم اللَّه الشيخ الشعراوي، وأخلف منه خيرًا، وهيأ لمصر مَن يواصل ربط جماهيرها بالإعجاز المتنوع للقرآن الكريم.

(٣٨) مع المعلمين والشيوخ

ربما لأنني «معلم»، وكان لي إخوة ثلاثة يشتغلون بالتعليم، وأبي - رحمه اللَّه - كان معلِّمًا، فإنه يلفت نظري، ويثير إعجابي، أن أتابع «الأداء التعليمي» المتميز، لمن أتصل بهم من الأساتذة والشيوخ.

وقد وجدتُ -كما وجد غيري- أن بعض كبار الأساتذة، في المستوى الجامعي، يجيد التأليف والإبداع الفكري، وقد يكون في المحاضرة والإلقاء الشفوي عاديًّا بل متواضعًا أحيانًا، وأن البعض منهم يبرع في المحاضرة والإلقاء، ويتمتع بحضور متميز أمام الجمهور، وحظه من الإبداع الفكري وجودة التأليف محدود. وقلَّ من رزقه اللَّه البراعة في الجانبين.

وليعذرني القارئ الكريم إذا لم أحدد أسماءً في هذا الصدد، لأنني أستحي أن أذكر بعض شيوخي ناقدًا، وحقهم عليَّ الشكر والامتنان.

غير أن الأساتذة الذين - يجمعون بين براعة التأليف والإبداع الفكري، وقوة الحضور الشخصي وجودة الإلقاء والتواصل المباشر مع جمهور المتلقين، هم في العادة أقل عددًا -كما قلتُ- من الفئتين السابقتين. ولكني -بحمد اللَّه- قد صادفتُ، في حياتي الطلابية والعلمية، عددًا غير قليل، من هؤلاء الأساتذة المتميزين في المجالين:

وأذكر منهم أستاذي الدكتور محمود قاسم -الذي تكرر اسمه بطبيعة الحال في هذه الحكايات: فقد كان في محاضراته يتميز بضبط وانضباط

كاملين، بحيث لا يملك سامعوه إلا المتابعة الدائمة له، كأنه يلحظ كل واحد منهم، حتى يفرغ من محاضرته، في لغة عربية نقية، لا يستكثر فيها من المصطلحات، ولا يكاد يذكر مصطلحًا أجنبيًّا إلا لضرورة، يعينه على ذلك تمكن في موضوعه، وثقة بنفسه، وجدية ظاهرة في أداء عمله. فإذا ما خلوت إلى كتبه، أو قرأت بعض إنتاجه، وجدتَ المستوى ذاته، والخصائص نفسها، فهو مؤلِّفًا لا يقل عنه محاضرًا ومعلِّمًا.

ومثله: الدكتور العميد إبراهيم أنيس، فقد أكسبته الموهبة وطول الممارسة، قدرةً فائقةً على الأداء في المدرجات والملتقيات العامة، لا تقل عن براعته وتفوقه في مؤلفاته النوعية في علم اللغة الحديث، مع دقة وسلامة لغة في الحالين، وكفاءة رائعة.

ومثلهما: أستاذي الشيخ علي حسب اللَّه: فمن يقرأ مؤلفاته، وخاصة كتابه «أصول التشريع الإسلامي» يجد نموذجًا متميزًا في الكتابة في علم «أصول الفقه». ومن يستمع إليه محاضرًا فإنه يستوعب تسهيله حقائق هذا العلم الدقيقة. وأذكر أني تلقيت عليه هذا العلم فانطبعت حقائقه في ذهني، وكنتُ أتجرأ على شرحها لغيري ممن يطلب ذلك، وأذكر أيضًا أنه قال لي -عندما علم بتعييني معيدًا في قسم الفلسفة-: اذهب إلى أي قسم شئت فأنت معنا في قسم الشريعة.

وقد كان الأستاذ الدكتور عبد الرحمن أيوب ممتازًا في مجال التأليف والمحاضرة، يحب موضوعه ويتعمق مباحثه، وإن كان يحتاج إلى من يتفهم أسلوبه ويتجاوب معه، فقد كانت له شخصيته العلمية المتميزة بالذكاء الحاد

اللماح ودقة النظر، ويظهر ذلك أيضًا في مؤلفاته التي تجمع بين الترجمة والإبداع في وقت معًا. وقد راقَه منِّي في امتحان مادة «علم اللغة» بالسنة الثانية، أن أُحسن فهم أسلوبه في رسم الأجهزة الصوتية، وإتقان اللغة الرمزية للكتابة اللغوية. . وقلما يُعنى بها «الدرعميون»، فمنحني الدرجة القصوى التي لا يكاد يحصل عليها إلا القلة النادرة. وكان له معي «حكاية» أخرى بشأن التعيين في الكلية، ربما كانت نتيجة لتلك الصلة العلمية القديمة في الفرقة الثانية، ستأتي بإذن اللَّه.

ولو ذهبت أُعدِّد من سعدتُ بهم، واستمتعتُ حقًّا بالتتلمذ لهم مستمعًا وقارئًا لامتدَّ بي حَبلُ الحديث، بما لا يسمح به المقام في هذه «الحكاية»، ولكني لا أستطيع إلا أن أذكر الأستاذين الدكتور محمد ضياء الدين الريس: صاحب المؤلفات البارعة في التاريخ والفكر السياسي الإسلامي، والمحاضر البارع في الوقت نفسه، وكذا الدكتور محمد غنيمي هلال صاحب الأعمال الكثيرة في الأدب المقارن، التي تمثل نقلة نوعية في تاريخ التأليف الأدبي في هذا المجال، وكان - رحمه اللَّه - في محاضرته مخلِصًا غاية الإخلاص، صبورًا على طلَّابه، حريصًا على شرح نظريات هذا العلم بالأمثلة الكثيرة من تراثنا العربي الذي يستوعبه على نحوٍ عميقٍ، ومن الفكر الغربي الذي عاشه في «السربون»، وتمكن من أطواره وأعلامه، في مجالات الأدب والفلسفة والنقد جميعًا، مع المعرفة الدقيقة بلغات شرقية وغربية متعددة. وإن كان هذا الأستاذان الأخيران أكثر تفوقًا في التأليف عنهما في المحاضرة

والإلقاء؛ وذلك لسمات خاصة مختلفة في شخصية كل منهما، لا تغضُّ من مكانة أي منهما أستاذًا كبيرًا متميزًا بكل المقاييس.

ولقد ذكرت في حكايات سابقة شيوخًا لي في مرحلة الدراسة الثانوية الأزهرية؛ وأحب أن أذكر في هذا المقام شيخي في علم النحو الشيخ أشهب القاضي؛ فلم أرَ مثله في الإخلاص في الأداء والتجاوب مع طلابه، مع حفظ المسافة الواجبة، وتحريك هممهم ومواهبهم. وقد حدث أنه طلب - كما لعلي ذكرت من قبل- من «مشيخة المعهد» أنْ تنقله مع «دفعتنا»، سنةً بعد أخرى، من أول السنة الأولى الثانوية إلى ختام هذه المرحلة، خمس سنوات متتابعة، بحيث إنني دون ادعاء لم أكن أراجع كتب النحو في دار العلوم، إلَّا قبيل الامتحانات لتذكر الشواهد والتفاصيل.. والفضل - بعد اللَّه تعالى - للشيخ أشهب القاضي. وقد كان له زميلان لا يفارقانه، وهما يماثلانه إخلاصًا وتمكُّنًا، هما الدكتور منصور الشيخ، والشيخ محمد (ومن أسف لا أذكر اسمه الثاني الآن)، والثلاثة من خيرة الشيوخ الذين تأثرت بهم، إعجابًا بخصالهم النادرة.

أما الشيخ عبد الحليم محمود فقد حضرت محاضراته بأصول الدين قبل التحاقي بها، ثم اقتربت منه كثيرًا بعد خروجي من السجن، وعودتي إلى أصول الدين، «التي التحقت بها من اقتناع كامل، وآثرتها على دار العلوم التي شرحت ظروف التحاقي بها، خلال فترة الاختفاء بالقاهرة، ويرجع ذلك إلى إعجابي بأحد خِرِّيجها، وهو أستاذي الشيخ «الدكتور فيما

بعد» علي عبد المنعم عبد الحميد - الذي أهديته أول مؤلفاتي في علم الكلام: «المدخل إلى دراسة علم الكلام» وكان لشخصيته وتمكنه من علم المنطق وأخلاقه المنيفة، وسماته الجذابة، الأثر البالغ في اتجاهي إلى تلك الكلية، وإلى تخصصي في «علم الكلام» والفلسفة الإسلامية.

لكن ما بدأتُ به هذه «الحكاية» من شئون المهنة والأداء التعليمي، يتمثل في إعجابي البالغ بأستاذين درَّسا لي تدريسًا عمليًّا داخل حجرة الدارسة، كان أحدهما في مادة النحو «بكلية دار العلوم»، والآخر - أو الأخرى - أستاذة «اللغة الإنجليزية» في لندن، وقد كانت مديرة المدرسة في الوقت نفسه: فما زلت -علم الله- وقد تجاوزت الثمانين، عملت منها نصف قرن معلِّمًا، أتمنى وأدعو اللَّه أن أكون مثل الأستاذ علي النجدي صالح والأستاذة الإنجليزية: انضباطًا وبراعة مذهلة في التحرك بين منصة الأستاذية وسبورة الشرح، وجمال الخط والصوت، ودقة التمثيل، والقدرة غير العادية على الإفهام والشرح.. أداء رائع ممتع واضح داخل غرفة الدرس، وضبط لحجم العمل مع مقدار الوقت، وإتاحة الفرصة للمناقشة، وتشجيع الدارسين المتفوقين وغيرهم. إنها مقدرة لا تتوافر إلا مع موهبة خاصة، فيمن يُسمَّى: «المعلمَ الطبيعي» كأنه وُلِدَ معلِّمًا، مع الخبرة المصقولة، والخطوة الواثقة، والإشارة الذكية.. شيء - ما شاء اللَّه! - لا يمكن وصفه، وإلى حكاية أخرى.

❀ ❀ ❀

(٣٩) الشيخ صالح محمد النور

كان الشيخ صالح طالبًا في التعليم الابتدائي بمعهد القاهرة الديني، عندما دخلتُ السجن في منتصف الخمسينيات من القرن الماضي. وكان والده - رحمه اللَّه - جارًا لأحد أقاربنا التجار في أول «شارع الجيش» من جهة ميدان العتبة الخضراء، فتعرف به أخي الأستاذ علي الشافعي الذي كان يعمل في مدرسة مجاورة، وكان يبلغني تحيات الشيخ صالح.

وعندما خرجت من السجن أول الستينيات كان قد حصل على «الثانوية الأزهرية» والتحق بكلية أصول الدين، وتزاملنا في الدراسة وفي العمل أيضًا، حيث تقدم كلانا لمسابقة وزارة الأوقاف لوظائف الإمامة، وعينت في مسجد الفتح بقصر عابدين، وعين هو في مسجد تاريخي «بدرب سعادة» قرب بيت تيمور باشا.

كان يتمتع بروح أخوية قوية، طويل القامة سمح المحيا، يفخر بنسبه المتصل بسيدنا جعفر الصادق - رضي اللَّه عنه - وله مكانة خاصة بين الإخوة النوبيين، من أهل أسوان، وكانت بوادر المشروع الكبير «السد العالي» قد بدت في الأفق، وهو المشروع الذي ضحَّى من أجله شعب مصر كلُّه، ولكن تضحية الأخوة النوبيين كانت أكبر تضحية على الإطلاق؛ إذ فقدوا من أجله مرابع الصبا والشباب، وتراث الآباءِ والأجداد في العمارة والبناء، وما يرتبط بهما من فروع الثقافة والعادات والتقاليد. والمؤسف أن الوطن لم يعوضهم عن هذه التضحية الكبرى

على النحو الواجب، وحتى الآن - وبعد نصف قرن - ما زلنا نفكر في طريقة لعودة قرى النوبة إلى بيئتها الطبيعية، بدلًا من التهجير القسري؛ حفاظًا على وحدة النسيج الاجتماعي الوطني، التي تهب عليها رياح غريبة تبغي العبث بها. وأذكر أنني كنت أصحبه في المواسم الدينية إلى إحدى روابط الإخوة النوبيين بالقاهرة، في أول شارع محمد محمود، على يسار القادم من عابدين، فنشارك في إحياء هذه المناسبات بالتوجيه الديني، والتواصل الوطني.

عندما عُيِّنا في إدارة المساجد، صحبني - وهو القاهري العريق - إلى محل «عوف» بسيدنا الحسين، قرب شارع المعز، فاشترى قطعتي صوف متوسط الثمن، ثم صحبني إلى «ترزي» يعرفه، في الحي نفسه، ليصنع جبتين إحداهما له والأخرى لي، وفي «الغورية» فصَّلنا طربوشًا «مغربيًّا»، حيث كانت تنتشر المحلات المختصة بذلك، وقد اختفت هذه الأيام. واشترينا قماش العمامة الأبيض، وعدت مثله شيخًا في الثلاثين من عمري، وكان هو في مطلع العشرينيات، ولكنه يرعاني كأخ أكبر، لكبر قلبه، وفيض مشاعره.

ثم تخرجنا بعد بضع سنين، في كلية أصول الدين، ولم يلبث هو أن تعاقد للعمل في الإمارات، وذهبت إلى العمل في دار العلوم.. وفرَّقت بيننا الأيام والأحداث، وحين عدت من دراستي بالمملكة المتحدة، حاولت تسقط الأخبار عن الشيخ صالح، فعلمت أن أسرته تقيم بمصر الجديدة، وحصلت على رقم التليفون، ويبدو أنه لم يكن صحيحًا،

فلم يسمعني، ولم يقدر لي رؤية الشيخ صالح محمد النور منذ تلك الأيام، ولا حول ولا قوة إلا باللَّه!

حضرتُ صلاة الجمعة قريبًا، في مسجد الشيخ صالح الجعفري، بالدراسة قرب مشيخة الأزهر، وسعدت أيما سعادة بالروح الأخوية والمودة السائدة والترحيب الصادق بي، وقلتُ لنفسي وأنا الصعيدي من بني هلال -: أين أنت يا شيخ صالح محمد النور، ويا شيخ صالح الجفري الكبير - دفين هذا المسجد، من هذه الفتنة الهائجة بين الدابودية والهلالية! ولا حول ولا قوة إلا باللَّه!

لقد زاملت الشيخ صالح النور، أما الشيخ صالح الجعفري فقد رأيته وأنا في الفرقة الرابعة الابتدائية بالأزهر، وهو على هيئته الدائمة باللحية السوداء الوافرة، والقسمات الوسيمة الظاهرة، والعمامة الكبيرة المميزة، يذهب إلى كلية الشريعة طالبًا في السنة الثالثة. ثم صليت خلفه مِرارًا، وقد صار إمام الأزهر وحضرتُ بعض دروسه بمسجد الأزهر الشريف مطلع الخمسينيات، وهو إمامه المرموق، وكانت له علاقة روحية خاصة بشيخنا الدكتور عبد الحليم محمود، ورجال الدعوة والتصوف بمصر - قلت لنفسي: أين أنتم أيها الرجال مما يحيق بنا في هذه الأيام من فتن..؟ لكنني عدت إلى هذا الجو الأخوي الإيماني الذي ملأ جنبات المسجد بالدرَّاسة، والمصلون أكثرهم من الإخوة النوبة، وبينهم الكثير أيضًا من غير النوبة من أمثالي، وقلت: إن تزكية هذه المشاعر، وتقوية هذه الروابط، هو أقوى سبيل للقضاء على الفتنة

الراهنة وأمثالها، وحمدت اللَّه أن شيخ الأزهر الدكتور أحمد الطيب قد تولى بنفسه تصفية آثار هذه الفتنة، وهو سليل آباء عملوا في حماية نسيجنا الواحد بالصعيد الأعلى، وعمل هو بنفسه قبل المشيخة عميدًا لكلية الدراسات الإسلامية والعربية بأسوان.

وكلما قرأت عن العناية الخاصة، والواجبة، بأهل شلاتين وما حولها، تذكرت إخواننا في النوبة، وإخواننا في الوادي الجديد، بالواحات الخارجة، حيث عشت بضع سنين، وحيث يعيش جماعات من أنقى المصريين..

ولكني على صعيد شخصي بحت، أقول: أين أنت يا شيخ صالح محمد النور؟!



(٤٠) الدكتور عبد المجيد محمود عبد المجيد

عرفته لأول مرة ونحن طلبة في السنة الثانية الابتدائية، بمعهد القاهرة الديني بالأزهر، حيث نقلت من الفصل «السابع» - الذي قضيت فيه سنتي الأولى بالأزهر، وحكيت بعض أحوالها في حكاية أخرى - إلى الفصل «الثاني» بالسنة الثانية. ولا أدري كيف اتخذت مكاني بجواره على «تختة» واحدة ذات مقعدين، ظللنا نتخذها معًا في مقدمة الغرف المدرسية، ثماني سنوات متعاقبة، حتى حصلنا على «الثانوية الأزهرية» عام ١٩٥٣ . وذهب هو إلى دار العلوم، وآثرت الذهاب إلى أصول الدين. . وحين أقام لي بعض الأخوة حفلًا بعد عودتي النهائية من إسلام آباد أخيرًا، تحدث مستعيدًا لحظة دخولي عليهم غرفة الفصل الثاني من الثانية الابتدائية، وبيدي العدد الأخير من «مجلة الرسالة».

أما أنا فذكّرته - وكان قد نسي - بزيارتي له في بيته بالإمام الشافعي، خلف «نقطة المواصلة»، ونحن نستعد لامتحان «الشهادة الابتدائية»، وما تذاكرنا في هذا اليوم من مسائل، أذكر منها بيت الرجز الذي يتحدث عن أفضلية تفسير النص بنص آخر يشرحه: «وخيرُ ما فسّرتَه بالوارد»، وبينت له المراد به، ومع ذلك فقد كان هو الأول، وكنت السادس في هذا الامتحان على مستوى القطر كله.

كان رياضيًا يلعب الكرة، وقد زاملته قليلًا في فرقة «كرة السلة» بمعهد القاهرة، وكنا نتدرب في فناء مبنى قديم، لأحد حكام القاهرة

الأتراك، يسميه القاهريون «أبو شنب فضة» بالصليبة، قرب ابن طولون، ثم قطعني عنها مشاغبات بعض أعضاء الفرقة.. لكنه كان يشكو منذ ذلك الحين من متاعب في الهضم وصاحبه ذلك حينًا ليس بالقصير.. فحافظ على قوامه الرشيق النحيل.

حكيت - فيما سبق - أني حين عدت لألتحق بدار العلوم، أثناء فترة هروبي، وكان هو قد انتقل متفوقًا كعادته إلى السنة الثانية بها، وانتظمتُ بضعة أشهر، إلى أن حوكم الشخص الذي شاركني حادثَ الهروب - الأستاذ إسماعيل.. من سنتريس - وجاء ذكري في صحف اليوم التالي، وكنت في ركن من فناء دار العلوم القديمة بالمنيرة، عام ١٩٥٤، فجاءني قاصدًا، وسألني: ألم تقرأ صحف اليوم؟ فأجبت بالنفي، فقال لي: إن بها أمورًا تتعلق بك، وعليك أن تخرج من هذه الكلية فورًا، فالطلبة يعرفونك -أو بعضهم- جيدًا، والحرس لن يتركوك في هدوء. وخرجت يومها فورًا - كما قال، ولم نلتق بعدها إلا عام ١٩٦٢، قرابة تسع سنوات، حين عينته الكلية معيدًا بقسم الشريعة، بعد فترة من العمل بوزارة التربية، وكنت في الفرقة الثالثة، وزرته في بيته في «حي السيدة»، وكان إذا رآني في الكلية يقول لزملائي: هذا الرجل أولى بالمكان الذي أنا فيه مني. ثم شاء اللَّه أن نتزامل من جديد بعد تخرجي في الكلية وعملي بقسم الفلسفة الإسلامية.. وكانت نشأته بحي الإمام الشافعي - فيما أعتقد - سببًا في اتخاذه موضوع الإمام الطحاوي مجالًا لبحثه، الذي نال به درجة «الماجستير»، والطحاوية هي الأسرة التي ترتبط بضريح الإمام الشافعي بالقاهرة.

لم يستقر في عمله بالكلية -بعد حصوله على الدكتوراه- لمنافسات الزمالة، واضطر إلى التعاقد مع جامعة أم القرى وبقي بها أمدًا طويلًا، وعاد إلى الكلية بعد المعاش - أستاذًا متفرغًا - بسعيٍ من جانبي هذه المرة، وأذكر أني أعدت، على مسامع أعضاء مجلس الكلية، ما كان يقول: إن هذا الرجل أولى منى بمكاني في هذه الكلية؛ ولكن على لساني هذه المرة وهو المشار إليه.

عدت من باكستان آخر الثمانينيات لأعمل وكيلًا بدار العلوم، للدارسات العليا، ولأسعد بمتابعة دراسة ابنته الكبرى السيدة فاطمة الزهراء، التي شغلها بنوها الذين رأيتهم - منذ أسبوع - رجالًا في حفل زواج خالِهم، الأستاذ أحمد ولده الثاني، وأما الأكبر الأستاذ محمد - الذي أعرفه - فقد نال الدكتوراه من أمريكا وظل بها وحصل على جنسيتها.

أُعِرت لجامعة أم القرى شهرًا واحدًا عام ١٩٧٩، أثناء حادث الحرم المؤسف حينذاك، وشاهدت في الطريق إلى بيته بطريق «العالية» حاملات الجنود وهي تعلو نحو الحرم لإنهاء هذه الفتنة.. وقال لي في حفل ولده الأستاذ أحمد: إنه يعمل محاسبًا بمكة، ويقيم قريبًا من ذلك المكان.

كنا ننعم كلانا برعاية خاصة من الفقيه العظيم الشيخ على حسب اللّه، والتتلمذ للأستاذ الشيخ محمد الزفزاف، وتلميذهما الشيخ الدكتور مصطفى زيد - رحم اللّه الجميع.

وفي حفل زواج ولده، الأستاذ أحمد، أخذت أذكره بزيارتي الأولى له في بيته - بالإمام الشافعي، ونحن نستعد لامتحان «الشهادة الابتدائية»

وهو لا يكاد يذكر أما أنا فذكرته بما دار بيننا يومها من حديث، وما أكلته لديهم من طعام..

لقد ضعفت ذاكرتي كثيرًا عمّا قبل، ولكني ما زلت أذكر بعض «الحكايات».



(٤١) و «للحنكبار» حكايات

هو الآن من رجال الأعمال بالثغر، كان والده تاجرًا - رحمه اللَّه - يذكرك في هيئته ولباسه «بالسيد» في ثلاثية محفوظ، لكنه في عمامته كان أقرب إلى سمت العلماء الأزهريين وسماحتهم منه إلى التجار. وإذا كان للتجارة «جينات» فقد ورث «الحنكبار» عن أبيه حظًّا وافرًا منها، لكن روحه أو «جيناته» التجارية هي من نوع لا يتعارض مع المروءة والشهامة، على الصعيد الشخصي، ومع الوطنية والتضحية على الصعيد العام.

أما حكاية اللقب فقد كان صاحبنا بيننا، ونحن طائفة من الطلبة بدار العلوم، والكل يتطلع إلى التخرج وبناء بيت وأسرة، أوائل الستينيات، من القرن الماضي، يزعم أنه خبير ومرجع كبير في شئون النساء، تمامًا كخبراء أو أدعياء «التحليل الاستراتيجي» في أيامنا الآن، وربما يستشهد على ذلك بنشأته في مدينة المنصورة العامرة بالجميلات، وأنه - مع أزهريته وتصونه - كان يعرف «فاتن حمامة» وهي طالبة هناك، ويصادفها مع أسراب المها من زميلاتها أحيانًا، عائدات من المدرسة إلى بيوتهن، وأطلقنا عليه لهذا لقب «الحنكبار»، أي الخبير المزعوم بهذه الشئون.

وقد فاجأنا الحنكبار، في أشهر الصيف التي أعقبت الحصول على «الليسانس»، وصدور قرارات «وزارة التربية»، بتعيين كل منا في مدرسة ثانوية معلمًا للغة العربية، وكان نصيبه التعيين في «قنا» الثانوية، على حين عينتُ في «بني سويف»، ولكن تعيني معيدًا بالكلية حال دون تسلّمي

العمل بالوزارة، أما هو ففي خلال أسبوع واحد تعرف على زميلة لنا أسيوطية - ولكنها كانت تعرف بالتفوق الرياضي في «التنس» - ولم تكن بينهما أية صلة أو تعارف سابق، وتفاهما على الزواج، وحزم أمره في أيام، ووضع في جيبه قرارَ التعيين وعقدَ الزواج، وتوجها على بركة اللَّه إلى قنا. وجاءني منه خطاب يقول: «إنه يأكل ملء بطنه وينام ملء عينه»، وكنت أتقلَّب حينئذ على فراش القلق، ولم أتزوج إلا بعد خمس سنين من التخرج، أما زميلنا الثالث المشارك في إضفاء اللقب على صاحبنا، الدكتور «علي عشري» فلم يتزوج إلا بعد التخرج بعشر سنوات. وبعد عام واحد جاءني من «الحنكبار» أنه صار أبًا لعبد الرحيم، على اسم سيدي عبد الرحيم القنائي. كانت تلك نهاية، أو بداية، «الحنكبار» التي توقع في الحيرة: أهي حقًّا بسبب خبرته «المزعومة» أم قضاءً وقدرًا!

لكن، كيف عرفته، وهو القادم من المنصورة، وأنا قاهري الإقامة، لا أذكر.. وكما وصفت في حكاياتي من قبل، كنت معروفًا في «كلية أصول الدين»، فتقدمت خلال فترة اختفائي، بعد حادث الهروب من سيارة الشرطة، إلى مسابقة القبول بدار العلوم، وانتظمت فيها بالفرقة الأولى، وعرَّفني به بعض معارفي القدماء، وكان يسكن بمدينة حلوان، نموذج الهدوء والنظافة حينذاك. ولما عرف ظروفي الخاصة عرض عليَّ الإقامة معه، في غرفة بهذه الشقة، ومعه طالبان آخران من «بلدياته»، فلم تلبث هذه الغرفة أن اجتذبت أمثالي من «المطاريد»، وأغراهم بها جوُّ حلوان الهادئ وبعدها عن التركيز الأمني.

كان أحد «البلديات» مثله في الهوى السياسي، أما الآخر - وكان طالبًا بكلية الحقوق، فكان مختلفًا متحمِّسًا لعبد الناصر، فلم يسترح إلى جو الشقة وزُوَّارها الجدد، الذي تسبب فيه «الحنكبار» دون أخذ موافقته، وبعد صراع مع نفسه أبلغ الشرطة التي جاءت ليلًا، فقبضت على كل من بالشقة إلا صاحبنا الحقوقي؛ الحنكبار، وزميل «الحنكبار» من بلدياته، وكان بين المعتقلين اثنان من أمثالي -ولم أكن بالشقة حينذاك- حاول أحدهما -الأستاذ لطفي المحامي- الهرب من فوق السور، فأسقطته رصاصة أصابت يده، ثم عولج منها وبرئ. أما الآخر فكان على موعد معي ظهر اليوم التالي، عقب صلاة الجمعة «على الكورنيش» عند القصر العيني، وتمَّ القبضُ عليَّ بعد محاولة يائسة للإفلات، وفي نقطة البوليس رأيت الشاب - صاحب الموعد - في حالة مزرية، وتظاهرت بعدم معرفته، وبعد ساعة جاءني الصاغ أحمد سعيد وفي يده صورة لي مكبرة، يقول لي -بعد محاولاتي مع البوليس-: أهلا بك يا أبو على. . !! وهنا أدركت الموقف جيدًا. . وبعد نحو ساعة أخرى كنا جميعًا داخل أسوار «السجن الحربي» بشمال القاهرة.

دفع «الحنكبار» خمس سنين من حياته ثمنًا لمروءته، إذ حكم عليه بها لإيوائنا، قضاها بسجن أسيوط، وإن كان غير بعيد من التهمة التي كانت كافية حينذاك لنيل هذه المصيبة. . وفي مطلع الستينيات خرجنا، واستأنفنا معًا الدراسة، وتآلفنا مع زملائنا الجدد، ورغم فارق السن -الذي كان يستشعره دومًا- احتل بيننا مكان «الحنكبار». . إلى أن تخرجنا عام

١٩٦٣م، وسافر إلى قنا مع زوجته.. ثم تعاقد مع «قطر» وعاش فيها أمدًا طويلًا - وكان يكتب في صحفها بجانب التعليم. ولم ينس التجارة والاستثمار بعد عودته، فأنشأ «عزبة» على طريق الإسكندرية الصحراوي، يقوم عليها شقيقه «المهندس الزراعي»، ثم ابنه عبد الرحيم الذي تخرج من الجامعة محاسبًا..

وبعد عودتي من باكستان، دعاني مع زوجي فقضينا معهم أيامًا - وكلنا زملاء دراسة - في فيلا فاخرة، بشاطئ «أبو تلات»، بعد العجمي بالإسكندرية. ولكن حسَّه التجاري دفعه رغم السن التي ناهزت الثمانين، أن يعود إلى الحي الذي عاش فيه - بعد قنا، وقطر - قرب «سيدي جابر» بالإسكندرية، وبني هناك عمارة مشيدة، والدور الأرضي بها «سوبر ماركت»، وأطلق عليه اسم أبيه السيد هاشم رحمه اللَّه، وهو الآن يقوم على شأنه مع «عبد الرحيم» - حفظه الله، وكم يشدني الشوق إلى لقائه، غير أن أحداث السنين الأخيرة.. وتوابعها، لم تعن على ذلك - كيف أنت يا أستاذ محمود.. «أيها الحنكبار»؟!



(٤٢) «على أن يكون علمك لنا»

حكيت بأمانة وصراحة، بعض التجارب الروحية أو النفسية، التي عرضت لي في مواقف مختلفة من حياتي، وقد يختلف قُرَّاء هذه «الحكايات» في تأويلها أو حتى في استساغتها أو قبولها، لكن الذي أرجوه منهم - على اختلاف آرائهم أن يثقوا أنني ما حكيت إلا الصدق، وأنها وقائع وأحداث لرجل عادي سَوِيٍّ - بحمد الله، أنصف نفْسَه وقُرَّاءَه، وأشْرَكَهم فيما وقَع له رجاءَ النَّظَرِ والعِبرةِ، لا لأيِّ مقصدٍ آخرَ.

ومن ذلك أنني في أوائل عام ١٩٦٩، وبعد إتمام الزواج، عقيب الخروج من المعتقل في عام ١٩٦٨، أنجزت بحث «الماجستير»، الذي توقف قرابة أعوام ثلاثة، وتحدد يوم لمناقشة الرسالة والحكم عليها، من لجنة مكونة من كبار الأساتذة: الدكتور قاسم (المشرف) عميد دار العلوم، والدكتور إبراهيم بيومي مدكور - وهو من أساتذة الدكتور قاسم - وكان عندئذ أمينًا عامًّا لمجمع اللغة العربية، والدكتور يحيى هويدي، وكان عميدًا لكلية الآداب بجامعة القاهرة، .. ولم يكن ثمة موجب لمزيد القلق، ولكنني يومها أديت صلاة العصر بمسجد السيدة زينب - رضي اللَّه عنها - غير بعيد من مسكني في «الفلكي». ومررت بعد الصلاة على الضريح، ووقفت خارجه أمام نافذة بجوار الباب، أقرأُ الفاتحة، وأدعو لعقيلة آل البيت ذات المواقف المجيدة في الظروف الصِّعاب، وأدعو اللَّه - تعالى - بالتيسير فيما أنا مُقدِمٌ عليه تلك الليلة.

وإذا بصوت واضحٍ تمامًا؛ داخل أذني، لا أعرف مصدره، ولكنه محدد الحروف والكلمات، واضح اللفظ والمعنى، يقول لي هذه العبارة التي سميت بها حكايتي: «.. على أن يكون علمك لنا.».

كانت الكلمات كما ذكرت - علم الله - واضحة محددة، وقد انطبعت في نفسي منذ ذلك الحين دون زيادة حرف واحد أو نقصه. وقد انصرفت منطويًا على هذه التجربة التي لا تتكرر كثيرًا، عالمًا أنني لست من أهل العلم، ولكن هذا الصوتَ أراد أن يقول: امض موفَّقًا، واحرص على أن يكون ما يتاح لك من علم ومعرفة في خدمة الناس؛ فليس لهؤلاء القوم، من رجال البيت النبوي وعقائله، مصلحة خاصة أو منفعة معينة، يريدون حمايتها أو العمل من أجلها. وأن المقصود بالكلمة (لنا) إنما هو خدمة المسلمين، وإشاعة المعرفة بين الناس.. وقد يَسَّرَ اللهُ لي إنجاز بحوثي الضرورية، بالنسبة لعضوية هيئة التدريس بجامعة القاهرة، ووُفِّقتُ - برغم «المطبات» المتكررة في حياتي، إلى إصدار عدة كتب وأبحاث أحرص على نشرها أحيانًا دون مقابل مادي، وأقوم بالتدريس طوعيًّا - بلا مقابل مادي - بمسجد الأزهر وغيره، ولا أدرى هل وَفَّيتُ بالشرط المذكور؟!



(٤٣) أنت منقول إلى سيوة

قلت لنفسي: واللَّه يا أبو علي، يبدو أن اللَّه - تعالى - قد استجاب دعاءَك خلال السنين السبع العِجافِ في الهروب والسِّجنِ، وتعذيب «الحربي»، ومهانات محكمة الشعب، والأشغال الشاقة بليمان طره، ومنفى الواحات الخارجة، والعزل التأديبي بسجن قنا، والإعادة إلى الواحات في سجن «المحاريق»، مع فترة التقاط الأنفاس والعلاج بسجن قرة عيدان = سجن مصر العمومي، الذي طهَّره اللَّه تعالى أو طهر المكان منه، ووضع في مداخله جثمان مصطفى كامل وضريحه، بجوار القلعة الشريفة، قلعة صلاح الدين، وجعل ما بينه وبين مسجد «السيدة عائشة» - رضي اللَّه عنها - حديقة عامة..

فمَنَّ اللَّهُ عليك إذْ أخرجَكَ مِن السِّجنِ، وأعاد إليك حُرِّيتَكَ، وأكملَ لك دراستَكَ، وبَدَّلَ الكُلِّيَّةَ بكُلِّيتَينِ، وهيَّأ لك العملَ المناسبَ في «الإمامة» فلا تمد اليدين، ورزقك التوفيق، فهَيَّأ لك التفَوُّقَ، وتخطبك الآن دارُ العلوم وأصول الدين لتنضم إلى هيئة التدريس فيهما، أيهما تختار. كأنما تقولان لك: ﴿إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾.

سبحان اللَّه، والحمد للَّه: أين كنا، وأين نحن الآن.. إنها حالة الامتنان والشكر، للَّه رب العالمين التي غمرتني، في صيف عام ١٩٦١، فصِرتُ أرى نفسي - رغمًا عنِّي - شخصينِ: واحد ماشٍ في الطرقات، والآخر مرتكِنٌ إلى عتبات مسجد سيدنا الحسين، هذا ما كان، وقد حكيته لك.

وكان عملي بالمسجد - مسجد الفتح بقصر عابدين - موفقًا، الخدمُ صالحون من تلاميذ سيدي الشيخ الشبراوي، شيخ الطريقة الخلوتية، إمام المسجد الأسبق: وهم الشيخ طيفور؛ والسيد أحمد، وعمي محمود الذي كان يرأسهم، يقيمون بغرفتين لهم بالمسجد، والأهلُ - كسائر أبناء النوبة - عندئذ - في الوطن الأصلي. وعمي الشيخ علي المؤذن الكفيف، كلهم من الصالحين. وأهل الحي في منطقة باب باريس والبرموني ودرب الحجر وشارع الشيخ مصطفى عبد الرزاق من حي عابدين عرفوا شابًّا - «في حالُه» - يُحسِنُ الخَطابةَ، ويؤدِّي دروس السيرة والفقه بانتظام، ويلتزم بحزم العمامة داخل المسجد.. وربما تخلَّف عن بعض الصلوات بسبب الدراسة.. فصارت بيني وبينهم صلة روحية قوية، وأذكر أن أحدهم، وكنا نصلي العشاء معًا في إحدى الليالي، وكان يعمل «صول = أمين شرطة» في بوليس مصر القديمة، جاءني بعد الصلاة، حيث أقيم قرب المسجد، وقال في انفعال: لقد عدت إلى البيت فوجدت ابن أختي الشيخ محمود الذي يعمل في قريتنا الآن «صرَّافًا»، وهو زميلك في الدراسة؛ وقد حكى لي تاريخك، فرأيت أن أعود إليك - وكان يود أن يأتي معي لولا تأخر الوقت - لكي أقول لك: أي شيء تحتاجه، حتى غسيل ملابسك وكيها، فنحن على استعداد للقيام بذلك، فشكرته وحمّلته السلام إلى زميلي الشيخ محمود!!

ويومًا فرغت من الخطبة - بعد انتصار الثورة الجزائرية، وعودة المسجد الرئيسي، الذي حوله الفرنسيون إلى «الكاتدرائية المركزية» بمدينة الجزائر، مسجدًا كما كان، والجزائريون يهتفون يومها في تلقائية

وصدق: «يا محمد «صلى اللَّه عليه وسلم» مبروك عليك؛ الجزاير عادت إليك!!»، وورَدت في خطبتي قصيدة أحمد شوقي في حدث مشابه، ومطلعها:

كنيسة صارت إلى مسجد   هدية السيّد للسيّدِ

يقصد بها آيا صوفيا، وبالسيدين: عيسى بن مريم ومحمد بن عبد اللَّه - عليهما الصلاة والسلام - وجاءني مُعقِّبًا صديقٌ حميمٌ.. منذ ذلك الحين، وكان حينها طالبًا في الثانوية العامة.. إنه الأديب المصري التركي، والديبلوماسي، الأكاديمي، الدكتور أكمل الدين إحسان أوغلو، الأمين السابق لمنظمة التضامن الإسلامي وعضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة والمرشح أخيرًا لرياسة الجمهورية التركية.

وأذكر أيضًا أنه دعاني أحد المصلين، وكان يرأس مجلس إدارة المسجد، وهو الأستاذ محمود الصبّاغ لزيارته في بيته في عمارة بشارع بورسعيد، بجوار مستشفى أحمد ماهر، وهي المرة الوحيدة التي زرت فيها واحدًا من جمهور المسجد بمنزله، أكرمني الرجل، وتحدَّثنا في مصالح المسجد، وأحسستُ بغيرته الدينية وحرارة مشاعره.. ولم أُعلِمه بمعرفتي السابقة به، في مطلع الخمسينيات، عندما كان أحد القياديين البارزين، وزميل دراسة وعمل، ونشاط أيضًا، للأستاذ مصطفى مشهور.. الذي صحبته في فترة الواحات، ودرَّست له علم «مصطلح الحديث» هناك.. قبل أن تفرق بيننا المواقف والآراء.. رحم اللَّه الجميع.

كنت أدوِّن دومًا ملخص الخطبة قبل إلقائها، وأحدد موضوع الخطبة

القادمة من يوم السبت السابق عليها، وأعيش في جو الموضوع الذي حددته دينيًّا وأدبيًّا، وأسجِّلُ خواطري حوله، والنصوص المتصلة به، وبخاصة القرآنية منها والنبوية؛ فالذاكرة خئون، وحول تلك النصوص تدور الخواطر الشخصية والقِصص والحكايات الأدبية والروحية. والخطبة عندي: دفقة روحية أسبوعية لجمهور المسجد، وجرعة تفقيهية شرعية تربطهم بالقرآن والسنة النبوية، وموعظة اجتماعية أخلاقية تربوية.. فقط. أما السياسة فلم أكن - وأنا المسيَّس من صغري - أرى مناسبتها للمنبر، إلا إن كان الأمر مناسبة وطنية أو قومية جامعة، كما حكيت عن الجزائر، وكحادث الانفصال السوري.. وكقضية فلسطين.. أما السياسية المحلية أو الحزبية فما زلت - والشيخ كشك زميلي تَخَرُّجًا وعملًا - لا أرى لياقتها لمنبر الجمعة. فإذا كان أحد من قرائي يشتغل «بالإمامة» فليتلقف سِرَّ نجاح الخطبة، و«خلْطتها» الثلاثية ببساطة.. ولكن ليعلم أن «الخلفية = الحصيلة» الثقافية والأدبية العامة، مع العلم الشرعي والتضلع منه.. هي النبع الذي يمتح منه الخطيب والداعية الموفق.. ومن وراء كل ذلك سر لا أملك مفتاحه.. يهبه اللّٰه لمن يشاء، وهو صدق الغيرة الدينية، وعمق المشاعر الروحية، والإخلاص للأمة والشفقة بها.. مع استقلال الفكر، وحب المسجد والتعلق به.

هذه هديتي لزملائي الأئمة والدعاة، الذين أعتز بهم كما أعتز بزملائي الباحثين والمعلمين بالجامعة، في زمن يتصدَّى فيه للدعوة من لا فقه له، ومن يعوزه البيان العربي، ولا يكاد يُحسِنُ النُّطقَ، أو إنشاد بيت من الشعر، أو تلاوة سورة من القرآن. وصارت الدعوة حِرفة لا رسالة، ونجومية

لا ريادة، وأيديولوجية لا تربوية، وشقشقة مذهبية لا تؤسس لجيلٍ صالح أو لنهضة مرجوة. . دع عنك من هم أبواق لا تعي، بل تردد ما يراد لها أن تقول. . سواء كان ذلك من جانب السلطة أو من جانب آخر. . ولا حول ولا قوة إلا باللَّه. . أقول هذا وأنا أعرف وأشاهد بعض من يرقون المنابر بلا لغة ولا فكر ولا محصول. . ويبغضون الناس في بيوت اللَّه. . ويتكلم الكثيرون عن «الخطاب الديني»، من الساسة أو مِمَّن يسمون الآن «القيادات الدينية» وكله كلام في «الهواء». والأمل معلق بعودة «الأزهري الحقيقي»، الذي لقيناه في الغزالي والشعراوي وشلتوت - وذلك مرهون بعودة المناهج الأزهرية الأصلية، التي جرفت وسطحت، أو هجرت تمامًا، وهو المأمول ممن حمَّلهم اللَّه المسئولية عن دينه وشرعه، وهو - سبحانه - أكرم مأمول وأسخى مسئول.

لكن ما علاقة ذلك كله بالعبارة التي وضعتها عنوانًا على هذا الفصل من الحكايات؟ نعم يحتاج الأمر إلى بيان، فالدنيا لا تصفو دومًا لأحد؛ ففي هذا الصيف الذي بدأت فيه التفكير في الزواج، وقد فرغت من الدراسة الجامعية، واخترت شريكة حياتي، صادفني مشكلة حكيت طرفًا منها في لقائي مع الشيخ محمد أبو العيون، وعرفت حكمتها بعد الاعتقال عام ٦٥، ثم الخروج عام ٦٨، لأكمل خطوات هذا الزواج نفسه. . وصحب ذلك مشكلة أخرى، هي أشبه «بالخلاف اللفظي» لا ثمرة له - كما يقول الأزهريون»؛ إذ فكر الدكتور محمد البهيّ وزير الأوقاف في إصلاح المساجد، فقرر حرمان من لا يحمل شهادة جامعية من الإمامة في المساجد الرئيسية والمدن الكبرى، وطبق هذا عليَّ، دون

نظر إلى أنني إنما عينت في القاهرة للتفوق في مسابقة علمية، وأنني كنت ممن اصطحبهم الوزير نفسه في رحلته إلى طنطا، خلال مهرجانها السنوي الدعوي، وخطبت أمامه في العام نفسه، وأنني أيضًا - لو كلفوا أنفسهم بدراسة الحالات قبل التصرف بشأنها - قد حصلت بتفوق على شهادتين عاليتين لا شهادة واحدة.. لكن كل ذلك لم يشفع لي.. وقضى إصلاح الدكتور محمد البهي، الذي ترسم خطواته بالقلم والمسطرة، دون مراعاة الظروف الموضوعية والاستحقاق العلمي.. وقيل لي في خطاب رسمي صيف عام ٦٣، : «أنت منقول إلى سيوة.»!

ذهبتُ إلى وزارة الأوقاف، والتقيت مدير المساجد، الذي ينفذ سياسة الوزير الإصلاحية، وقلت له: سيوة عزيزة علينا، ولكنني عينت في القاهرة طبقًا لمسابقة علمية، وما تتطلبونه في أئمة القاهرة -وهو المؤهل العالي- قد حصلت عليه. ويمكنكم الاطلاع على تقارير المفتشين الفنيين، الأستاذ عثمان عيسى في منطقة وسط القاهرة، والمفتش العام الوثيق الصلة بالوزير، والذي رشحني لصحبته.. ورشحني لمخاطبة الجماهير في «المطرية» عند أزمة الانفصال السوري الحسّاسة، وهو الأستاذ إسماعيل عامر الداعية المعروف بمصر وليبيا.. ثم إنني في النهاية إنسان، لي ارتباطات إنسانية، وأعول أخًا لي صغيرًا يدرس بالأزهر.. وقلت له - في الحقيقة على سبيل الاختبار، لأن إجراءات تعييني في الجامعة كانت قد اكتملت-: أعطني مهلة «إجازة رسمية» للاستعداد أسبوعًا قبل السفر إلى سيوة.. أتعرفون ماذا قال لي كبير الدعاة حينذاك: اذهب إلى سيوة فورًا، وتسَلَّم عملك هناك، ومنها

تطلب الإجازة من إدارة الإسكندرية التي تتبعها، وتُمنح لك إن شاء اللَّه.

تركتُه آسِفًا راثيًا لحال الموظفين المصريين الذين ينظر إليه الجميع - حتى الدعاة والعلماء- على أنهم أدوات أو قطع شطرنج، أو أشياء أو أرقام، وليسوا بشرًا مكرمين.. كما نقول في الخُطب.. وإنه لخَطبٌ كبيرٌ ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾ صدق اللَّه العظيم!!



(٤٤) سكن مؤقت

ما من حي من أحياء القاهرة الكبرى لم أسكنه، إلا الجهة الشمالية الشرقية: العباسية وما وراءها طبعًا من مصر الجديدة والأحياء الراقية، مثل جاردنسيتي، ولم يكن هناك مدينة نصر بعد.. أما عابدين، والحلمية، والسيدة، والقصر العيني، والجيزة، والقلعة، وشبرا، وروض الفرج، وإمبابة.. فقد سكنتها جميعًا..

وقد ذكرتُ في حكاياتي أطرافًا من ذلك، لكن أذكر أنني حين أُفرِجَ عنِّي أول سنة ٦٠ أسكنني أخي الأستاذ علي - الذي كان يعمل مُدرِّسًا بالقاهرة - عن طريق أصدقاء أو «معارف» له في شبرا لمدة ٣ أسابيع، مع زميلين في السنة الثانية بكلية أصول الدين لأُذاكر معهما، وقد بقي على الامتحان أسبوع واحد، ثم مدة الامتحان ولم تتجاوز أسبوعين. ثم سكنت بعد ذلك مع قريب شهم - رحمه اللَّه - اسمه الأستاذ يس طه في الجيزة، حتى نهاية العام الدراسي.. ولا زلت أذكر أنني في الشهور الأولى بعد خروجي من السجن كنت أشعر بالغرابة حين أسير وحدي ليلًا، طليقًا، لم يكن ذلك شيئًا عاديًا أبدًا، كما أشعر الآن، وكما يشعر كل إنسان.. بعد أن تعودت لسنين ألا يرخي الظلام سدوله، بل قبل ذلك أيضًا، إلا والأبواب مغلقة، ومفاتيحها في أيدي السجانين!

الشاهد.. أنني حين عينت في السنة الثانية من خروجي من السجن بمسجد عابدين، اختار لي الشيخ «الدكتور» محمد الراوي - رفيق

الدراسة والسكن قبل السجن - أن أقيم مع الشيخ سيد.. إمام قديم يعمل بالوزارة، ويسكن في السيدة، قرب طولون.. وكان رجلًا صالحًا أقرب إلى «الدرويش» في مسلكه وفكره، ولم يضن عليَّ بخبرته في الإمامة» ومسئولياتها، وإن كنتُ خبيرًا بها، ولكن عن هواية وتطوع لا مسئولية، وبينهما فرق ما. ولكني وجدت بعد حين أنه من الخير أن أسكن قرب المسجد، فاختار لي عمي محمد «بياع الطماطم» - أحد رواد المسجد - بيتًا يبعد عن المسجد ثلاث دقائق.. يملكه أحد المصلين معي أيضًا، وهو الأستاذ حسن مكي الذي يعمل مفتشًا للفلسفة بوزارة التربية، عرفت فيما بعد أنه شقيق أحد زملائي بالمعهد الديني سابقًا، من أصل نوبي، هاجر إلى السودان.

كان كُل شيء مناسبًا إلا الغرفة، فقد كانت رطبة صغيرة مظلمة، في الدور الأرضي، يشاركني في دورة مياهها اثنان في غرفتين أخريين.. وقال لي الأستاذ حسن: اعتبره مجرد «سكن مؤقت»..

وافقت وانتقلت من طولون، إلى جوار المسجد أمام «بوابة باريس»، في حارة متفرعة من شارع الشيخ مصطفى عبد الرازق.. لكني اكتشفت بعد فترة أن الشباك الوحيد في أعلى الغرفة يفتح على منطقة خربة، وأنني أعيش فيها يشاركني بعض الثعابين.. فحرصت أن يكون «سكنًا مؤقَّتًا» فعلًا.. ولم ألبث أن حصلت - بحمد اللَّه - على شقة من غرفتين، في الدور الثالث من بيت صغير، في «زقاق أبى البركات» المتفرع من حارة مجاورة لبيت الأستاذ حسن مكي.. وقبل أن أنتقل إليها زارني في السكن المؤقت الشيخ «الدكتور» أحمد عبد العظيم، زميلي الآن في دار العلوم

وفي مجمع اللغة العربية، يستشيرني - مبعوثًا إليَّ من أستاذي الشيخ أشهب القاضي، أظنني ذكرته من قبل في حكاياتي - فوضعت الكرسي الوحيد عندي على باب الغرفة، وجلست داخلها على السرير السفري أحادثه، حرصًا عليه من سكان الغرفة.. وكان موضوع الاستشارة أن الصديق النابه - وهو أصلًا من مدينة ببا، أي بلدياتي - يوشك أن يكمل السنة الخامسة الثانوية بمعهد القاهرة الديني.. وهو على مفترق طرق: أيواصل الدراسة بالأزهر في كلية اللغة العربية أم ينتقل بعد الحصول على «الشهادة الثانوية» الأزهرية إلى دار العلوم..؟ فنصحه أستاذنا المشترك الذي يعرف ظروفي، وأني في مسجد عابدين.. أن يلقاني ويستشيرني، وأذكر أني أشرت عليه يومها بالانتقال إلى دار العلوم، ليجد جوًّا مختلفًا، ولا يصبر في غذائه العقلي على طعام واحد، وقد أخذ الرجل بنصيحتي، وتخرج متفوقًا في دار العلوم، التي ابتعثته إلى جامعة «ليدز» بشمال انجلترا.. وعاد أستاذًا للنحو بها، وتزوج إحدى زميلاته.. ونحن اليوم نعمل معًا بالمجمع والكلية.. وقد مضى أكثر من نصف قرن على هذه النصيحة، وعلى هذه الزيارة، وظروفها المؤقتة.. والحمد للَّه رب العالمين.



(٤٥) مركز شباب عابدين

كنت منذ مطلع الستينيات أعمل «إمامًا وخطيبًا ومدرسًا» بمسجد «الفتح» بعابدين، وهو مبنى على نمط مصغر لمسجد السلطان «محمد الفاتح» باستانبول، ولعلى أكتب عن تجربة «الإمامة» التي لم تستمر إلا نحو ثلاث سنوات، كنت خلالها طالبًا، بكليتي دار العلوم وأصول الدين، ولكنها أثرت في حياتي إلى حد كبير.

جاء إلى المسجد يومًا السيد حسين الشافعي، وكان من عادته وهو وزير للأوقاف، أن يصلي الأوقات الخمس في مساجد يختارها بالقاهرة، وكان من بينها مسجد الفتح، يتردد عليه كثيرًا؛ فيصلي وينصرف، أو يستمع الخطبة أحيانًا ويصلي.. ويومًا صلى العشاء في هدوء، ولم ينصرف وسأل عني بعد الصلاة فلقيته فقال - رحمه اللَّه -: ألديك فكرة عن النادي الذي يُنشأ إلى جوارك؟ فأجبت بالنفي، فقال - إنا قد قررنا أن نفتح حديقة القصر للشعب.. وسينشأ فيها مركز للشباب، وأحب أن تكون لك علاقة معهم.. فإن هذه المؤسسات بالغة التأثير في الشباب، ويحسن أن تمتد رسالة المسجد إلى خارجه، فتلقى أبناء الحي.. وفي ذلك خير كثير.. أو شيء قريب من هذا - رحمه اللَّه.

وأمسك بيدي بعد أن خرجنا من باب المسجد بعد صلاة العشاء، لنتجه في شارع «مسجد عابدين» نحو شارع «الشيخ ريحان»، حيث يوجد باب في الركن الجنوبي الشرقي من القصر العتيد- أما الجانب الشمالي

فهو المعروف لدى العامة بـ«باب باريس» لأن فيه أحد أبواب القصر بني على نمط الشانزلزيه.

دخلنا من الباب، إلى حديقة قصر عابدين، فوجدنا، فيما بين النور والظلام، الأستاذ «صلاح البنا» - الذي كان مسئولا عن النشاط الرياضي بالمحافظة - ومعه عمال من بينهم من يقود محراثًا ينظف به أرض الحديقة من الحشائش، فعرَّف سيادته الأستاذ صلاح بى.. ثم انصرف. كنت أعرف الأستاذ صلاح سلفًا، وأخاه الأصغر، وكان أحد أبطال المصارعة، فقال: نعم نحن نعد هذا الركن من حديقة القصر ليكون مركزًا للشباب.. ومتى فرغنا من «تأهيل المكان» فسوف أنصح المسئولين أن يتصلوا بك، ويستفيدوا منك.

وبعد فترة لم تطل، جاء رسولهم فذهبت لألتقي بأحد أعز أصدقائي منذ ذلك الحين حتى الآن، الأستاذ محمد عجرمة الذي اختير رئيسًا للنادي، وعرض عليَّ سيادته أن أعمل معه «رائدًا دينيًّا وثقافيًّا» للمركز، وكانت صحبته لبضع سنوات، صداقةً مستمرة حميمة بحمد اللَّه، ومع أنه بطل رياضي في المصارعة أيضًا فهو إنسان مثقف، وحريص على استكمال ثقافته، وقد التحق وهو مشغول ليل نهار - في المركز - بقسم الفلسفة بكلية آداب القاهرة، ونال درجة الليسانس.

وكانت له صلة خاصة بأستاذنا الدكتور التفتازاني رئيس القسم، وشيخ مشايخ الطرق الصوفية؛ لإعجابه ببحث قدمه له عن الفرق الكلامية. وقد كنت أراجع معه بعض جوانب المنهج الذي يدرسونه في

القسم، ومن يقرأ كتابي «المدخل إلى دراسة علم الكلام» سيجد فيه فكرة مصورة بالرسم التوضيحي، عن اتجاهات الفرق الإسلامية الأساسية العشر: خمس منها ضمن أهل السنة والجماعة وخمس على الجانب الآخر. وقد ولدت هذه الفكرة - بفضل اللّه - من مناقشاتي مع هذا الرجل الذكي اللماح..

لم تكن مهمة «الرائد» محددة، ولكني استعنت في أدائها بخبرتي السابقة، وصارحت الرجل بظروفي الخاصة في الدراسة، وفي الماضي القديم.. وكان الأستاذ عجرمة على صلته القوية الشخصية بمحافظ القاهرة حينئذ، وهو الأستاذ صلاح الدسوقي، الذي كان وثيق الصلة أيضا بالرئيس عبد الناصر - متفهما بل متجاوبا. فمزجت التوجيه الديني المباشر وغير المباشر بالنشاط الثقافي والأدبي.. وقد انتشرت فكرة الريادة هذه، فنهض بها - في نادي الجزيرة - الزميل الدكتور مصطفى عبد الواحد الأستاذ بجامعة أم القرى فيما بعد.. ولعل مراكز الشباب، وقد بدأ يدب فيها النشاط من جديد، بعد إنشاء أو عودة وزارة الشباب، تحيى هذه المهمة، وتنتقي لها - وهذا هو الأهم - الكفاءات المناسبة، ففي ذلك خير كثير لشابنا وأسرنا.. لقد كان أعضاء مركز عابدين طائفة مختارة من الطبقة المتوسطة التي كانت ما تزال بخير حينذاك.. بتقاليدها ومكانتها.. وقد كنا نتعاون مع كل رجال الحي وأعيانه، ومنهم السيد حسين البلدي الذي كان يمثل الحيَّ بمجلس الشعب.. وأذكره منذ ذلك الحين، وصديقه الأستاذ الشاذلي المحامي الذي صار وزير الشئون البرلمانية لأمد طويل فيما بعد. والفنان حمدي غيث.. و«الأستاذ

محمد» الذي كان خبيرًا اجتماعيًّا، ومساعدًا للأستاذ عجرمة، وكان لا يؤدي الصلاة، لأنه لم يتعود عليها قط.. وفوجئنا به يواظب على الصلوات.. وكنت أؤم المصلين بمصلّى المركز.. بعد أن انتقلت معيدًا إلى دار العلوم.. وبعد أسبوعين من الانتظام في أداء الشعائر نفاجأ أيضا - دون مرض أو شكوى - بانتقاله إلى جوار ربه.. رحمه اللّه، فكان مسلكه في أيامه الأخيرة موضع الاعتبار للكثيرين..

في إطار النشاط الأدبي: دعوت يوما لمسابقة شعرية، شارك فيها.. بطبيعة الحال - طائفة من شعراء دار العلوم، ومنهم الأساتذة «الدكاترة» محمد حماسة عبد اللطيف وحامد طاهر وأحمد درويش.. وكانوا حينئذ من طلابي في السنة الأولى بالكلية.. وأحيوا بقصائدهم وقوة حضورهم أمسية ثقافية ظل أعضاء المركز يذكرونها.. كما دعوت أستاذنا الدكتور محمد حلمي مراد وكان عندئذ نائبًا لرئيس جامعة القاهرة - وهو وزير التعليم مع الرئيس عبد الناصر فيما بعد، ونائب رئيس حزب العمل - فألقى محاضرة بالمركز، مبيِّنًا دور التعليم في إعداد الشباب ورعاية الثقافة الوطنية، كان لها صدى كبير ومذاق خاص.

وأذكر أن شيخنا الدكتور شقير - وكان أستاذنا في كلية أصول الدين في المنطق والتوحيد - جاء للقائي، ومعه ولده الذي كان طالبًا بالجامعة، وأعلمني، بعض ظروفه، وكنت أعرفه لتردده على المركز، فحاولت رد الجميل للشيخ في ولده.. وكنت في الحقيقة أشعر أنني عدت إلى الحي الذي استقبلني لأول مرة عند مجيئي طفلًا صعيديًّا ساذجًا إلى «درب الحجر»، كما حكيت من قبل، وتوثقت صلتي بكثير من أهل الحي..

وقد كنت - وما زلت - أشعر بأن الشباب المصري - الذي نلومه كثيرًا ونحن الجناة عليه - مضيَّع بين الإهمال والاستغلال.. وأن التنشئة السياسية والوطنية والثقافية والدينية للشباب المصري، في حاجة إلى «استراتجية جديدة» تأخذ آراء الشباب أنفسهم، وتضعها موضع التقدير، وتفي باحتياجاتهم، دون عُقَدٍ من الماضي، ودون استغلال لهم.. وبخاصة في ظروف ضعف «الأحزاب السياسية» ومنظمات المجتمع المدني بوجه عام، بسبب ما مرت به مصر من عهود الاستبداد.

وعندما اعتقلت بلا سبب في صيف ١٩٦٥، وبقيت في المعتقل نحوًا من ثلاثة أعوام، بلا سبب إلا أنني ممن سبق اعتقالهم، خرجت لأكمل بحثي للماجستير، وأنجز الزواج الذي تأخر إلى قرابة سِنِّ الأربعين.. فشغلت أمن المركز، وإن ظلت صداقتي بكثير من رجاله مستمرة، وفي مقدمتهم الأستاذ محمد عجرمة.. الذي انتقل مثلي إلى ميدان التعليم، وزرته أواخر الستينيات «ناظرًا» لمدرسة مصطفى كامل الإعدادية، وكانت في بيت الزعيم نفسه، الذي هدم بعد ذلك، دون أي إحساس بقيمة التاريخ، والتراث الوطني - أمام مبنى وزارة الداخلية في شارع شريف، قرب ميدان «لاظوغلي» وبجوار مسجد «الشامية»، وكنت سعيدًا عندما تجددت صلتي بالأستاذ عجرمة، بعد عودتي من باكستان في المرة الأولى، وكنا نصلى الجمعة بالأزهر أو نحوه من مساجد القاهرة الكبرى وكم أود أن تعود هذه الأيام، خصوصًا أنه الرجل الناشط كعادته، وهو أكبر مني بقليل، نحو عام أو اثنين، وما زال يؤثر كبار السن بخدمات صحية وثقافية واجتماعية.. أكثر اللَّه من أمثاله.

(٤٦) مع الوافدين

كان وفود الطلاب إلى مصر، والإفادة من مؤسساتها التعليمية، أحد الروافد الأساسية للتضامن والترابط بين الشعوب العربية والإسلامية، ومظهرًا من مظاهر «القوة الناعمة» لمصر، ونفوذها الأدبي في محيطها الآسيوي والإفريقي، حتى صدرت قرارات عجلى، أواخر الثمانينيات من القرن الماضي، لم تكن في نظري مفيدة لمصر، في عهد رئيس الوزراء علي لطفي. وكنا في إسلام آباد نستقبل عندئذ العائدين من مصر، من باحثي الدراسات العليا في باكستان، الذين غادروها لعجزهم عن دفع الرسوم الجامعية المبالغ فيها، والتي تتزايد عامًا بعد عام، وأشهد كأستاذ جامعي، أننا لا نقدم من الخدمات ما يوازي هذه الرسوم التي تحصل بالنقد الإسترليني.. وأما قوة مصر الناعمة فليست على بال المسئولين الجامعيين، ولم يبق لمصر في هذا الصدد سوى «الدور الأزهري» الذي يستقطب العديد من أبناء العالم الإسلامي.

١- كان الأخ عبد اللَّه القويري نموذجًا خاصًا، فوالدته مصرية من محافظة «البحيرة» ووالده ليبي، نشأ بمصر، وتعلم في الأزهر حتى التحق بدار العلوم، وتخرج فيها منتصف الستينيات، وكان شابًّا قوي البنية حسن المظهر سليم القلب، تلقائي التصرف، وقد ألتحق بالدراسات العليا، متخصصًا في الدراسات الأدبية بعد تخرجه، ونال في أواخر الستينيات إجازة الماجستير بتقدير مرموق، وأشهد أنه كان واسع الاطلاع شغوفًا بالمعرفة، يقتني في مسكنه بالمنيل مكتبة شخصية غنيَّة.

ألح عليه أهله، وأصدقاؤه الليبيون أن يعود إلى وطنه، وكان القذافي - عامله اللّه بما يستحق - قد استبد بليبيا، وجمع مقاليد أمورها كلها بيده، وأخذ يتفنن في إخضاع الشعب وإبعاده عن المشاركة الحقيقية في الحكم، بإلهائه بأشكال كانت تبدو خارج ليبيا كاريكاتورية، كاللقب العجيب الذي اتخذه لدولة ليبيا، وكالديموقراطية الشعبية التي اعتبرها طريقًا ثالثًا للإنسانية، بين الشرق الاشتراكي - حينئذ - والغرب الرأسمالي، في كتابه «الأخضر» الذي هو «مانيفستو الاستبداد»، وضرَبَ كل مؤسسات البلد حتى الجيش الذي جاء منه، واتخذ لنفسه ميليشيات قبلية، ومرتزقة مأجورين من خارج ليبيا؛ لإخضاع معارضيه.

المهم أن صاحبنا عاد، وانضم إلى هيئة التدريس بجامعة طرابلس، بعد نيله ماجستير الآداب والدكتوراه من دار العلوم. وأذكر أنه، وهو يعد رسالته، راجعها مع بعض زملائه الذين نصحوه باختصار بعض أجزائها، ولما انعقدت جلسة المناقشة، لامه أحد المناقشين على اختصاره لتلك المواضع وطالبه باستكمالها، فإذا به يجيبه، ناسيًا التقاليد والرسوم: واللّه قل لهم هؤلاء الجالسين هناك. وأشار إلى زملائه الذين نصحوا بالحذف والاختصار.. وسط ضحك الحاضرين، بمن فيهم لجنة المناقشة.

ولم ينسجم الدكتور عبد اللّه مع الأوضاع التي استحدثها طاغية ليبيا للتحكم في شعبها، واختراعه الخبيث «للجان الشعبية» التي تدير المؤسسات المختلفة، وقد يكون رئيس «اللجنة الشعبية التي تدير جامعة

«طرابلس» مثلًا، أحد العمال الذي يعمل فراشا بها.. وقد حكمت هذه اللجان مرة على أحد الأساتذة بالإعدام، ونفذت ذلك في ساحة الجامعة، وعلقت جثته على عامود؛ تمثيلًا به وتخويفًا لأمثاله.. والأخ العقيد الممسك بكل الخيوط والمقاليد.. يزعم أنه لا شأن له بالسلطة، وهو مجرد ثائر، ورجل مفكر منظر فحسب، يخادع الناس بمذهبه العالمي الجديد.. الذي عرضه في كتابه «الأخضر».. واستطاع بهذه «البهلوانية» أن يتحكم في ليبيا أكثر من أربعين عامًا.. حتى قضى اللَّه فيه بما كان.. واستباح الغرب ليبيا.. وتركها ممزقة مشلولة.. كما فعل في العراق وأفغانستان.. لكن صاحبنا لم يستسلم لتلك الظروف، وحكى لي أحد زملائه أنه فاجأ الجميع، عندما جاء القذافي إلى جامعة طرابلس واصطف الناس له، بأن غادر المكان محتجًّا، وهو عضو هيئة التدريس، ولعل القدر وحده هو الذي حماه من بطش اللجان الشعبية، إذ انتقل فجأة - في أربعيناته - إلى جوار ربه - رحمه اللَّه.

وأذكر أنني لقيته مرة دون ترتيب، بالنادي الثقافي المصري في قلب مدينة لندن - وكان ملتقى المصريين والعرب - وكانت جامعة طرابلس قد أرسلته للإسهام في أحد المؤتمرات، وبعد السلام أفهمني أن زميليه في «الوفد» ليسا سوى رجلي مخابرات كُلِّفا بمصاحبته، وكان عليَّ أن أراعي تلك الحال.. وكان هذا آخر عهدي به - رحمه اللَّه.

٢- كان الأستاذ «شبير أحمد الباكستاني». كما يلقب نفسه - مع أنه بنغالي من داكا عاصمة بنجلادش - احتجاجًا على الحركة القومية

الانفصالية المتطرفة التي كان يقول زعيمها الشيخ عبد الرحمن: إن الهندي البنغالي أقرب إليَّ من الباكستاني المسلم، وما زال حزبه يدعو إلى هذه الرابطة القومية المتطرفة، على حساب الروابط الأخرى. وإن كان الإنصاف يقتضيني أن أسجل هنا أيضا، أن إغفال السياسيين في باكستان الغربية - الحالية - جناحها البنغالي الشرقي، من حيث التنمية وإقامة العدالة، كان عاملًا قويًّا في نمو النزعة الانفصالية..

على كل حال، فإني كنت أزور - مع زميلي الأستاذ علي عشري صديقنا الشيخ شابير، الذي كان يجود علينا بالزيارة في دار العلوم، ونعاونه في دراساته العليا للتاريخ الإسلامي. وأذكر أنه، في مناقشة له مع الدكتور عشري، ذكَرَ العلامةَ «محمد إقبال» بإجلال شديد، وقال: إنني لا أصل إلى تراب أقدامه.. ومع ذلك فهو لا يخلو من فسوق!. وعندما سأل الدكتور علي مشدوهًا عن تناقض صدر الكلام مع آخره.. ذكر - حفظه اللَّه حيث هو الآن - أن الدكتور «إقبال» كان يحلق لحيته.. فعجبنا من المقاييس التي تنتهي إلى وصف أمثال إقبال بالفسوق.. ولكن الرجل كان مخلصًا وتلقائيًّا.. وشفافًا أيضًا.. في التعبير عن التزامه بمعاييره الثقافية الخاصة.. وللَّه في خلقه شئون.

٣- كان من بين الوافدين إلى دار العلوم من الشباب الخليجي، أحد الشباب النابهين من أسرة «الأنصاري» المعروفة، وهو يشغل الآن منصبًا مرموقًا في بلاده، وقد سعدت بزيارته أخيرًا في صحبة زميلي أ. د أحمد العسال - رحمه اللَّه - الذي كان نائبًا لرئيس الجامعة الإسلامية العالمية

بإسلام آباد، أثناء عملي رئيسًا لها. . فأكرمنا أيما إكرام. . ولم أجد من المناسب في هذا اللقاء، أن أذكره بقدومه - منذ قرابة ثلاثين عامًا - إليَّ، وكنت أتهيأ للسفر إلى لندن عام **١٩٧٣**م برسالة رقيقة من والده فضيلة الشيخ الأنصاري - رحمه اللَّه - الذي كان أحد أعضاء مجلس أمناء الجامعة بإسلام آباد فيما بعد - في التوصية بابنه القادم إلى دار العلوم. . وفيها قصيدة أمير الشعراء أحمد شوقي النونية، عن «الدار»، في ذكراها الخمسينية عام ١٩٢٧، التي كانت آخر حفل عام حضره الزعيم الأكبر سعد زغلول، وفيها يقول:

قد بلغتِ الكمالَ في نصف قَرنٍ   كيف لو تمَّت المَلاوةُ قرنَا

وقد أوصيت زملائي برعاية الشاب القادم من هذه الأسرة الكريمة، إلى دار العلوم، وقد انتقل بعدها للدارسة في الولايات المتحدة. . ومضى في سلكه الدبلوماسي بنجاح بارز، إلى أن بلغ في بلده منصب الوزارة. وفقه اللَّه!



(٤٧) مع العمل الجامعي

الجامعة: طالب وأستاذ، تعليم وبحث، تربية لكوادر المستقبل واستشراف له، تأكيد للشخصية الوطنية في الحضارة، وتسكين للمنهاج العلمي في العقلية العامة، وتقييم لمناهج النهضة، وانفتاح على العالم المفكر المبدع والمنتج على السواء. هكذا رأينا الجامعة فيما قبل تأميم الحياة المصرية كلها في منتصف الخمسينيات، سواء كانت هي كذلك يومئذ أو أننا كنا نتخيلها كما ينبغي أن تكون. . يؤلمني شخصيًّا أن أقول ذلك عن التغيير الثوري في منتصف القرن الماضي؛ لأن ما حدث عندئذ كان حِراكًا وطنيًّا حقيقيًّا، بعد اختمار فكري فيما بين الحربين العالميتين، وبعد التجربة المريرة لسقوط فلسطين، وعودة الجيش المصري، بل الجيوش العربية، غير منتصرة. . ويقول التاريخ: إن عودة القوات دون نصر في يدها ينذر بثورة أو تغيير. . ولقد حدث التغيير، وباطل من القول أن تتهم عناصره ومكوناته الوطنية . . لكن التجربة آلت عمليًّا إلى ضياع نصف قرن أو يزيد، وإلى تدهور الحياة المصرية كلها. . وتقزيم الوطن على يد مبارك وطغمته الفاسدة. . وخلا الجو لإسرائيل. . والنفوذ الأمريكي، والتبجح الرأسمالي، والظلم الاجتماعي.

حين تقدمت للجامعة عام ١٩٥٤، وجمعت بين الدراسة الأزهرية في «كلية أصول الدين» والجامعية «في كلية دار العلوم»، كان ما يزال في رأسي هذا الحلم أو الخيال. . أو التصور المثالي للحياة الجامعية. .

بالرغم من جو الأزمة الذي أخذ يغلف المناخ الوطني. . وانتهى بالفعل إلى استبداد بلا ثمن، كتحقيق التنمية مثلًا، بل انتهى بالخصم والتراجع من رصيدنا الوطني، وانكشف ذلك كله في هزيمتنا عام ١٩٦٧، التي ما زلنا نسدد «فواتيرها» حتى الآن.

وحين خرجت من السجن عام ١٩٦٠م، بإفراج صحي، ضمن أفواج المفرج عنهم عقيب الوحدة المصرية السورية في ١٩٥٨، وإن كنت لسبب ذكرته في حكاية أخرى، قد تأخرت نحو عام ونصف العام تقريبًا عن بدايات هذا الإفراج. . لم يكن في ذهني إلا استكمال دراستي الجامعية - التي توقفت خلافًا لما تقضي به قوانين السجون في مصر والعالم، سبع سنوات كاملة. . وقد أنجزتها - بتوفيق اللَّه - على نحو مرض بل مرموق. .

وجاءت فرصة التعيين بدرجة «المعيد»، وعينت في دار العلوم وأصول الدين كليهما، وإن تأخر تسلمي العمل فترة حتى تدخّل الدكتور عبد الرحمن أيوب بمبادرة تلقائية منه. . وجاءني من يليني في ترتيب التخرج بأصول الدين، فتنازلت له. . وبلغ ذلك أستاذي الدكتور عبد الحليم محمود، فلم يرضه إيثاري لدار العلوم على الأزهر - رحمه اللَّه - وأقول الآن: إن السبب الذي دعاني لهذا، مع أني بحمد اللَّه قد عدت إلى خدمة الأزهر، وصرت عضوًا بهيئة كبار العلماء، وشاركت في الإسهام في الوطني والفكري لمشيخة الأزهر بعد ثورة يناير. . أقول الآن: إني خفت من مجاملات الحياة الأزهرية، فلم يكن الجهد وحده - بل الوساطة والقرابة أحيانًا - سبيلَ التقدم. . أو هذا ما بدا لي في «دفعتنا» حينذاك. .

كان تعيني بقسم الفلسفة مناسبًا تمامًا لدراستي الأزهرية.. وكنت سعيدًا بالاقتراب من أستاذنا الدكتور محمود قاسم، إعجابا بشخصيته الفكرية.. مع أنه كان في التعامل الشخصي والإداري متشددًا، لا يشجع على الاقتراب.. وكنت على صلة بالزميل السوري الذي رحل مبكرًا بعد مرض عضال، وهو الأستاذ الزركان صاحب البحث المتميز عن «فخر الدين الرازي وآرائه الكلامية والفلسفية»، الذي ما زال عملًا متفوقًا في موضوعه، برغم مضي نصف قرن على إعداده، فاقترح عليَّ تسجيلَ الموضوع الذي كان يرغب في النهوض به - لولا اعتبارات معينة - وهو: «سيف الدين الآمدي وآراؤه الكلامية» فسجلته بإشراف د. قاسم؛ للحصول على درجة «الماجستير». وفكرت في الزواج.. وتقدمت بعض خطوات، في كلا الاتجاهين .. ثم طاردني الماضي، أو قل النظامَ الاستبدادي، أو قل رحمة اللَّه -تعالى- في حقيقة الأمر.. فقد اعتقلتُ في أزمة ١٩٦٥ التي صاحبت محاكمة الأستاذ سيد قطب - رحمه اللَّه - وما نسب إليه من تنظيم إرهابي موهوم أكثر منه حقيقي.. وإن كانت أفكاره «الأيديولوجية»، كما يعرضها في كتابه «معالم في الطريق» وكتابات أخرى له، تؤسس لوجهة أصولية في العمل الإسلامي، تختلف كثيرًا عن أسلوب حسن البنا في الفكر والعمل.. وقد حكيتُ في سياق آخر موقفي المعارض من هذا الفكر داخل السجن .. وبعد الخروج منه..

المهم أن دخولي السجن مرة أخرى، لنحو ثلاث سنوات - بعد السبع الأولى كان رحمةً من اللَّه - تعالى - في خضم الأزمة الشخصية التي كنتُ أمر بها حينذاك. وأما التوقف الدراسي فقد عوَّضَه أمران:

الأول أني كنتُ في معتقل قنا أُدَرِّس لمن في العنبر علم أصول الفقه من الذاكرة. . وأنني في «مزرعة طرة» كنت أقرأ مع الأستاذ الدكتور محمد رشاد سالم كتاب «المغني في أبواب التوحيد والعدل» للقاضي عبد الجبار. . وكان - رحمه اللَّه - لا يضِنُّ عليَّ بخلاصة تجربته العلمية، وخاصة في مجال تحقيق النصوص، كما أوضحت في مكان آخر. .

وحين عدت - بعد نكبة - ١٩٦٧ ، إلى دار العلوم، لم ألبث أن أنجزت البحث، وأتممت الزواج أيضًا في غضون عام واحد بعد زوال المشكلة التي عرضت لي قبل الاعتقال، بتوفيق اللَّه تعالى. . وكانت السنون الأخيرة من الستينيات مختلفة عن الأولى منها، التي شهدت النظام السري، الذي عرف «بالتنظيم الناصري»، وقد استقبل الدكتور قاسم (رحمه اللَّه) عودتي بروح نبيلة، وأذكر أنه، وقد وجدت في مجلسه يوما الدكتور حسن حنفى، عرفني به، ثم توجه إليه قائلا : أنت حسن الحنفي قادم من باريس، وهذا حسن الشافعي قادم أيضا من مكان بعيد. . وهي إحدى ملاحظاته الذكية - رحمه اللَّه - وأنا أستخدمها أحيانًا.

لكن القسم عندئذ لم يعد، كما تركته أواسط الستينيات، مقصورًا على الدكتور قاسم رئيسًا، والدكتور يحيى هويدي عضوًا، واثنين من المعيدين؛ إذ عُين عدد من المعيدين، بعضهم كان من تلاميذي - قبل الاعتقال، وعاد من «لندن» أستاذان؛ هما الدكتور أحمد غراب، والدكتور كمال جعفر - رحمهما اللَّه تعالى، فأما الأول فلم يلبث أن خرج معارًا إلى نيجيريا، ولم يعد بعدها إلى دار العلوم واستقر في لندن، حتى انتقل إلى جوار ربه. وأما الثاني فبقي في القسم، حتى تولى رياسته بعد وفاة الدكتور

قاسم، ولم يخرج في إعارة إلا أوائل الثمانينيات، إلى جامعة قطر، هاجمه خلالها المرض ومضى إلى جوار ربه أيضًا - رحمه اللَّه.

لسبب لا أعلمه، لم يكن بيني وبين الدكتور جعفر «عَمار»، كما يقول المصريون، مع أني أذكره طالبًا بمعهد القاهرة الديني، بيني وبينه نحو ثلاث سنوات أو أربع، وكان شخصية متفتحة يهوى الفنون، وخاصة التمثيل. ويتميز بالذكاء وسرعة البديهة، وبالنكتة المواتية.. وكان قد عاد بعد سنوات غير قليلة من الدراسة في «كمبردج» على الأستاذ «آربري».. المستشرق المعروف، ولكن الرجل، مع لطفه وتبسطه كان يضيق بي، وأعترف أني - حينئذ - لم أكن أحبه، وأجد بونًا شاسعًا بينه وبين الدكتور قاسم فكرًا ومسلكًا.. ولكني لم أسئ إليه قط.. ولم أدع له فرصة أن يسيء إليَّ..

ومضيتُ في عملي للدكتوراه، بعد الاستقرار الأسري.. وجاءت أزمة السادات.. مع مراكز القوى، وكنا في مؤتمر للموفدين إلى الخارج، فأرسلنا إليه من القطار المتجه إلى أسوان برقية تأييد، وسافر بعض زملائي إلى باريس، ومنهم «الدكتور» علي عشري.. وأذكر أنني حين أصدر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية كتابي «الأول»، وهو جزء من رسالة «الماجستير» عن الآمدي، بعثتُ إليه نسخة كتبت عليها كلمات كانت موضع التعليق من زملائه: «لقد صدر لك كتاب في القاهرة، وهذه نسخة منه». وسافر بعضهم إلى لندن، ومنهم زميلي الدكتور محمد السنهوتي، الذي عاد بعد عام واحد.. وتأخرت فرصتي في السفر إلى بداية الصيف عام ١٩٧٣م.

فاتني أن أذكر، وهذا قد يعطي ملمحًا جامعيًّا، أنني حين ناقشت رسالتي للماجستير، حملتها إلى أستاذي الدكتور يحيى هويدي الذي كان قد انتقل إلى كلية الآداب، وصار عميدًا لها، وكان وكيل الكلية أستاذًا للجغرافيا صار بعد ذلك رئيسًا لمجلس الشعب، وكان يجلس بين يدي الدكتور هويدي كتلميذ له، وكان شقيق الدكتور يحيى يعمل عندئذ وزيرًا للدفاع، وحين تغيرت الظروف بعد موت عبد الناصر، قلب القوم ظهر المجن، وعاش الدكتور هويدي ظروفًا غير مواتية أساءت إلى نفسيته كثيرًا. . وقد شارك الدكتور يحيى، وأستاذنا الدكتور إبراهيم مدكور في مناقشة رسالتي للماجستير، ومن طرائفها: أن الدكتور مدكور أخذ عليَّ في النص المحقق شرح بعض كلمات لا تحتاج شرحًا، كما لاحظ أن الفصل الأخير كان لون الورق فيه مختلفًا - وكنا بعد ٦٧ نعاني أزمة ونصرف الورق بتصريحات خاصة - وظن أنني فعلتها كوسيلة إيضاح أو لفت نظر. . ولم أجد موجبًا لبيان السبب الحقيقي. . وكان واضحًا أن الرجل استعرض البحث، ولم يكلف نفسه عناء قراءته، أما الدكتور هويدي فكانت له ملاحظات موضوعية، وكما كنا نناقشه بحرية ونحن طلبة، أجبته في وضوح وصراحة، لَمْ تُعْجِبِ الدكتور قاسم، وكانت ليلة مشهودة يذكرها الكثيرون. .

وفي هذه الفترة وقع حدث، ما كان له أن يبلغ حجمه إلى هذا المدى، لولا النظام القمعي، الذي مدَّ ظلاله السوداء على أوضاع الجامعة حينذاك؛ فقد أجرت الكلية انتخابًا لاتحاد الطلبة، وكان المرشحون المعتادون الفوزَ بأساليبهم التي يجيدونها، ويُرهبون من

يتصدى لهم، هم بقايا الاتحاد الاشتراكي، ولكن الوسط الطلابي كان قد بدأ يضيق بهم. وقد لا ينسى القارئ الكريم أن ثاني مظاهرة في العهد الناصري كانت عام ١٩٦٨ وكان قوامها الطلبة. (كانت الأولى من جامع الأزهر إثر خطبة للشيخ محمد الغزالي هاجم فيها مساس رسم كاتيكانوري لشخص النبي - صلى اللَّه عليه وسلم -).

ولسوء حظي انتدبتني الكلية للإشراف على الانتخابات لاتحاد الطلاب، ومعي الأخ أبو الفتوح - رحمه اللَّه - الذي كان عاملًا بالمكتبة، لكنه خبير مكتبات وتراث في واقع الأمر. وحين أحست هذه العناصر المشبوهة المكروهة، بغلبة المستقلين من الطلاب، أصروا على أخذ راحة لحاجتهم إلى الغداء، وكنت رافضًا ذلك لتوقعي أساليب التزوير التي أوقفناها تمامًا، واضطررت للموافقة. ونجح المزورون في تخويف السيد / أبو الفتوح، فَدَسَّ في الصندوق مائتي بطاقة مملوءة سلفًا لصالحهم، وحين بدأنا الفرز لمحت مظاهر العبث، فراجعت كل البطاقات بنفسي، ولاحظت زيادة عدد التذاكر على عدد الطلاب المشاركين في الانتخاب، ولكن لسوء حظهم ولأن الجريمة لا تفيد إذا صادفت مقاومة، فقد اكتشفت أن البطاقات المئتين الزوائد، تحمل تاريخ اليوم السابق، وتساوي تمامًا الفارق بين عدد المصوتين وعدد التذاكر. وهنا أصررت على استبعادها وإعلان النتيجة الحقيقية، والكل يرهب المزورين الذين أرسلوا البرقيات إلى رئاسة الجمهورية، وغيرها من المؤسسات، يتهمونني ويثيرون الماضي، وكان الوحيد الذي لم يعبأ بكيدهم هو الدكتور محمود قاسم «العميد الحقيقي»، أو آخر العمداء، كما شهد له خصم صار عميدًا بعده.

وفي صباح اليوم التالي، جاء إلى الكلية وفدٌ من إدارة الجامعة، يضم ستة من المسئولين، على رأسهم - كما تقول العبارة غير الديموقراطية - الأستاذ الدكتور المستشار القانوني لرئيس الجامعة، وعقدوا اجتماعًا بمكتب وكيل الكلية، مع الدكتور قاسم، في المبنى القديم بالمنيرة، وطلبني الدكتور قاسم الذي سيطر بشخصيته على الاجتماع، ولم يدع فرصة لأحد، فحكيت الوقائع الموضوعية، ولكنه وبيده البطاقات المزورة، مختومة بتاريخ اليوم السابق على الاقتراع، طلب مني أن أفسر كيف وقع حادث التزوير، فحكيت الإصرار على فترة التوقف للغداء، ولكنهم أثناء قيامي بأداء صلاة الظهر بالقاعة، أرهبوا الكاتب المساعد، ودسوا البطاقات، ولوضوح الوقائع وقوة شخصية العميد، وحرصه على الحق، لم يسع الجميع إلا الاقتناع وإقرار النتيجة، وإبلاغ الجامعة بها.

جاءتني فرصة السفر في ١٩٧٣، أول مايو، وقدر الدكتور قاسم لي أني قررت إيثار السفر، مع أني كنت قد طبعت - بإشرافه - الجزء الأكبر من رسالة الدكتوراه، وكنت في الثالثة والأربعين من العمر. . وكان هو قد أحيل إلى التقاعد، وازددت اقترابًا منه، وكان يحرص أن يحكي لي تجاربه في الكلية. . ومواقفه مع بعض أعضاء هيئة التدريس، المتظاهرين بشيء ويتصرفون بخلافه - رحمه اللّه. وتلطف فأقام لي حفل وداع ليلة السفر بحديقة منزله. وقد حكيت من قبل رسالته إليَّ عقيب حرب أكتوبر - في «رسالة من الآخرة» - وقراري ليلتها بالاستمرار في لندن وإنجاز الدكتوراه، برغم افتقادي أية منحة أو معونة مادية إلا راتبي في القاهرة، وكان العميد

حينذاك الدكتور أمين السيد - يعرفني جيدًا، ويقدر همتي في الإقدام على إكمال الرسالة في الخارج، دون معونة إلا راتب المدرس المساعد، وكانت في الحقيقة قصة كفاح، شاء اللَّه -تعالى- أن يكللها بالنجاح.

وحين عدت عام ١٩٧٧ كان الدكتور محمد كمال جعفر - رحمه اللَّه - رئيسَ القسم، وليس معه أحد، فالدكتور إسماعيل عبده قد انتقل إلى جوار ربه، والدكتور العراقي قد انتقل إلى كلية الآداب، وليس إلا طائفة كبيرة من المعيدين، عينهم في تلك الفترة، من تلاميذه - حوالي خمسة - وكان اثنان آخران من المدرسين المساعدين - هما «الدكتور» عبد الحميد مدكور، و«الدكتور» حامد طاهر - يدرسان في باريس - وقد زرتهما قبل عودتي. وعملت معه، واشتركنا في تأليف بعض الكتب، ولم أكن قط يومًا ممن يهتمون بالاستكثار من المحاضرات أو بيع المذكرات، بل أقول - دون فخر-: إنني صاحب سُنَّة التسوية - عندما صرتُ رئيسًا للقسم - بين جميع أعضاء هيئة التدريس، أيًّا كانت درجاتهم، في حصيلة سائر الكتب المقررة بسنوات الكلية دون فرق، وقد جرى على هذا التقليد بعض الزملاء من بعدي، ثم غلبت روح الاستئثار والأنانية من جديد، وعادت «ريمة إلى عادتها القديمة». .

على كل حال، عملت مع الرجل باحترام متبادل، وبعد سنتين من عودتي، جاءتني دعوة لزيارة جامعة أم درمان بالخرطوم، ورفض الموافقة عليها في القسم، فوجهت شكواي إلى مجلس الكلية، وكان العميد الدكتور عبد اللَّه درويش سلبيًّا، ولكن أعضاء المجلس لم يقتنعوا بموقفه، ولا بقول الدكتور جعفر - بطريقته الساخرة المعهودة: «نحن

نسمع طول عمرنا عن أستاذ زائر لا مدرس زائر..» مع أن هذه الجامعات تعتبر المدرس في النظام المصري أستاذًا مساعدًا، وسافرت إلى الخرطوم، وأكرم الإخوة السودانيون وفادتنا، ولكني لم أمكث أكثر من شهرين درست فيهما عدة مناهج لأن زميلي رئيس القسم - تلميذي سابقًا - الدكتور أحمد الجلي، تركنا وسافر معارًا إلى الإمارات.. وسافرت في العام نفسه إلى أم القرى بموافقة الدكتور جعفر، ومكثت شهرًا واحدًا بمكة المكرمة، حكى قصته الدكتور المطعني - الأستاذ بكلية اللغة العربية - في كتاب له، إذ كنا مقيميْنِ معًا، في فندق أمام باب الملك عبد العزيز للحرم الشريف، ووقع حادث الحرم - أول القرن الخامس عشر الهجري - وجاء مندوب الجامعة قبل الحادث بساعة واحدة، ونقلني إلى حي «الششتة» قرب الجامعة، فقضيت بقية الشهر في شقة بدار ضيافة الجامعة مع الدكتور عبد الرحمن يسري المعار من جامعة الإسكندرية، وكانت أم القرى ما تزال فرعًا من جامعة الملك عبد العزيز بجدة، وصممتُ على العودة إلى القاهرة، لمعاملة بعض الإداريين لي، رغم إلحاح الزملاء الأكاديميين، ومنهم الدكتور علي وكيل الكلية حينذاك، وعدت إلى القاهرة بعد شهر واحد، وحياني لذلك الموقف الدكتور فهمي حرب.

وحين تمت السنون الثلاث المبيحة للإعارة الكاملة، جاءني - في مبنى المنيرة القديم - الدكتور حسين حامد حسان والدكتور عبد الحميد الغزالي، واتفقوا معي على السفر إلى الجامعة الإسلامية العالمية بإسلام، زائرًا أول الأمر، وكانت ما تزال بعد برنامجًا وحيدًا للدراسات

العليا، يشرف عليه الدكتور حسين والدكتور عبد اللَّه نصيف رئيس جامعة الملك عبد العزيز، ويرعاه الجنرال محمد ضياء الحق رئيس باكستان حينئذ بنفسه.. وتمت الزيارة، ثم الإعارة، ضمن مجموعة من هواة العمل الجامعي، كانوا طائفة مختارة من الأساتذة المصريين، جديرة جهودهم بالتسجيل في حكاية أو حكايات أخرى. بإذن اللَّه!!!



(٤٨) ميدان التحرير كعبة الربيع العربي

(المشهد من موقع القهوة «زد Z»)

كتبتُ «كُتيِّبًا»، عن تجربتي في خضم الربيع العربي، وأيامه الزاهرة الأولى في ميدان التحرير بالقاهرة، ذاع في العالم العربي، منذ وزعت نسخه الأولى في «معرض الرياض للكتاب». وأعيد طبعه خلال العام نفسه، بعنوان: «شهادة أزهري معاصر على مسار التحول الديموقراطي في مصر».

وأكتفي في «حكاياتي» هنا بأن أحكى قصة زيارتي الأولى لميدان التحرير، يوم الثامن والعشرين من يناير ٢٠١١، ومعايشتي للجو الرائع الذي تفوقت فيه مصر على نفسها، وكشفت عن أنبل خصالها، وأنقى قيمها، وأروع مشاعرها، وأشجع مواقفها: الطاغية مذعور في قصره، يحاول طُغمته عبثًا تجميلَ وجهه القبيح، أو تطويلَ عهده البائس الكسيح.. والشعب كتلٌ في الميدان.. شيوخ وفتيان، وفتيات سوافر ومحجبات، بلا حسّاسية أو احتقان.. ومئات الألوف دون حادثة واحدة لاحتكاك أو تحرش، أو خلاف أو مجادلة، أو سرقة أو بهتان.. كأنما هو شعب نازل من السماء، نقيَّ النفس والضمير واليد واللسان.. يحرس المسيحيون صفوف الصلاة، ويحيط المسلمون بمواكب الترانيم والمناجاة.. يتقاسمون التمر وزجاجات المياه.. ويتبادلون النظرات إلى بعضهم البعض في ثقة واعتزاز.. وكنت؛ لسنِّي وزيي الأزهري

ولحيتي البيضاء، أحظى بنظرات ذات مغزى، ترجمتُها بمطلع النشيد المعروف: واللَّه.. زمان يا سلاحي اشتقت لك.. في كفاحي!!

وأمام قهوة «زد»، وفي مواجهة تمثال عمر مكرم، يوجد مبني المتحف المصري، وعلى شمالها شارع الشهداء = محمد محمود سابقا ومبنى الجامعة الأمريكية، وعلى اليمين شارعا التحرير وطلعت حرب، هو مكانٌ قادني إليه الشباب المنظِّمون، دون تفتيش لثيابي الفضفاضة الشفافة، بعماتي البيضاء الأزهرية، وكانوا يفتشون في لطف وأدب - الداخلين. وهو مكان تعودت أن أذهب إليه قديمًا - وأنا من سكان شارع الفلكي - لأجري اتصالًا تليفونيًا، حين لم أكن أملك جهاز التليفون؛ أو أشرب فنجانًا من القهوة بعيدًا عن قهوة الناصية، التي تحتلها «البيتزا» الأمريكية الآن، وكانت حينذاك مكانًا مشبوهًا، فانتَقَلْتُ من مشبوهٍ إلى مشبوه.. وللَّه عاقبة الأمور.

يمر عليَّ شاب أعرف ملامحه «البني سويفية» يقول: أنت الشيخ حسن الشافعي؟ فأقول: نعم أنا حسن.

فيقول: وأنا طبيب ابن «الشيخ عبده» صاحبك، وكان حجارًا يَنْحتُ الصخور لإعدادها للبناء، مهنة سقراط الحكيم، وكانت له حكمة - علم اللَّه - وبيان، وقوة حجة وبرهان، وكنتُ آوي إليه وإلى قرينه إسماعيل الشافعي، وأنا شاب في الحادية والعشرين أقيم مع أخٍ لي في مدينة بني سويف، وكان إسماعيل هذا «شيخ الرشاشين» أو مفتشهم، عاملًا بسيطًا في تمهيد الطرق غير المرصوفة، ورشها بالماء، لكنه كان مثقفًا، خطيبًا

بليغًا، لديه ما يحسن تقديمَهُ من فكر وبيان، ومثلهما «الترزي حامد العربي» شقيق الشيخ محمد عبد اللَّه العربي الذي حكيت زمالتي له بمعهد القاهرة الديني - في حكاية أخرى - كانوا أصدقائي الثلاثة بالمدينة.

ومن هذا المكان وقفت أخاطب جموع الميدان، بعد أحداث «محمد محمود» وقلت: إن الدم المصري ليس رخيصًا، ولا هو ماء يراق، بل هو غال عزيز. ورويت حديث فضل الشهيد: «للشهيد عند اللَّه سِتُّ خصال: يغفر له عند أول دفقة من دمه، ويُرى مقعده من الجنة، ويزوج من الحور العين، ويؤمَّن من عذاب القبر ومن عذاب النار، ويشفَّع في سبعين من أهله، ويلبس تاج الوقار الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها». وكان الشيخ مظهر شاهين، إمام مسجد عمر مكرم، معي في هذا الموقف، وكنت قد واعدت زميلي الأستاذ الكبير محمد سليم العوا، الذي لازم الميدان - تقريبًا - طوال الأيام الثمانية عشرة، ولكن لم يقدر لنا اللقاء، وقادني يومها إلى خارج الميدان، إلى شارع الشيخ ريحان، وأركبني «تاكسي» إلى الدقي، حيث أقيم، قس من قساوسة «البروتستانت» ، في بدلة مدنية سوداء، مع «الياقة» البيضاء.

وقبل انصرافي: جاءني شابٌ فتيٌّ، وقال: هل تأذن بصورة مشتركة؟

فقلت له: أهلًا وسهلًا، حُبًّا وكرامةً. ووقفنا نتهيأ ليتولى أحد جيراننا التصوير، فمال هو في أذني، وقال: «لكن أنا اسمي كذا عريان (أُنسيت الاسم الأول) في إشارة إلى أنه قبطي، كما يدل الاسم.

فقلت له: أهلًا وسهلًا على كل الأحوال. وبعد التصوير توجهت إليه:

يا أخ عريان - أنا كما تراني رجل أزهري، وأنا من بني سويف،

قرية تسمى «بني ماضي»، وكان أبي شيخًا أزهريًّا يعمل بالتعليم، له مكانة بين أهله، وكان من أقرب أصدقائه إليه «المعلم روفائيل» وهو كبير الإخوة الأقباط بالقرية المجاورة «البرانقة»، وفيها مجتمع يبلغ ثلث سكانها من الإخوة المسيحيين الأرثوذكس.. وقد عوَّدني أبي - رحمه اللَّه - أنني، وأنا صبي أحفظ القرآن بالكتاب ،أن أركب الحمار - الذي يركبه أبي إلى مقر عمله - يوم عيد الأضحى كل عام، ويضع أمامي لفافة، فيها ثلث الأضحية بعد ذبحها، طبقًا للسُّنَّة المتبعة في هذا الشأن: ثلث الأضحية للأصدقاء، وثلث لأهل البيت، والثلث الأخير للفقراء.. وضاحكته قائلًا:

أنت تعلم أنه ليس عندنا إلا عيدان، واحد منهما فقط للأضحية، أما عندكم فالأعياد كثيرة، فكنا نحن دائمًا «الكسبانين».

ازداد الأخ عريان سعادة، وكذا الجيران الذي يسمعوننا أماما القهوة (Z)، في هذه الأيام الرائعة التي لا يماثلها روعةً إلا الأيام الأولى من حرب التحرير واسترداد الكرامة في ٦ أكتوبر **١٩٧٣**م.

كلما ارتفعت أعلام الوطن، وعَلَت مطالب الشعب الحقيقية: عيش، وعدالة، وكرامة إنسانية - اختفت هواجس الفتنة والشيطان، وترهات «الصفوة»، التي طالما وقف أكثرها بجانب الطغيان، ومصالحُ السياسة والمنتفعين، والمستبدين وعبيد المستبدين، الذين تجرأُوا على القول بأن ثورة يناير، هي «عملية يناير»، أو بداية الفوضى، أو مشروع الغرب، على يد عملائه الشباب إلى آخر الأكاذيب.. ولكنه، أعني **٢٥** يناير - أمجد أيام جيلنا - سوف يُسكِتُ هؤلاء، بما رسَخَ في ضمير

الشعب، وما أسقطه ٢٥ يناير من جدار الخوف الموهوم، وبما أطلقه من المخزون الحضاري العتيد لهذا الشعب العظيم. . «وإن غدًا لناظره قريب». . تلقينا الربيع العربي من تونس ومن الأخ بوعزيزي، ولكن مصر تصدَّرَته، وميدان التحرير صار - وسيظل - كعبة الربيع العربي بإذن اللَّه .



(٤٩) الدكتور سعيد بدوي - رجل حسن الخلق

سمعت به وعرفت بعض شأنه، وهو يدرُس مبعوثًا من «دار العلوم» في جامعة لندن. كان يعرف الإنجليزية قبل سفره لاقترانه بإحدى زميلاته في التدريس بمصر، البريطانية الجنسية، فكان وقته خالصًا لدراسة تخصصه الدقيق، في علم اللغة الحديث. وهو الفرع الذي كتب أول نص عربي فيه «درعمي» آخر درس في باريس، هو الدكتور علي عبد الواحد وافي.

ثم عرفته عن قرب لدى عودته أوائل «الستينيات» من القرن الماضي، لينضم إلى هيئة التدريس بالدار.. لو أردت أن ألخص صفاته منذ عرفته وحتى فقدناه - بعد صراع غير قصير مع المرض الخبيث - خريف عام ٢٠١٤م، لقلت: الذكاء، وصفاء الذهن، والعفة، والوفاء، وصدق اللهجة، والمروءة.. وسماحة النفس والطلعة، وطهارة اللسان.. ومن يعرفون الرجل يعلمون أني ما بالغت - علم الله!

عاد من بعثته الدراسية إلى دار العلوم ضمن كوكبة من الرجال؛ منهم الدكتور محمود الربيعي، والدكتور أحمد مختار، وكان عميدها حينئذ محمود قاسم، الذي يعرفه منذ كان تلميذا له أوائل الخمسينيات، وكان بينهما تقدير متبادل، حتى فرق بينهما الأجل. وكان ممن يملكون الكلمة المستقلة في حضرة قاسم المؤثرة. ولم يغادر الدكتور سعيد مصر بعد ذلك، إلا لفترة محدودة معارًا إلى جامعة أم درمان بالسودان، لكنه لم يلبث أن غادر «الدار» كلها بعد بضع سنوات إلى الجامعة الأمريكية،

وظل يعمل بها إلى أن وافاه الأجل المحتوم، وكان عمله بها طيب الأثر على زملائه المصريينن الذين كانوا يعاملون في بلدهم معاملة جائرة، بالنسبة إلى الأساتذة الأمريكيين والأجانب، فتولى مسئولية جمعية هيئة التدريس، ووقف وقفةَ رجولةٍ وتضحية. في مواجهة «الإدارة الجامعية» غير المنصفة، حتى نجح في تغيير هذا الوضع البائس إلى حد كبير.. وما أحسب زملاءه هؤلاء إلا يذكرونه بالخير.. بل إنه كان يحظى - كما لمست بعد سفري إلى إنجلترا - بثقةٍ وتقديرٍ بالغيْنِ، في أوساط العلماء الغربيين، لموهبته العلمية، وصفاته الشخصية.

اعتاد بسبب ظروفه العائلية أن يزور «المملكة المتحدة» وأيرلندا صيف كل عام، فكان على صلة وثيقة بالفكر الغربي، وخاصة في المجالات اللغوية..، وكان يحرص على الإفادة من الرخصة المعمول بها في الجامعات الأجنبية، وهي «عطلة العام السابع»، للقيام بمشروعات علمية في أوربا وأمريكا. ومن أمجد إنجازاته، في هذا الإطار، إكماله مع زميله، وصديقنا المشترك، الدكتور محمد عبد الحليم، رئيس قسم الدراسات القرآنية بجامعة لندن: «معجم المعاني لألفاظ القرآن الكريم» بالإنجليزية، الذي يعده المشتغلون بالتراث الإسلامي في الغرب، من أهم الخدمات العلمية في مجال الدراسات القرآنية، في الفترة الأخيرة، وخاصة في نطاق ترجمة معاني القرآن الكريم إلى غير العربية.

وفي زياراته تلك، كان يحرص على أمر، قلما التفت إليه غيره، يُلزم نفسه به طواعية وسماحة، وحبًّا بالعلم وأهله، وهو أن يزور الدارسين المصريين من معارفه هناك، مشجعًا وموجهًا، وقد زاد - لطفًا منه - في

حالتي أن جاء بزوجه الكريمة وأولاده، طفلتين صغيرتين عندئذ، مع أخيهم الأكبر صبيا، وأسعدهم أن يأكلا الطعام المصري في «هيبرى» شمال مدينة لندن.. وأشركني في زيارة بعض زملائنا هناك، ومنهم الدكتور محمد شفيع الدين السيد، عضو مجمع اللغة العربية الآن.

وكان - وهو الأستاذ بالجامعة الأمريكية، الوثيق الصلة بالأوساط العالمية، من عشاق القاهرة القديمة وثقافتها وجوها الخاص. صحبته مرة ومعه الدكتور الربيعي، في أحد ليالي المولد النبوي، إلى حي القلعة، ليُلقى نظرة على «الحارة - نسيت اسمها» التي كان يسكنها، وهو طالب بدار العلوم، خلف مسجد السيدة عائشة بنت جعفر الصادق - رضي اللّه عنهما.. وهناك اقترحت عليهما أن نزور فضيلة الشيخ محمد الحافظ التيجاني، بالزاوية التيجانية الرئيسية بالقاهرة، في حارة «الدالي حسين» المتفرعة من شارع الخيميه بالمغربلين.. وصلينا العشاء مع الشيخ يؤمنا أحد مريديه؛ فقد كان الرجل بالغ الإعياء لمرضه الأخير الذي وافاه فيه الأجل عام ١٩٧٨م. وانعقد المجلس بعد الصلاة، ولعلى أحكي وقائعه في سياق آخر، وليلتها سألت الشيخ سؤالًا، دعاني إليه دقة المعاني التي يتضمنها الدعاء، المشهور بين القوم بـ «صلاة الفاتح»: «اللهم صلِّ على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق، والخاتم لما سبق.. إلخ»؛ قلت: أليس فهم المعاني يزيد في ثواب الداعي، بمثل هذه الصيغة وغيرها؟ فأجاب الشيخ على الفور: بل هو شرطٌ، يريد أن يؤكد أن فهم المعنى شرط لاستحقاق الثواب أصلا، فضلا على الزيادة فيه. ثم دعا الشيخ ولده «الشيخ أحمد التيجاني» شيخ الطريقة الآن، أن

يأتيه بالجامع الصحيح للإمام البخاري، - المجلد الفلاني - وأخذ يقلب صفحاته، دون أن ينظر إلى أرقام الصفحات، كأنه يحفظها ويعرف كلًّا منها بلمس يده، حتى وقف عند صفحة معينة، تحوي الأحاديث المتعلقة بأسمائه - صلى اللَّه عليه وسلم - وقال لولده: اقرأ، فقرأ:

كان الدكتور سعيد بدوي - رحمه اللَّه - جالسًا إلى جانبي، فأسر في أذني: «هذا الرجل يرى بأصابعه»، ولم أنس هذه الكلمة منذ ذلك اليوم.

وهذه القصة تذكرني بعلاقة خاصة كانت بين الدكتور سعيد وفضيلة الشيخ «محمود أبو هاشم» شيخ الطريقة الشاذلية الهاشمية في الشرقية، وكان عالما أزهريا صوفيا، يرأس منطقة التعليم الأزهرية بالزقازيق، وكان من شأنه أن يصحب كل أصحاب الحاجات إلى من يعجزون عن لقائهم من المسئولين، لا يسأل من يندبه إلى ذلك عن شيء، ولا يعطيه موعدا بل يصحبه في الحال، مسلما كان أو غير مسلمٍ، ما دام شاكيًا، يرى نفسه مظلومًا. وكان من بركات هذه الصلة أن جمعَ الدكتور سعيد بين الشيخ أبى هاشم - وهو رجل درويش - والدكتور محمود قاسم، وكان العقل أغلب على فكره، بل وعلى حياته فيما أحسب. وكان موقفه من التصوف غير إيجابي، حتى ذلك الحين. . وأعتقد أن العناية البالغة التي أولاها شيخنا محمود قاسم لفكر محيى الدين بن عربي، وكتابه «الفتوحات المكية» بوجه خاص، وما أثمرته هذه العناية من مؤلفات عدة، تشق طريقًا خاصا، أو تضيف تناولًا جديدًا للتراث «الأكبرى»، ترجع إلى صلته بالشيخ أبي هاشم. وهذا الشيخ - كما حكى لي آخرون - كان يصف الدكتور سعيد بدوي بقوله: «هذا رجل حسن الخلق، ليتني كنت مثله!!».

وتلك شهادة ليس بعدها شهادة!!

(٥٠) الشيخ محمد الحافظ التيجاني - الحافظ الحجة

أرسلني أستاذي الدكتور محمود قاسم أحد أيام الخميس، أواخر عام ١٩٦٣ من القرن الماضي، إلى صديقه الدكتور عبد الحليم محمود - شيخ الأزهر لاحقًا - بسؤال: عما عساه ثبت من أحاديث نبوية شريفة في شأن فكرة «الأقطاب والأوتاد والأبدال»، فأرسلني فضيلة الشيخ بدوره إلى صديقه الحافظ الحجة محمد الحافظ التيجاني، في زاويته بحارة «الدالي حسين» قرب المغربلين. كان الشيخ صائمًا فأبقاني معه بعد أن صليت الظهر خلفه إلى أن تناول فطوره وأشركني معه.. وانعقدت صلتي بالشيخ، وبالزاوية التيجانية بحارة «الدالي حسين» بالمغربلين، أصلي فيها مع الشيخ ومريديه، أو خليفته من بعده، طوال نصف قرن، صلاة التراويح، في ليلة السابع والعشرين من رمضان كل عام، يرجحون أنها ليلة بدء نزول القرآن الكريم، ويتلون المصحف كله في صلاة التراويح في ثلاث جماعات، كل منها يتلو عشرة أجزاء..

وأذكر أني تعوّدت أن أجد، هناك في هذه الليلة أستاذنا الكبير، الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة، وأظنه سيناويًّا من العريش، حيث تشيع الطريقة هناك، وفي محافظة الشرقية ومنطقة القناة.. - وقد قال لي يوما، ونحن عائدون من صلاة الجمعة في مسجد «عمر مكرم» إلى بيته القريب، وأنا أسكن بعده بجوار دار العلوم القديمة في بداية شارع «الفلكي»: أنا تيجاني منذ ١٩٢٨م - وكان ذلك أول التسعينيات فيما يربو على ستين عامًا - وما تركت أورادي قط».

قلت لإخواني عندما اختاروني، لسنِّي، رئيسًا لاتحاد علماء الصوفية بمصر: إنني لا أصلح لذلك، فالصوفي الحق من يحافظ على أوراده، على اختلاف ظروفه، ولست بذاك.. فلم يستمعوا لي؛ لحسن ظنهم بالمسلمين، وأن الباعث على هذا الاعتذار هو التواضع؛ فهو من المؤهلات لتلك المكانة.

ولكن المرء لا يستطيع أن يزيف الحقيقة على ربه - وهو أقرب إليه من نفسه - ولا على نفسه أيضًا.

ذاكرت المسألة - التي تشغل الدكتور قاسم - مع الشيخ؛ فأفاد - رحمه اللَّه - أنه كتب فيها مقالا، نشر بمجلة الطريقة التيجانية «طريق الحق» - التي توقفت بعد موته ؛ لقانون صدر زمن مبارك بوقف كل مجلة يموت صاحب امتيازها، وكانت من أكثر الدوريَّات تأثيرًا في أفريقيا، من السنغال إلى نيجيريا - سيعطيني نسخة منه بعد تصويرها. وخلاصته أن حديثا في الأبدال ورد في مسند أحمد - كما أذكر الآن بعد نصف قرن - وأنَّ هذا الحديث مقبول لدى أهل الحديث بدرجة «الحسن» إن لم يكن «صحيحًا». ولخصت الإجابة وحملتها إلى شيخي بدار العلوم، انتظارًا لصورة المقال المكتوب. وأذكر -لمجرد المناسبة- أن الشيخ أبا الحسن الندوي، علامة الهند، أورد ، في كتابه «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» ، قصةً عن أحد صوفية الهند، أمره شيخه بالذهاب إلى مدينة للدعوة، فتساءل - فيما بينه وبين نفسه: لم يرسلني الشيخ إليها وفيها أحد كبار العارفين من الدعاة المحققين؟ لكنه نفّذ الأمر أدبًا مع شيخه، وتناسى حديث نفسه، وعندما وصل إلى مشارف المدينة وجد جنازة الشيخ خارجة إلى المقابر..

وانعقدت الصلة بالشيخ التيجاني؛ وجدت فيه رجلا عربي المظهر في بساطة، هاشمي الوجه في بشاشة وسماحة، فصيح اللسان جميل العبارة، عالمًا بعلوم الشريعة، وخاصة الحديث الشريف الذي اختص بأكثر اهتمامه، ونال فيه رتبة الحافظ، كشيخه مؤسس الطريقة التيجانية، الشيخ أحمد التيجاني - رحمه اللّه . كنت أتردد قليلا في مواعيد متفاوتة على الزاوية التيجانية، ولكني أحرص - وما زالت إلى اليوم بحمد اللّه - على الليلة «القرآنية» كل عام منذ ذلك اللقاء، في السابع والعشرين من كل رمضان.

في إحدى هذه الزيارات - كما أشرت في مقام آخر، من هذه الحكايات جرى حوار علمي خَصب مع الشيخ، سُجِّل لحسن الحظ على «أسطوانة CD» على قلة هذه التسجيلات بالنسبة للمشايخ، لكن حرص تلاميذه، وكان ذلك في العام الأخير من حياة الشيخ، أن يحتفظوا ببعض الآثار الباقية، وكان مدار الحوار حول رسالة الشيخ الأكبر - التي رواها بهاء الدين العاملي في «الكشكول»، وطبعت مفردة بعد ذلك - إلى الإمام الرازي: وفيها يخاطبه أن يكون رجلًا، فهل للشيخ قول بنقص الأنثى؟ ولاعتمادي في هذه الحكايات على الانطباعات والذكريات لا الوثائق؛ فإني أرجح أن إجابته كانت نفي فكرة النقص، وإنما هو التنوع؛ إذ للشيخ الأكبر لفتات بارعة في هذا الصدد، فيها أن المرأة خلقت - كما جاء في الحديث الشريف: «من ضلع أعوج، وإن أعوج ما في الضلع أعلاه، فإذا ذهبت تقيمه كسرته»، يقول الشيخ الأكبر : ولكن كمال القوس في انحنائها؛ فلكل جنس كماله الخاص، والإمام خلق رجلا، وهو يوصيه أن يكون كاملا بين الرجال. وأذكر أن الشيخ - وكان أقرب إلى الشباب عند

كتابة الرسالة: يشير إلى الميول الروحية في شخصية الإمام الرازي، التي غلبت عليه في أخريات حياته، مما يفيدنا في تحديد تاريخ الرسالة، وقد سبق للشيخ أن لقي - وهو يافع ناشئ بعد أن عرف طريقه، وترك وظيفته في النظام الأندلسي - القاضيَ الفيلسوفَ أبا الوليد ابن رشد، وخاطبه خطابًا دَلَّ على افتراق الطرق بالمفكريْنِ، أما مع الرازي فقد كان محيي الدين في منتصف حياته تقريبًا حول الأربعين.

ومن اللافت للذهن أن يأتي الاتصال في الحالتين من جانب الشيخ الصوفي، مع أكبر مفكري المشرق وهو المغربي الأندلسي، مما يكشف، ليس فقط عن استيعاب الرجل لأفكار عصره، بل عن انشغاله بها وبأصحابها أيضا، وبموقفهم من التصوف والحياة الروحية.

وأذكر أنني تجرأت في هذا اليوم، وطلبت من الشيخ «الإجازة»، وكان همي موجها إلى علوم الحديث، وكان طلبي بعد صحبة امتدت خمسة عشر عاما.

فطلب الشيخ في سخاء من أحد كبار مريديه، وهو السيد الشريف - لا أذكر الاسم بالتحديد - الملازمُ له، والقائم على أمر المجلة، أن يُعدَّها، وكانت «إجازة» لي بكل علومه، وما تلقى من أشياخه: في اللغة العربية، والشريعة الإسلامية، والسلوك الصوفي - رحمه اللَّه. وإن مما هو جدير بالتسجيل هنا أن توقيع الشيخ على هذه الإجازة، هو آخر توقيع له في حياته، وكل وثائقي من هذا القبيل - أعنى الإجازات العلمية التقليدية - هي عند أخي الدكتور الشيخ أسامة الأزهري، وقد تفضل بذِكرِ طرفٍ منها في كتابه القيم «أسانيد المصريين»، وما تزال - محفوظة عنده - منذ بضع سنين؛ أملا في

أن يسجلها في صيغة «إجازة عامة» تلبي رغبات المستجيزين - وقد بلغ العمْر الرابعة والثمانين - وليس لدي مما كتبه لي شيوخي من مصر وسوريا والباكستان والسودان وغيرها شيء، والله ولي التوفيق.

كان شخنا الحافظ التيجاني على صداقة وأخوة وثيقة مع شيخنا الإمام الأكبر عبد الحليم محمود، وقد أشار إلى ذلك، في لطفه المعهود، في مقدمة الكتاب الذي أعده يطلب من صديقة الشيخ الأكبر، عن (حجية السنة). والشيخ - كما قلت - فقيه مكين، ويكفى أن يعرف القارئ أن هذا الشيخ الصوفي كان صاحب فكرة «بنوك بلا فوائد أو بلا ربا»، لا أذكر العنوان تماما، وأصدر في ذلك كتابا في منتصف الأربعينيات من القرن الماضي، قبل ثلاثين عاما من وفاته، وكانت الأفكار حول «اقتصاد إسلامي موافق لشريعة الإسلام» ما تزال عندئذ في بداياتها. . وقد لحقه في ذلك المفكر والفقيه الشيعي العراقي، المشهور بالإمام الصدر، فكتب كتابا بهذا العنوان فيما بعد.

وكان للشيخ ولد من أبنائه، سافر للدراسة ببريطانيا، ثم أقام للعمل، لقيته هناك فجدد الصلة، ثم أدركت الشيخ حيا لمدة عام واحد بعد عودتي، وكان هذا حظي من شيخي الدكتور عبد الحليم محمود أيضا، إلا أنني لقيته في لندن، عندما زارها ليفتتح - مع ملكة بريطانيا - «مهرجان العالم الإسلامي» الثقافي والحضاري، الذي عقد في لندن في منتصف السبعينيات، كما حكيت في مقام آخر من هذه الحكايات. وكان من عجائب صداقه الرجلين أن يلقيا ربا كريما في عام واحد، قبيل توقيع «معاهدة كامب ديفيد» سنة ١٩٧٨ . ولله عاقبة الأمور.

(٥١) أبو الحسن الندوي - علامة الهند المجاهد

قرأنا له، وعرفناه من خلال كتابه الشهير: «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟» إنه عالم فقيه مصلح، وداعية، لكنه يؤثر الدعوة بمسلكه وهديه العملي، على الدعوة القولية والبيان اللساني، مع سهمه الوفير من هذا الأخير. تَظهر في سماته خلالُ الهاشميين من أبناء محمد - صلى اللَّه عليه وسلم - الذي قال اللَّه فيه وفي خصمه الشانئ ما حققته الأيام: بسم اللَّه الرحمن الرحيم ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَاكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾ وصدق اللَّه العظيم، واللَّه أكبر.

كان لا يقبل العطاء إلا هدية خالصة، فقد حرم اللَّه الصدقة على محمد وبنيه، وكان يرفض نصائح أصحابه في التعرض لأهل اليسار، من العرب أو غيرهم، ويقول: هم أحوج إليَّ منِّي إليهم؛ فما لديَّ لا يجدون عنه عوضًا وما عندهم أجد عنه العوض. وفي أسفاره كان يكره النزول بالفنادق ذات النجوم، قليلة أو كثيرة، بل يسكن مع طلاب العلم من تلاميذه، كواحد منهم.

وعندما، فاز فضيلته بجائزة الملك فيصل - رحمه اللَّه - أحالها مباشرة على المستحقين يوم تسلمها، لتبقى عزة العلماء، وكرامة الهاشميين، كما أرادها اللَّه عز وجل: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾، فذكرنا بأسلافنا الذين كانوا يلقون دروسهم بالأزهر، وكان بأحدهم علة في ساقه فكان يمدها على البساط للضرورة، وجاء

أحد كبار رجال الدولة يشهد درسه، فما قبض ساقه الممدودة، وأرادوا تأديبه أو اختباره، فجاءوه في درس لاحق، بصُرَّةٍ فيها عطاء من «أفندينا»، فقال الرجل الكريم على نفسه ، وعلى هيبة العلم والدين ، لمن جاءه بها : «قل لسيدك: من يمد رجله لا يمد يديه».

كان الندويُّ مؤرخًا من نوع خاص، أدنى إلى مؤرخ الفكر والحضارة ، منه إلى المفهوم الذائع لتاريخ الدول والحركات؛ إيمانا منه بأن الجانب الفكري والدعوة، والاختمار الفكري للتوجهات الحضارية، إذا جاء تلبية لحاجات عصره واستجابة له، فهو الفاعل في التاريخ حقا، المؤثر في الأحداث والحركات. أو بلغة نظيره العربي الجزائري مالك بن نبي: «تنتقل هذه التوجهات من عالم الأفكار الصحيحة لا الزائفة، إلى عالم الإنسان والثقافة، ثم إلى عالم الفعل والتاريخ. . وكتابه: «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» تطبيق من الوجه السلبي. . لهذه الفكرة عن التاريخ، وقد سبقه مفكر أوربي كان من الإنصاف والموضوعية أن يتساءل: ماذا خسرت أوربا في موقعة «بلاط الشهداء» التي انحسرت فيها موجه الحضارة القادمة من الجنوب. وكان من الممكن لأوربا أن توفر على نفسها قرون العصور الوسطى الضائعة أو المضيعة . وهي أيضا ذات الوجهة التي توخاها مؤرخنا، في كتابه الماتع ذي الأجزاء الثلاثة، : «رجال الفكر والدعوة في الإسلام»، فلو قارنته بكتاب مقابله السكندري على سامي النشار، « نشأة التفكير الفلسفي في الإسلام » لوجدت الفرق بين أكاديمية حِرْفيّة نظرية، وبين الروح الدعوية لدى علامة الهند. هذا بالرغم من أن النشار ليس من أهل

الأكاديمية النظرية الخالصة بل له - بحكم روابطه بحركات دعوية مصرية، كشباب سيدنا محمد صلى اللَّه عليه وسلم، وبثورة يوليو ١٩٥٢ - طابعه الحيوي الدعوى الحركي، ويكشف عن ذلك كتابه البارع «شهداء النبوة في صدر الإسلام».

انتقل الشيخ الندوي - الذي كان في صدر حياته، مساعدا لأبى الأعلى المودودي في حركة الجماعة الإسلامية - إلى أسلوب الإصلاح الجامع بين إشاعة العلم، وإحياء الدعوة الروحية، لا بالعلم الخالص لدى المدرسة «الديوبندية»، أو التصوف الخالص لدى «البريلويه»، ولا الحركية السياسية كالمودودي، وهذه إحدى سمات «ندوة العلماء»، وأخرى : أنها أيضًا وسط بين التحديث القريب من التغريب في «عليكرة»، والجمود في المدارس التقليدية.

فكانت «الندوة» وطريقة «الدعوة والتبليغ» هي البديل الذي انتهى إليه. وقد عبر عن هذا في أواخر حياته - بعد تحفظ طويل ؛ خشيةَ أن يساء فهم مواقفه، أو يستغلها القاعدون عن العمل، المثبطون للدعوة - في كتابه «التفسير السياسي للإسلام» . أشار في مقدمته إلى الجو الصراعي، الذي حاولت التعبير عنه، في هذه الفقرة، وبرغم ذلك أصدر رسالته عن «القاديانية» -- التي حوكم المودودي لإصداره مثلها في باكستان وحكم عليه بالإعدام - وكانت رسالة الندوي بعنوان «القاديانية ثورة على النبوة المحمدية والإسلام».

جاء الشيخ إلى مصر شابا دون الأربعين، يشده فكرها المعاصر،

وتاريخها الحي لا الغابر، وأعلامها ورجالها من فرسان البيان، في «الرسالة، والثقافة، والهلال، ومجلة الأزهر»، ورهبان البحث العلمي في «لجنة التأليف والترجمة والنشر». وأحدثت زيارته لمصر موجات من الحركة العقلية والنشرية، لآثاره وآثار غيره من المفكرين، ونشر بمجلة الرسالة مقالًا في غاية القوة والتأثير، وصدق اللهجة والتعبير، بعنوان، «اسمعي يا مصر» خاطبها، وهو الفتى الهاشمي الشاب، كما كان يخاطب أهلَ الجزيرة العربية: «لستم شيئًا بدون عقيدة الإسلام ، التي أحالت رعاة الشاء والإبل المتحاربين، المتصارعين ، إلى قادة للعالم. . . »، لكنه في الحالة المصرية كان يعرف لها الدور الخاص الريادي، والموقع الفكري القيادي ، في العالم الإسلامي كله: «إن العالم كله يتطلع إلى المسلمين، والمسلمين جميعًا يتطلعون إلى العرب، والأمة العربية جميعا تتطلع إليك يا مصر. . . » إلى آخر ما قال - رحمه اللّٰه.

وساح في العالم العربي وكتب كتابه الشهير «مذكرات سائح في العالم العربي» ، يسجل أحوال الخمسينيات من القرن الماضي ، في هذا الجزء من العالم ، الذي يمثل قلب العالم الإسلامي. ورأيته في عام ١٩٥١: شابًّا طُوالًا ، رقيق الجسم، قوي الحضور، ناصع البيان، حي القلب، غيورًا. . متابعًا لأحوال المسلمين، والعرب بوجه خاص، ومصر بوجه أخص. . ومع أني تنقلت معه إلى أماكن عدة في القاهرة، وقد زار بعض الأقاليم أيضا ، وأظنني حضرت محاضرته «روائع إقبال» التي ألقاها بدار العلوم القديمة بالمنيرة وطبعت بعد ذلك في كتاب، فقد انطبع في ذهني أولُ منظر رأيته فيه، على النحو الذي ذكرته آنفا من

سماته الشخصية، في مسجدٍ صغير، بمنطقة «عرب اليسار» بحي القلعة بالقاهرة - وهي كاسمها كانت شبه قرية، تقع على يمين بابِ القلعة، قلعة صلاح الدين، المُطلّ على مسجدي الرفاعي والسلطان حسن، خلف مبنى الكسوة الشريفة للكعبة المكرمة، التي ظلت قرونا تقدم الكسوة لبيت اللّه الحرام، من القاهرة، منذ الدولة الأيوبية إلى أواخر الخمسينيات من القرن الماضي، حين أدت ظروف ملتبسة إلى استئثار إخوتنا في «المملكة العربية السعودية» بهذا الفضل. وإن الفضل بيد اللّه يؤتيه من يشاء، وكان الشيخ يوم رأيته لأول مره خارجا من ميضأة هذا المسجد، يقطر وجهه ماء، فرفع قميصه الطويل الذيل على سروال هندي، ومسح وجهه، وقلت لنفسي: هذا رجل ملأ اسمه عالمنا العربي الإسلامي، ولا يتخذ منديلا ويجفف وجهه في ثوبه!! رحمه اللّه.



(٥٢) في المستشفيات

كان لي شيخ اسمه حسن عبد الغني الصغير، من المنيا، تعلمت منه أمورًا في غير مسائل العلم النظري. كان يقول: «من لم يزر المحاكم أو يتابع أخبارها، ولم يزر المستشفيات مريضا أو بريئًا، لا يعرف مجتمعه».

كأنما يريد أن يقول - كما فهمت: إن المرض والجريمة من أهم عوامل التأثير في المجتمع، عامة وفي الإنسان الفرد كذلك. ومن ثم كنت، في تأمل كلمته، أضيف إليها: ولم يعرف نفسه أيضًا. وفي الحديث الشريف يروي النبي - صلى اللّٰه عليه وسلم - عن ربه، في حديث قدسي: «عبدي: مرضت فلم تعدني [من عيادة المريض أي زيارته]، فيقول العبد: كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ فيقول للّٰه - تعالى: مرض عبدي فلان فلم تعده، ولو عدته لوجدتني عنده».!! وقرأت وأنا سجين حديثا ضعيفا من حيث النقل والرواية، لا المعنى والدراية: «أفضل العبادة انتظار الفرج..» وأكثر الناس ترقبا للفرج - مهما اشتدت الأهوال - المرضي، والسجناء.. كما تعلمت بالتجربة فيما بعد، بعد أن دخلت المحاكم والسجون، وزرت المستشفيات وترددت عليها بريئًا ومريضًا أيضًا.

كانت أول مرة أدخل المستشفي مريضًا، مستشفى جامعة عين شمس بالعباسية، عام ١٩٥٣، بعد انتهائي من امتحان «الثانوية الأزهرية»

مباشرة؛ لاستئصال «الأعور» كما تسمى الزائدة الدودية المغلقة الطرف - وهذا هو العور أو العمى - ويقول عنها الأطباء إنها بداية الأمعاء الغلاظ. . وكنت أسكن في أول شبرا «شارع السبتية». . وبعد أيام برئت «وكتبوا لي خروجا»، وليس في جيبي إلا قرش واحد. . فحملت بقية ملابسي، وتحاملت على نفسي، وخرجت فعلًا. ومن أمام الكنيسة المرقسية - لم تكن بعد كاتدرائية كبرى، فقد بناها عبد الناصر أعلى برج في أفريقيا، وافتتحها مع إمبراطور الحبشة «إثيوبيا» هيلا سلاسي فيما بعد - وكان الشارع عندئذ اتجاهين ركبت الأوتوبيس المتجه إلى شارع شبرا، ونزلت في أول محطاته، وسرت «أتعكز» على نفسي وأمسك بيدي اليمني جنبي الذي ما زال جريحًا، وبيُسْراي «لفَّة» هدومي، وذقت ضعف المرض حقًّا. والذي لا أنساه في هذه التجربة الباكرة هو الدكتور الشاب نائب القسم - جزاه اللّٰه كل خير - أفتح عينيّ أحيانًا لأجده واقفًا فوق رأسي، كأنما ينتظر لا يريد أن يوقظني؛ كان يقدر ظروفي الأزهرية. . وكلما مررت على «مستشفي الدمرداش» أحن إلى تلك الأيام، وإلى ذلك الإنسان.

وكانت الثانية في المستشفي العام لمركز «الواحات الخارجة» فقد كنا بسجن / معتقل، أقرب إلى واحة «باريس»، في طرف الوادي الجديد، جنوب «الخارجة». وحُوّلتُ لهزال عام اشتد بي إلى المستشفي، لم يتخذوا معي أي إجراء سوى «التحاليل»، وقرروا سفري إلى القاهرة؛ لعلاج ضعف التمثيل الغذائي، والواقع أن الغذاء نفسه ضعيف، وانضاف إليه ضعف الاستفادة منه. كنت في السادسة والعشرين من سني، وقد بلغت الرابعة والثمانين بحمد اللّٰه الآن. وقد

قصصت في «حكاية أخرى من حكاياتي» طرفا من معايشتي، بعد قدومي من الواحات، للمرض بمستشفى سجن مصر العمومي - فيما بين القلعة وضريح السيدة عائشة «رضي اللَّه عنها»، وقد صار حديقة عامة الآن - مثل قسم عابدين القديم - وكان يعرف بسجن «قرة ميدان»؛ نسبة إلى الاسم القديم لميدان القلعة خلف الرفاعي. وحكيت ما كان من أمر الأستاذ مبروك نافع عميد دار العلوم وولده.. وأذكر عن مستشفي الخارجة أني لقيت ابن «عمدة المدينة»، وكان خريج دار العلوم، فقال لي: إن أهل «الخارجة» يؤدون الصلوات الخمس رجالا ونساء، ولا يعرفون شيئا اسمه «السرقة»، وأن أباه يقضى العام والعامين أحيانًا لا تأتيه شكوى واحدة.. وأن أولى الحوادث الكبيرة كانت من عمال مشروع «الوادي الجديد»، القادمين من الوادي القديم، وجدوا عجلا فذبحوه وأكلوه. «وكلما قرأت عن «الوادي الجديد»، أو تنمية الصعيد، أحن إلى أهلنا في الواحات وأدعو أن تشملهم خطط التنمية حقًّا، مع الحفاظ على طابع المجتمع «الواحاتي» وسماته..

وقلت مثل هذا أخيرًا لإحدى تلميذاتي، تتهيأ للتخرج في «دار العلوم»، ولكن مظهرها كشباب أوربا، وهي من أهالي «واحة باريس».. ضاحكًا: أنت «جاية من عند برج إيفل أو من عند درب الأربعين؟ ولا أنسى عناية «الدكتور إبراهيم فوزي»، طبيب سجن مصر العمومي بسجين أزهري، وهو الأخ القبطي، الجراح الماهر، الذي استخراج حصاة من الحالب الأيمن من ذات الموضع الذي كانت فيه

فتحة «المصران الأعور»، وقال لي يتندر: محافظة على منظر البطن، فقلت له: أعدك أنني لن أرقص. فانفجر ضاحكًا..

وأذكر من وقائع هذه الرحلة، أني رأيتُ أمي - في مستشفى أحمد ماهر - بعد أربع سنوات في الهرب والسجن. أما أبي - رحمه اللَّه - فقد زارني مرة واحدة في الواحات عام ٥٦، قبل ترحيلي إلى القاهرة، وحكى لي أن مفتش مباحث بني سويف استدعاه لمقابلته، ليجد أحد عمد البلاد المعروفين في مكتبه، جالسًا على البلاط بالمكتب في هوان ظاهر، وأنه سأله أسئلة حسّاسة، فأجاب بما يعتقده بكل صراحة، فخرج معه الرجل يودعه باحترام وتقدير، ثم عاد ليتعامل مع «العمدة المسكين»!

وأذكر أن المكان المخصص لمستشفى سجن مصر، كان شقتين أو جناحين متواجهين، أُخلى أحدهما ليكون مقر إقامة شبه مدنية، يتردد عليه الأقارب في كل وقت، مزودا بكل الأثاث اللازم والأجهزة المنزلية، وكان من بين نزلائه «الأميرالاى / العميد» الدمنهوري، الذي اتهم بقيادة انقلاب ضد عبد الناصر، أواسطَ الخمسينيات، وكان من مساعديه الصاغ/ الرائد «أحمد المصري» الذي كان يتجول في السجن ليلًا ونهارًا، ويحمل «عسكري المراسلة» له كرسيًّا، يجلس عليه في فناء السجن عندما يتوقف. وكنا نراه ونحن نتجول للرياضة أو نجلس على الأرصفة، ومما سمعته منه حينذاك، يقول - بعد ذكر أخبار عن الأسرة الحاكمة بالعراق - عام ١٩٦٨: إنهم يمرون بالمرحلة التي مرت بها مصر في أول الخمسينيات، ولم نلبث أن سمعنا بالانقلاب العسكري هناك بعد أشهر.

آخر تجاربي وأخطرها مع المرض والمستشفيات: أن ابتليت صيف عام ٢٠٠٦ بمرض «الهربتز = الشقيقة»، أصاب العصب السابع الذي يسيطر على الجانب الأيمن من الوجه، بسبب «فيروس» ماكر خطير، كان يتهدد المخ، لولا تيقظ الأطباء بمستشفى الجامعة الملقب «بالفرنساوي»، ضمن مستشفى قصر العيني، التي قضيت بها قرابة ثلاثة أشهر، وخرجت بحال لا بأس بها، قادرًا أن أحكي حكاياتي، وأشارك قومي أفراح التحرير وأتراحه، وأواصل خدمة اللغة العربية بالمجمع، ولطلابي بدار العلوم في الدراسات العليا، ولهواة العلوم الأزهرية العقلية بالرواق العباسي والمغاربي بمسجد الأزهر، لا أدري بنفس الكفاءة أو أقل قليلًا.

نعم فقدتُ أسناني، وإحدى أذنيّ، وأثّر المرض على العين اليمنى، لكن الخطر كان أشد، قال لي الدكتور الجارم عضو المجمع: لقد كانت إصابة مزعجة، وبثرات الجلد تغطى الوجه كله حتى داخل الجفون وعلى حدقة العين. وعلقت الدكتورة رئيسة قسم العيون بالمستشفى عند خروجي: يا عم لا أعرف ماذا أقول لك، لكن «بالبلدي كدا: اللي في الريش بقشيش»؛ فالحمد للّه، رآني الدكتور بدر الدين غازي -رحمه اللّه- فلم يتمالك نفسه من البكاء، لكنه تماسك ودعا لي. كانت الدكتورة هدى - رئيسة القسم الباطني - هي الطبيبة ذات العيون الخضراء؛ لأني لم أكن أرى منها إلا هذا، والدكتور رضا عوضين - شفاه اللّه مما حلَّ به - وهو أحد خبراء المجمع، يرأس فريق العلاج. والدكتور الصافوري «أستاذ

الجلدية» قدَّم لي خدمات لا أنساها، وكذا أساتذة السمع والأذن، جزاهم اللَّه كل خير.. ومن شدة آلام هذا المرض التي تفوق كل وصف: أني كنت أدعو ألا يبتلي اللَّه به أي كائن حي، فضلًا عن إنسان.. ولن أنسى الدكتور يحيى - الذي انتقل إلى مستشفى السرطان - ورعايته الأخوية..

وقد شاركني الإقامة، بالمستشفى حينذاك، زميلان من دار العلوم، أستاذ للتاريخ وآخر للنحو، هما الآن في جوار اللَّه.. وقد كتبت أثناء هذه الأيام قصيدة فقدتها بعد ذلك، مطلعها:

قضّيتُ شهرين في مشفايَ والنيلُ ... سيفٌ يلوحُ على يُمنايَ مصقول

وفيها أشكو اختلال المواعيد بالشفاء:

إذا رأيت فتاة الطب سانحة ... فلا تظنّنّ أن الوعد مبذول

تعطيك لَمْحًا لمعنى لا تترجمه ... فإن ظننت فإن الظن مخذول

يا من بعثت مياه النيل سائلة ... من الجنان، وفي عطفيه تهليل

أجب رجاء عُبيد جاء يدفعه ... حب وعجز وتحنان وتأميل



(٥٣) نقيب لا ينفق من أموال النقابة بالقدر الكافي

كان أبى شيخا أزهريًا اشتغل بالتعليم، ولأزهريته اختير أكثر من مرة نقيبًا للمعلمين بإقليمنا «ببا - بني سويف». كان متابعا لنشأة الحركة النقابية للمعلمين، وصديقًا شخصيًا لبطلها الحقيقي، الشيخ رمضان يوسف: الرجل الصعيدي المعمم، الثابت الجنان القوى الشخصية، الذي كان هو «الدينامو» الحقيقي وراء حركة بناء أكبر نقابة في مصر.. وهو الباني «لاتحاد معلمي المدارس الأولية»، الذي يمثل أكبر كتلة في هذه النقابة الكبرى، وأصدر مجلة «المعلم» في صيغتها الأولى «مجلة الاتحاد»، التي كان يشرف عليها الأستاذ محمد كامل حتة، الأديب المعروف، وسكريتر الاتحاد، الذي كان يتخذ مقرًا له بالدور الأول من العمارة الأولى بشارع «قَوَلَه» بعابدين، في مواجهة القصر الملكي الأساسي في ذلك الحين.. وقد عُمِّر الشيخ رمضان، واعتدت أن أراه، وأملأ عيني من تقاسيم وجهه السمح الوسيم، أبيض - برغم صعيديته - مشربًا بحمرة، مع مظهر أنيق وعمامة جميلة.. يأتي من حيث يسكن - فيما يبدو على خط حلوان، بالمعادى أو نحوها، وينزل بمحطة السيدة قرب دار العلوم.. فأراه، وأرى رجلا آخر معه، يفوح منه عبق التاريخ، يحافظ على طربوشه الطويل، ولحيته المميزة، ينزل في نفس المحطة؛ وهو الأستاذ صالح عشماوي - رحمها اللّٰه.

كان أبى يأتي ليحضر اجتماعات الاتحاد بالقاهرة، في الدرجة

الثانية بالقطار من بني سويف، وينزل بمحطة «باب الحديد « رمسيس الآن»، فيأخذ الترام رقم ٤ المتجه من ميدان المحطة إلى السيدة زينب، عبر العتبة الخضراء، فشارع محمد على / القلعة» ليميل يمينا، بعد دار الكتب، في شارع «الخليج المصري / بورسعيد الآن»، وينزل الوالد الكريم، ليزورنا «في درب الحجر» الذي حكيت قصته، في حكاية الضابط النوبي «منقذ مصر»، أو مسكننا في أول حارة «الحبانية» ، في نهاية شارع «الشيخ ريحان»، وقرب ميدان «الحلمية الجديدة». ثم يذهب إلى الاتحاد في عابدين.

كان لا ينفق في الرحلة إلا قروشا قليلة، من أموال النقابة؛ فحوسب مرة - كما علمت من أحد أقاربنا المعلمين أعضاء النقابة: «إنك لا تنفق بالقدر الكافي، الذي يليق بالنقيب، لقد كان النقيب السابق «فلان - أعرفه من قرية مجاورة» يركب «التاكسي»، ويستخدم الفنادق. . ويحسن تمثيل النقابة. . وأشهد أن الرجل الذي يقصدونه كان أنيقا، وكان معنيا بمظهره على نحو ملحوظ.

كان أبي - وهو إلى الدرويش أقرب منه إلى أي شيء آخر - يستمع إلى هذا النقد باسمًا. . ولكنه لا يغير طريقته ولا أسلوبه. . فقد كان ذلك جزءا من شخصيته النقشبندية التي وصفتها في حكايات أخرى. . مع أنه كان ينصحني بالعناية بمظهري الأزهري، وأذكر أنه وقف بي يوما في ميدان «باب الخلق»، في مواجهة دار الكتب ثم قال لي: إنه أصلا «باب الخرق»؛ إذ كان خرقا يجتازه الناس في خليج أمير المؤمنين الذي شقه الصحابة؛ ليصل النيل بالبحر الأحمر. . وقال: وهذه - الحارة الممتدة

خلف محافظة القاهرة «أمن القاهرة الآن» إلى شارع الأزهر، هي درب سُعادة بضم السين لا فتحها، ومن أهم معالمها: دار أحمد تيمور باشا. وأظنها ما تزال قائمة.

ثم نصحني يومها: ينبغي أن يحرص الأزهري على أن تكون ملابسه وعمامته نظيفة، ولو كانت قديمة، وحذاؤه لامعًا ولو كان بسيطًا زهيدًا.

وعنه - رضي اللَّه عنه وأرضاه، وغفر لي وله - ورثت أمورا: منها حب القاهرة القديمة، والتمتع بمعالمها، ومحبة آل البيت، وإجلال الأزهر وعلمائه، والوفاء الشديد لشيوخه وأساتذته.. وقد حكيت في «حكاية أخرى» فرحه بلقائي شيخه الشيخ يس الجندي - رحمه اللَّه - وكان يحكى لي عن شيخه «الشيخ محمد عبده الصغير - تيميزًا عن المفتي - وكيف روى له مجيئه ماشيًا من قريته بالمنوفية، بعد إتمام حفظ القرآن في «الكتاب»، يتيمًا فقيرًا لا يملك إلا الملابس البسيطة على بدنه، قاصدا الأزهر الشريف، فسكن الرواق، وقضى سنين يعيش على ثلاثة أرغفة تصرف لهم، فيبيع أحدها لبائع الفول مقابل ملء طبقه من ماء الفول، ويفتت فيه في الصباح رغيفا، وفي المساء مثله، وذلك حظه من الغذاء. يقول لأبى - في حس الفكاهة المصري -: «يا محمود: عارف الولد أبو حسن صاحب المطعم في أول «الباطنية»، ده كان طفل صغير، أشيله وأبوسه؛ كي يزيدني أبوه من ماء الفول.. لكن حبب إلى العلم الشرعي وسائر العلوم»..

قال أبي إنه كان يدرس: الفقه والنحو.. ويدرِّس الرياضيات أيضا، رغم أنه درويش.. وحكى لي أن الشيخ محمد عبده كان يسكن خلف مسجد سيدنا الحسين - رضي اللَّه عنه - ويذهب كل ليلة، قبل صلاة

الفجر إلى «مسجد السيدة نفيسة رضي اللَّه عنها» بعد القلعة، ليغسل مراحيض المسجد بنفسه، ثم يعود ليصلي الفجر بالأزهر، ويلقى الدرس الأول من الفجر إلى الضحى. . وكان يتحدث بنعمة اللَّه عليه - بعد أن صار معلما بالأزهر- فيقول لأبي: «اعلم يا محمود أن عندي في بيتي الآن سريرين، أنا أنام على سرير، والولد أحمد - ابني - ينام على سرير آخر. .» ورثت عن هؤلاء الاستهانة بالمال، لكني لا أكرهه. . وإن كان لدي من عيوب النفس ونقائصها الكثير الذي أعرفه، ويجهله غيري ممن يحسنون الظن بي، ويعلمه مني العليم الخبير، العفو الغفور.

وقد كنت - في الحقيقة - أستدعى حال «النقيب الذي لا ينفق بالقدر الكافي» وأنا أشعر بالرضا لخدمة الأزهر دون مقابل مادي، وقبلها عندما انقطع راتبي المصري عامين - بعد مدة الرياسة الأولى للجامعة الإسلامية بإسلام آباد - واستحييت أن أترك العمل؛ لانقطاع الراتب. . نعم قدمت لي جهة عربية - عندما علموا من غيري - شيئًا ما عن أشهرٍ في نهاية هذه المدة. . وقد بارك اللَّه لي، على نحو لا أستطيع تفسيره، في عدة مشروعات أقمتها بقريتي وبالقاهرة. . وهو سبحانه يرزق من يشاء بغير حساب.

وقد وفقني اللَّه - تعالى - في إسلام آباد، إلى إنشاء صندوقين - رغم الشدائد: أحدهما لرعاية من انقطع راتبه من الأساتذة الوافدين، والآخر: لرعاية الطلاب المتفوقين. . واستطعت أن أنجز مشروعًا كبيرًا - في تاريخ الجامعة - وهو إنشاء المبنى الكبير في قلب المدينة مقرًّا لها، بعد أن كانت تشغل غرفًا ملحقة «بمسجد الملك فيصل»، وأن أضيف إليها كليتين جديدتين، وأن أضاعف عدد طلابها، ولم استخدم

أبدًا حقي، في وقود سيارتي، أو نفقة ضيوفي وضيوف الجامعة، أو أجرة مسكني، بل كنت أتحملها من جيبي الخاص. وعندما انقطع راتبي قبلت منهم المسكن فقط.. وقد عدت من إسلام آباد منذ عشر سنين، وما يزال شيوخ الجامعة وسائقوها وخدمها وطلابها، حتى من لم يروني، يبعثون بسلامهم إليَّ، وكفى بذلك عائدًا! والحمد للَّه.



(٥٤) الشيخ عبد القدوس القاسمي وخدمة الخلق

كان - رحمه اللّه - كبير علماء الباكستان في حياته، وعضوًا بالمحكمة العليا، وقد كان أسلافه قضاة حتى أطلق لقب «القاضي» على العائلة، المقيمة بمدينة «بشاور» في الحدود القريبة من أفغانستان. ولا يعرف الكثيرون أنه شقيق «السيد قاضي حسين»، أمير الجماعة الإسلامية السابق بباكستان، لكنه آثر الاشتغال بالعلم، والإفتاء، والقضاء، دون أي لون سياسي، بل آثر اللقب العلمي: (القاسمي)، بدل لقب العائلة المتوارث (القاضي)؛ اعتزازًا بتخرجه في المدرسة «الديوبندية» الأم في الهند، ذات النهج «الأزهري» حتى أطلق عليها «أزهر الهند»؛ وعلى بابها كتب الحديث الشريف: «إنما أنا قاسم والله يعطي» أي يعطي لكل طالب حظه من العلم.

لقيته أول وصولي إلى باكستان، في الثمانينيات، وشاركته في اختيار الأساتذة الذين ينضمون إلى هيئة التدريس بالجامعة: وأذكر من هؤلاء الذين زكيناهم يومها الدكتور أنيس أحمد القادم من أمريكا، حيث كان زميلا للدكتور محمد خليفة حسن، أحد أبرز الأساتذة المصريين في علم «مقارنة الأديان». وأستاذ القراءات والدراسات القرآنية القادم من لاهور - لا أذكر اسمه- وقد حظيا بإجماع الكل على الصلاحية. لكنا فوجئنا ليلتها بأحد المتقدمين لتدريس «التجويد وعلوم القرآن»، قادمًا من إقليم «السند»، بتزكية من أحد كبار الجامعيين، فلما طلبنا إليه أن يتلو القرآن من بعض طوال السور تلجلج، وقال: «أقر سورة الرحمن»، فقال له

أحدنا معابثًا: «اقرأ سورة القدْر»، فإذا به يقول: «إنها سورة طويلة»، دعوني أقرا سورة الرحمن، التي تبين أنه لا يعرف غيرها..!

في اليوم التالي ذهبت لزيارة مولانا «هاليبوتا» أو الدكتور علي بوتا، الذي كان يرأس لجنة الاختيار، وهو أحد العلماء الذين درسوا- بعد التخرج في المدارس الدينية - في جامعة كمبردج، وكان يرأس «مجمع البحوث الإسلامية»، يسمونه بهذا الاسم تيمنًا بالأزهر الشريف، واسمه بالإنجليزية: Islamic Research Institute واختصارًا (iri)، وهو معهد قديم ضمّ، إلى الجامعة الإسلامية العالمية، ذراعًا بحثية لها فيما بعد. وكان اثنان من باحثيه يجيدان العربية ويشاركاننا التدريسَ بالجامعة، أحدهما الدكتور محمود غازي - رحمه اللَّه - نائب رئيس الجامعة معي ورئيسها بعدي، والآخر الدكتور محمد الغزالي الباحث في المجمع، وعضو المحكمة العليا الآن. كان مولانا «هاليبوتا» رجلا درويشا يشعرك بالأبوة كالأستاذ يحيى حقي في مصر، وأذكر أنه آوى في مسكنه أحد الباحثين في المجمع، وأسبغ عليه من كرمه لا يتكلف من أمر «الإعاشة» قرشا واحدا، ثم بدا لهذا الأستاذ الباحث أن يشكو الأستاذ «هاليبوتا» في شيء يتصل بالعمل، ورفع ضده دعوى بالمحكمة، ولما جاء موعد الجلسة طلب من الشيخ سيارته ليذهب إلى المحكمة يشكوه، فأعطاها له - رحمه اللَّه!!

على كلٍ، وجدت في مجلس الشيخ «هاليبوتا» الأخوين: د. غازي، ود. غزالي، ومعهما الشيخ عبد القدوس القاسمي، الذي ظل صامتا في هذه الجلسة، وعندما تهيأنا للانصراف استبقاني قائلا، وهو ينظر في

عيني، وكان مهيبا أبيض الوجه واللحية، سمح الملامح: «إن لك عندي نصيحة فهل تقبلها، قلت: حبا وكرامة، فأضاف: هي نصائح ثلاث. فقلت: أهلا وسهلا - فقال لي: «أوصيك بخدمة الخلق ثم خدمة الخلق ثم خدمة الخلق».

ولست أدرى لم خصني بهذه النصيحة المثلثة، لكني تلقيتها شاكرًا متأثرا بأسلوب الشيخ في تقديمها، وطريقته اللافتة في هذا التقديم.

ويعلم اللّٰه أنها كانت بعد ذلك نصب عيني طوال مدة إقامتي الأولى بباكستان، التي امتدت تسع سنوات متصلة. معلما وعميدا ونائبا للرئيس.. وذكرت للناس سر عملي عند رحيلي ودوافعي في هذا العمل، وفي مقدمتها تلك النصيحة. ثم عدت إلى باكستان لست سنوات أخرى رئيسا للجامعة، ماضيا على هذا «النبراس» أو تلك النصيحة. وكم تسعدني الآن - كمعلم وكمسئول جامعي - مشاعرُ الإعزاز من كل من عملت معهم، أساتذة وباحثين، وإداريين، وعمالًا. والحمد لله رب العالمين.

امتدت صلتي بالشيخ، وكان يدعوني أحيانا لبعض المجالس القضائية التي تدرس المسائل الحساسة، لاستيضاح الموقف الشرعي ثم القانوني منها: ومن ذلك «قضيتا رجم الزاني، والتصوير الفوتواجرافى» وكانت المحكمة تتجه في بداية الأمر إلى المنع، وقد أبديت رأيي - باعتباري أزهريا وحنفيا أيضا - في المسألتين. وقلت لهم إن في المسألة الثانية رسالة خاصة بالجواز أعدها مفتي مصر الحنفي، في العشرينيات والثلاثينيات من القرن الماضي، وهو فضيلة الشيخ محمد بخيت المطعي - رحمه اللّٰه -

بعنوان: «القول الشافي في إباحة التصوير الفوتواغرافى» فطالبني الشيخ بإحضار صورة منها، ثم أضاف ليتك تأتيني أيضًا بنسخة من كتاب «دلائل الخيرات في الصلوات على النبي - صلى اللّه عليه وسلم -» وفي أول سفرة لي إلى القاهرة جئته بالكتابين وكان سعيدا غاية السعادة. وقدم إلى هيئة المحكمة بحثا شرعيا أصدرت على أساسه حكمًا إيجابيًّا في المسألتين، بعكس اتجاهها الأول، كما أني راجعت كتاب «الدلائل» وفوجئت أن مقدار الثلثين منه تقريبًا أدعية وصيغ واردة في السنة والمصادر الشرعية، على خلاف التصور العام الذائع في مصر عن الكتاب، في غير الأوساط الصوفية.

أصيب في ابنته التي كانت مع زوجها وصهره والد الزوج - الشيخ سيّاح الدين، وكان أيضا من كبار العلماء المتقنين للعربية - ضحايا حادث مرور، وتركتْ له أولادها، وزرته للعزاء، فإذا الهدوء والصبر والامتثال، والرضاء بالقضاء.

دعوته مرة للغداء، فجاء بسائقه معه، وأجلسه إلى جانبه، وهو العالم القاضي الرفيع القدر، وتناولنا ثلاثتنا الغداء في أخوة إنسانية حميمة، وبساطة كاملة.

وكنت بين الحين والحين أرفع سماعة التليفون، وأسأله عن الصحة فيجيب كالمصريين: ماشية، لكنه ينطقها: بالفصحى ويطيل الألف بعد الميم ويكسر الشين، ويهمس الهاء الأخيرة. رحمه اللّه!



(٥٥) الدكتور دين محمد ومحبة مصر

عرفته في الثمانينيات من القرن الماضي، حين قرأت له كتابا صغيرا عن «مفهوم الفكر الإسلامي» يلفت النظر، ليس من الكتابات التقليدية، وهو ما يزال بعد يَدرس في القاهرة، بكلية أصول الدين بالأزهر الشريف؛ لنيل الدكتوراه في العقيدة والفلسفة، في موضوع هو أقرب إلى مقارنة الأديان، وهو «الحب الإلهي بين المسيحية والإسلام». ولم يقدر لي التعرف عليه شخصيًّا، رغم علاقتي الوثيقة بالكلية ورجالها.

وبعد أن عدت من باكستان للمرة الأولى عام ١٩٨٩م، وعملت وكيلا بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة، دعيت لزيارة الجامعة في إسلام آباد عام ١٩٩١، من رئيسها الدكتور حسين حامد حسان، وفي مطار القاهرة لقيت رجلًا عرفت أنه هو الدكتور دين محمد، صاحب بحث «الفكر الإسلامي»، وأنه في الطريق إلى باكستان، متعاقدا للعمل بالجامعة الإسلامية، وكانت خير صحبة.

حكى لي كيف جاء إلى مصر من سيريلانكا منذ نحو عشر سنين، وأن محبته لمصر ترجع لأسباب كثيرة، ليس أقلها تراث رجالها العظماء: أحمد عرابي، والبارودي اللذين نفاهما الاحتلال البريطاني إلى جزيرة «سيريلانكا» بجنوب الهند، التي كانت تعرف لدينا بجزيرة سرنديب. وإن كان أعظم هذه الأسباب أنها بلد الأزهر الشريف، والعاصمة الثقافية للعالم الإسلامي، ورمز وحدته بعد سقوط عاصمته

السياسية في استانبول. غير أن أبرز هذه الأسباب في نفسه: أنه بعد أن وصل من المطار إلى «مدينة البعوث الإسلامية» شرقي القاهرة، خرج من باب المدينة مستطلعا، فوجد على يمين الباب بائع الصحف يعرض بضاعته، وقف يستعرض الصحف المصرية، وحين وقع اختياره على صحيفة معينة، تحسس جيبه فلم يجد إلا بقايا نقود سيريلانكية، فأعاد الصحيفة إلى مكانها، ولاحظ البائع الذكي ذلك؛ فقدمها إليه، وعندما تردد في قبولها مشيرًا - وهو يحسن العربية - إلى ظروف وصوله منذ ساعات، وليس معه نقود مصرية، أخرج الرجل الشهم من جيبه ورقة بعشرة جنيهات مصرية وأقسم عليه أن يقبلها مع الصحيفة، وشجعه بأنه مقيم دائمًا على باب المدينة، وسيكونان متجاورين بصفة مستمرة. ولكنه بعد أن حصل على العملة المصرية الكافية جاء إلى البائع النبيل، وعبثًا يحاول أن يرد إليه الجنيهات العشرة، مع أن الرجل عندئذ لم يكن مكسبه اليومي يصل إلى عشرة جنيهات. . قال لي: لا أنسى هذا القاهريَّ العجيب. .

ولما تقدم إلى عميد كلية أصول الدين بأوراقه المزكاة من سفارة مصر هناك، ولاحظ الشيخ تميز لغته العربية، وأنه مع ذلك يحسن الإنجليزية، بفضل دراسته الدينية واللغوية ببلده، عقد له امتحانا أمام لجنة شكلها منه ومن أستاذ آخر، قررت التحاقه بالسنة الثالثة بالكلية مباشرة. . ومضى يدرس ويتعمق الحياة الفكرية بمصر، حتى أنجز هدفه، وتلقى العلم عن كثيرين من بينهم الدكتور أحمد الطيب - الإمام الأكبر فيما بعد - ثم افتتح حياته العملية برحلته هذه التي اصطحبنا فيها إلى إسلام آباد.

صلة الدكتور دين محمد بالفكر الغربي وثيقة، وهو الآن معروف

بدراساته المقارنة في الإنجليزية، على الصعيد الدولي للمهتمين بهذا التخصص، فضلًا عن التصوف بوجه عام. ومع ذلك فهو متمسك بالنهج الأزهري التقليدي، المتمثل في الأشعرية مذهبًا، والتصوف مسلكًا، والتراث عناية ودرسًا. ولم أر في حياتي العملية من يحسن العربية، كتابة وخطابة - من غير العرب - بالقدر ذاته الذي يتمتع به في الإنجليزية، مثل الدكتور دين محمد، اللهم إلا الدكتور محمد الغزالي، الأستاذ بمجمع البحوث الإسلامية بإسلام آباد، ورئيس تحرير مجلة الدراسات الإسلامية التي يصدرها المجمع، فهو بارع في اللغتين معًا على سواء.

ولأن الدكتور «دين» يفهم الأوردية أيضًا، بالإضافة إلى لغته المحلية، فقد تيسر له النجاح في «الجامعة الإسلامية»، وبعد نحو ثماني سنوات، قدرت لي العودة إلى إسلام آباد رئيسا للجامعة، فحاولتُ أن أستفيد من خبرته، وشاء اللّٰه أن ينضم إلينا أيضا شيخه الدكتور أحمد الطيب، الذي تولى - بطبيعة الحال - عمادة كلية أصول الدين، فور وصوله والدكتور وكيل له، لكن الدكتور الطيب عاد إلى مصر - كما ذكرت في حكاية أخرى - بعد عام واحد. . فكان مناسبًا أن يتولى تلميذه الدكتور دين محمد عمادتها بعده.

أفدت من نشاطه وخبرته، وصدق نيته في خدمة الناس، فتولى المسئولية عن النشاط الطلابي فترة غير قصيرة، ثم صار عميدًا للشئون العلمية على مستوى الجامعة، ومع ذلك فإنه كان يدرّس في بيته بعض الحواشي في علوم المنطق والتوحيد والتصوف للراغبين، وذلك دأبه أينما كان.

وكنت كثير المشاورة له في معظم شأني، مع رجلين وثيقي الصلة به؛ أحدهما تلميذي، وربما كان أقرب تلاميذي إليَّ، الدكتور مصعب الخير إدريس الإدريسي، والآخر أستاذ كريم لا أذكر الآن، وقد نال الدكتوراه أخيرًا، وكان تلميذًا لي بإسلام آباد من أبرع وأذكى من رأيت من شباب الباكستان، مع خُلُقٍ حميدٍ وأدبٍ جمٍّ ، ونشاط دءوب.

كان من بين نصائح الدكتور دين لي ألا أضع كل «البيض» في سلة واحدة ، يقصد بعض معاونيّ هناك؛ ولكني تعودت في حياتي أن ألقي بالولاء كله لمن يشاركونني، وإذا ثُلم عهد الوفاء توقفت تمامًا عن المشاركة، ولم أمض على المضض، مع تغير الحال.

وقد انتهت بعد ست سنين فترة جهادنا المشترك في إسلام آباد، وعدت إلى القاهرة، وفوجئت بعد عودتي إلى مصر واستقراري بها أنه - دون أن يعلمني - ترك إسلام آباد، متعاقدًا مع جامعة قطر، أستاذًا بكلية الشريعة بها، ثم وكيلا لهذه الكلية.. مع مواصلة أبحاثه العلمية، وارتفاع مكانته الدولية..

وللأستاذ «دين» - على سنته في الوفاء ارتباط خاص بالأزهر، وبشيخه الدكتور الطيب أستاذه في مصر، وعميده في إسلام آباد. وحين يعقد الأزهر مؤتمراته العلمية الدولية يكون للدكتور دين نصيب كبير من الإعداد لها، والمشاركة في تنفيذها . وقد صحَّ عزمنا معًا أن نشترك في إنشاء مجلة لخدمة العلوم الأزهرية التقليدية، تصدر عن وقف البحوث والدراسات الإسلامية الذي أقمته بالقاهرة، وانتظمت - بحمد اللّه - مكتبتُه في إحدى القاعات

الأثرية بمسجد «الأزهر الشريف»، تكون دورية علمية عالمية، متعددة اللغات، محكّمة، تختص بخدمة التراث الأزهري في مجالاته التقليدية، برؤية مستقبلية، وبخاصة في الأصلين: أصول الدين، وأصول الفقه؛ وما يتفرع عنهما، أو يتصل بهما اتصالا قريبًا من العلوم. سجلت هذه الفكرة، وليست جديدة بل عمرها عشر سنوات، ليكون ذلك التزامًا أمام القراء الكرام بالتنفيذ - واللّه المستعان.



(٥٦) في مجمع اللغة العربية

كنت أعرف «المجمع» وأتردد عليه أحيانًا، عندما كان في الجيزة، بجوار «حديقة الحيوان» المصرية، التي هي الثانية في العالم بعد حديقة لندن. وخاصة لألتقي بأستاذنا الدكتور إبراهيم بيومي مدكور، الذي كان أمينًا عامًّا حينئذ. وكان الأديب المصري الروائي «محمد عبد اللَّه» كبير المحررين بالمجمع، وكان عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين رئيسًا للمجمع.. وأذكر أني رأيته في أخريات حياته خارجًا من المجمع ليركب السيارة غير بعيد من باب المجمع.. متأبِّطًا زوجه، وهو منحنٍ من أثر السِّنِّ، كأنه في ركوع، لولا رأسه المرتفع يعلوه طربوشُه الرفيع.

وكنتُ قارئًا متابعًا شبهَ منتظم لشيوخ المجمع، من الشعراء والكُتَّاب كالجارم والزَّيَّات وغيرهما، وخاصة العميد نفسه، لعلي ما تركت مما كتب شيئًا إلا القليل النادر. وربما عرفتُ شيئًا عن الدكتور «محمد مهدي علام»، الذي شغل منصب الأمين العام فيما بعد، وكان قبلها العميد المؤسس «لآداب عين شمس»، ورئيس قسمي اللغة العربية، واللغة الإنجليزية بها، في الوقت نفسه؛ لخبرته السابقة في الجامعات الإنجليزية، ويرجع ذلك إلى أحد تلاميذه «الدكتور يحيى» وكان صديقًا قديمًا لي عين معيدا بقسم اللغة العربية، وحين عدت إلى أصول الدين الخازنداره، المواجهة عندئذ لآداب عين شمس، قبل انتقالها إلى العباسية، أوائل الستينيات ذهبت لزيارته..

ثم حالت الأيام والظروف بيننا للأسف الشديد. ويشاء اللَّه تعالى - أن

أشغل مقعد الأستاذ الدكتور مهدي علام في المجمع حوالي منتصف التسعينيات، وكتبتُ عنه مقال الدخول إلى المجمع حسب التقاليد المرعية، بكل اقتناع وتجاوب مع شخصيته ومواقفه، واتصلت بي بنته الكريمة تشكرني على ذلك، وهو واجب ولكنه محبب أثير.

وليس بعيدًا عن السياق أن أذكر: أني بعد عودتي من باكستان، حُمِلتُ حَمْلًا - وكنت أفضِّل الراحة والقراءة - على قبول منصب وكيل كلية دار العلوم، وقد ناهزت الستين، وقيل: إن الزميل الذي اتجه الرأى لاختياره عميدًا، قد أبدى رغبة أو استعدادًا لأن أخلفه في منصبه لو قبلت التعاون معه وكيلا، . . وعرف ذلك في الكلية بل والجامعة أيضًا. ولكن الزميل حلا في عينه أن يبقى عميدًا لدورة ثالثة. . وكانت أحداثٌ تجاوزناها، ربما كان مكانها حكاية أُخرى، فقد فاز الرجل بما حرص عليه، كأكثر المصريين. . أليس كذلك!! وقنعتُ بمنصب رئيس القسم الذي شغلته حتى الإحالة إلى المعاش عام١٩٩٥ . وكان أن بعض الزملاء، ومنهم الأخ الوفي الدكتور محمد حماسة عبد اللطيف وكذا الدكتور الصديق محمود الطناحي، وكانا خبيرين بالمجمع، حرَصَا على ترشيحي لعضوية المجمع، وقاما بتعريفي بالدرعمي العريق، رجل الدراما الإذاعية، الأستاذ إبراهيم الترزي، رحمه اللَّه، الذي رحَّب بي، وقدَّر تجربتي العلمية والعملية، فضلًا على التلاقي الفكري بيني وبينه بحمد اللَّه، وعرفني ببعض الشيوخ من الأعضاء، ومنهم أستاذنا الدكتور عبد الحافظ حلمي - رحمه اللَّه - الذي انطبع في نفسي بهدوئه وطريقته العلمية حتى في الكلام العادي.

وانطلق هؤلاء الإخوة، عَلِمَ اللّه، يعرِّفون الأعضاء بالقادم الجديد المجهول. . حتى إن الدكتور الطناحي - رحمه اللّه - تجرَّأ وكلَّم الأستاذ محمود أحمد شاكر، الذي وفَّى بما وعد به. . وبلغني أنه دار بينه وبين شيخنا الدكتور محمد نايل حديث حول الموضوع نفسه، فقال شاكر: أنا أعلم أنه مثلُك ولكن سأنتخبه. ويشاء اللّه - تعالى - أن تدور هذه الانتخابات، وكانت كالعادة أوائل العام الجامعي والمجمعي، وأنا خارج البلاد؛ كنت يومها في رحلتي الأولى عام ١٩٦٤ إلى «مسقط» عاصمة سلطنة عمان، وألقيت بحثًا عن الإباضية في نادي الإعلاميين هناك، وأبلغ الأستاذ الترزي - رحمه اللّه - زوجتي بالنتيجة التي أسفر عنها الاقتراع بالهاتف. وفزت بالعضوية بأغلبية مريحة جدًّا، وفي أول مرات الترشيح. . وقلما يتم ذلك في المعتاد. . وبادرتني زوجتي بالخبر لدى عودتي في اليوم التالي.

تلك هي الظروف التلقائية للاختيار، ولكني دخلت المجمع، وصعدت درجات السلم لموقعه الجديد بالزمالك، وكلي إحساس بالتهيب، والشعور بثقل المهمة. . التي تفوق قدراتي. . رحب بي الجميع وخاصة الأستاذ الترزي، وكانت له مكانة خاصة لدى الأعضاء، ولدى رئيس المجمع حينذاك، أستاذنا الدكتور مدكور - رحمه اللّه- وكانت آخر سني حياته، وأذكر أنه - في هذا العام الأخير - افتتح مؤتمر المجمع السنوي عند بلوغ الساعة العاشرة تمامًا، من صباح الاثنين ولم ينتظر معالي الوزير، الذي تأخر عن الموعد قليلًا، وانضم الرجل إلى فريق المنصة في هدوء.

وكان معي زميلان آخران من الأعضاء الجدد: الأستاذ الدكتور علي

الحديدي - رحمه اللَّه - والأستاذ الدكتور أحمد الصباغ متعه اللَّه بالصحة والعافية، وشغلت كرسي الدكتور مهدي علام - وهو من هو- وحرص الأستاذ الدكتور كمال رئيس لجنة الفلسفة في المجمع على تقديمي للأعضاء بلطف كبير -رحمه الله- ثم عملت معه، ومع الدكتور مراد وهبة الخبير في لجنة الفلسفة الإسلامية، التي حاول الزميل الدكتور العراقي - وكان خبيرًا بالمجمع أيضا - أن يغير اسمها إلى «الفلسفة العربية»، بحججه الجدلية، فتصدى له الأستاذ الدكتور شوقي ضيف بأن الاسم «الفلسفة الإسلامية» هو الذي اختاره أصحاب التخصص أنفسهم، كالشيخ مصطفى عبد الرازق ومن قبله من المستشرقين وحتى الآن. ولما تأخَّر اختيار الدكتور العراقي عضوًا ساءه ذلك، وتوقَّف عن التعاون مع اللجنة - رحمه اللَّه. وعملت فترة. . مع الأستاذ زايد ، وهو خبير ومسئول قديم بالمجمع وطائفة من الخبراء الكرام.

عشتُ حياتي ألتزم المبدأ القائل: « إذا دخلت في قوم فلا تقدم نفسك عليهم، حتى يقدموك هم». . ولكن عملي الدءوب في هذه اللجنة، وجهدي في لجنة العلوم الشرعية، التي كان يرأسها الأستاذ الدكتور شوقي ضيف رئيس المجمع، بعد مدكور - رحمهما اللَّه - وما أصدرناه، خلال عامين، من معجم الحديث النبوى بتعاون الدكتور العجمي الدمنهوري - رحمه اللَّه - خبيرًا، ومعجم أصول الفقه بتعاون مفتي الديار المصرية عندئذ الدكتور علي جمعة، لفت نظر الدكتور شوقي ضيف، وكان رحمه اللَّه حفيًا بأعمال هذه اللجنة، وكان مشغولًا عندئذ بما أصدره فيما بعدُ من تفسير موجز للقرآن الكريم، وما كتبه عن الإعجاز

القرآني بنظرة جديدة. . حتى ليكاد يكون العقد الأخير من حياته مقصورًا على الإسلاميات، إبداعًا وقراءة. وأذكر في هذا السياق أني رأيته لأول مرة في مكتبه، رئيسًا لقسم اللغة العربية بآداب القاهرة، عام ١٩٧٠ بطلب منه، حين أحال المجلسُ الأعلى للشئون الإسلامية، على سيادته، العمل الأول لي، الذي تعدد نشره بالمجلس أكثر من مرة، وهو «غاية المرام في علم الكلام» لسيف الدين الآمدي، وكان لقاءً كريما لأستاذ كبير، حرص على أن يعرف صاحب هذا العمل، الذي وافق على نشره، وكان مما قاله لي يومها: أنت ستكون باحثًا متميزًا في «الإسلاميات»، وكانت هذه الكلمة الأخيرة جديدة على أذني فلم أنسها أبدًا:

وبرغم علاقتي الخاصة بشوقي ضيف، التي كان فيها جانب روحي - ما زال مستمرًا بحمد اللَّه - فإنه اقترح عليَّ أن أترشح لمنصب الأمين العام، الذي كان يشغله الأستاذ الترزي، وانتهت مدته، فاعتذرت إليه بأن الرجل زميلي، وله لدي يدٌ لا أجحدها، ولا تسمح أخلاقي بمنافسته، فقدر هذا. . وتكرر مثل ذلك مرة أخرى - ولكن من جانب الزملاء في منصب نائب الرئيس، منافسًا لأستاذنا الدكتور كمال بشر ولكني ترددت كثيرًا، لاعتبارات لا تخفى. . ثم اعتذرتُ أيضًا رغم إلحاح الزملاء. . عِلمًا بأن الدكتور بشر - غفر اللَّه لي وله - لم يكن يترك جلسة واحدة من جلسات «لجنة الألفاظ والأساليب» التي يرأسها، إلا ويسيء إليَّ، حتى اضطرني إلى الاستقالة من اللجنة، بعد عشر سنين من العمل الجاد، الذي يشهد به الإنتاج المسجل في مطبوعات المجمع، واستقال غيري أيضًا، ممن شهدوا هذه التجربة، حتى لم يبق معه في اللجنة إلا عضو واحد، وخبير

واحد. . ثم حدث خلاف بينه وبين جميع أعضاء المجمع، بشأن بعض نصوص اللائحة، التي تؤثر على نتيجة انتخابه نائبًا لرئيس المجمع، فأخذ الأمر، لأول مرة في تاريخ هذه المؤسسة، إلى القضاء الإداري، وسلك طريق التهديد لبعض المسئولين، فسلموا بدعواه، وكان الأستاذ الدكتور العوَّا، عضو المجلس ووكيله للدفاع في هذه القضية، يؤكد سقوط الدعوى حتمًا. . وفاز الدكتور بشر بما أراد، لكنه نال أيضًا سخط الأعضاء أو جمهورِهم. .

وقبيل انتهاء مدة نيابته عن الرئيس انتقل الأستاذ الدكتور محمود حافظ، الذي كان في الوقت نفسه رئيسًا للمجمع العلمي المصري، إلى جوار ربه -رحمه اللَّه- فضغط عليَّ أكثر الأعضاء أن أتقدَّم لمنصب رئيس المجمع، فلم أتردد هذه المرة كسابقتها، وأنا أحفظ وأرعى بحمد اللَّه طوال حياتي: «إذا حرصت عليها وُكِلتَ إليها، وإن لم تطلبها أعنت عليها»، ونُظِّمت جلسة تمهيدية قبل الاقتراع، يتحدث فيها المرشحون عن أنفسهم ورؤيتهم لمستقبل المجمع، ولمس الأعضاء الفرق بين التعالي وعدم وضوح الفكر، وبين البساطة والمرونة الفكرية، فجاءت نتيجة الاقتراع حاسمة على نحو غير معهود، لصالح العبد الفقير. وحرصت - عَلِمَ اللهُ - على الاحترام الواجب للأستاذ الدكتور كمال بشر والتعاون معه، لكنه بعد أن فشل في الاحتفاظ بمنصب نائب الرئيس أيضًا، وفاز به الدكتور محمد حماسة عبد اللطيف، انقطع عن حضور جلسات المجمع. وأرجو أن يكون ذلك مؤقَّتًا، وأن يشاركنا العمل عضوًا كريمًا، طويل الخبرة، محفوظ القَدْر، بإذن اللَّه.

كان الصحفيون يترددون عليَّ يهنئون بمنصب الرئيس السادس المنتخب في تاريخ المجمع، وأول معمَّم يشغله، فأقول لهم مقالة الأستاذ الحكيم أحمد أمين، عندما اختير عميدًا لكلية آداب القاهرة، وجاءوا يسألونه ما شعورك وأنت تحتل كرسي طه حسين، فيقول: أشعر أنني أصغر من أستاذ وأكبر من عميد. وأضيف: إني إذا كنت قد فزتُ، من بين مصريين كثيرين لعلهم خير مني، بالدراسة والتفوق، في كل من جامعة الأزهر، والقاهرة، ولندن - فإني أعتبر الدراسة الأزهرية التأسيسية هي ذات الفضل في تأهلي لهذا المنصب، واعتبر العمامة خير رمزٍ للعناق بين رسالة الأزهر ومهمة المجمع اللغوي المصري.

لقد تعلمتُ من عضوية «المجمع» والعمل فيه الكثير، ووقفتُ على بعض جوانب التميز في شخصيات مدكور، وضيف، وحافظ.. والدكتور القصاص، والدكتور عبد الحافظ حلمي، والدكتور حسنين ربيع، والدكتور سلطان أبو علي، والدكتور عبد الحكيم راضي، والدكتور أحمد فؤاد باشا، والدكتور أحمد علم الدين الجندي، والأستاذ إبراهيم الترزي، والأستاذ فاروق شوشة.. بل بعض زملائي الذين عايشتهم من قبل وازددت اقترابًا منهم كالدكتور محمود الربيعي والدكتور عبد الحميد مدكور والدكتور شفيع الدين السيد، والدكتور محمد حسن عبد العزيز والدكتور أحمد عبد العظيم ، والدكتور محمد فتوح أحمد.. ولا أنسى الرجل العالم المتمكن من كل علوم العربية، الأستاذ الكبير مصطفى حجازي، وتلميذته النجيبة الأستاذة الخبيرة بالمجمع، والمديرة السابقة للتحرير بالمجمع السيدة إقبال المراغي.

وقد زكَّى العملُ بالمجمع الجانبَ اللغوي - الذي اكتسبته من الأزهر ودار العلوم - ، وعملتُ أحيانًا في ست لجان من لجان المجمع العلمية واللغوية. . وكنتُ عندما دخلت المجمع في الرابعة والستين من عمري أُعَدُّ من شباب المجمع، ويكلون إليَّ من المهام ما يناسب ذلك المقام، ولله في خلقه شئون. وما زلت أشارك في لجان الفلسفة والشريعة، والتراث العربي، والألفاظ والأساليب، رغم تقدُّم السن وتزايد المسئوليات، والمفترض أن يعمل كل عضو في لجنتين على الأقل، وبعضهم يكتفي بواحدة.

أحترم الإنسان فيمن أعمل معهم، طوال حياتي العملية، وأعتمد الصراحة والشفافية، وأشتدُّ على نفسي قبل غيري، وأتعاون مع الجميع ولا أسكت على فساد، وإن علمتني الأيام أن الزمن جزءٌ من الإصلاح ومن الفلاح. . . ولا أتعالى على النقد، وأحب العمل حتى لينصحني مَن حولي بألا أشق على نفسي. . وأحترم الفنون، وأشهد المسرح قدر الظروف والإمكان، وأتابع الإبداع في مختلف ميادينه بصرف النظر عن الأيديولوجيات، وأكتب -بجانب مؤلفاتي التخصصية التي يعرفها ذوو الشأن - لذات نفسي، وأقرض الشعر أحيانًا ، وربما تجرأتُ فنشرتُ ديوانًا في يوم ما ، أحب شيوخي في الأزهر ودار العلوم ومجالات العمل العام وأعترف بأفضالهم.

قاسيتُ الكثير من المشاق والآلام، والحرمان من الحرية. . والتعذيب والإهانة، فازداد حبي للحرية والكرامة للجميع، وأعمل على

ألَّا يتعرض مصري آخر لما تعرضتُ له . . ولو تخاذلت في ذلك لما رضيتُ عن نفسي . . وهذا الضرب من الحديث عن نفسي، وما فيه من الفتنة، وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء، إنما أقصد به هذه الغاية الكبرى: طلب الحرية والكرامة للجميع، وممارستهم لثقافتهم وتذوقهم لتراثهم كما كان يفعل أحمد أمين، وزكي نجيب، والزيات، ومحمود شاكر، وتغنِّيهم بلغتهم كما كان يفعل طه حسين، ودعوتهم لدينهم في إخلاص وسماحة وإعراض عن الدنيا كما كان يفعل حسن البنا - رحم اللَّه الجميع، ورحم مصر، وحفظ مؤسساتها، ورجالها ونساءها، رائدة للأمة العربية والإسلامية. آمين.



(٥٧) في الطائرات والمطارات

في الطائرة تتوكل على اللّه كراكب البحر، ولكن الإنسان نسّاء، حتى قال قائل: «وما سُمّي الإنسانَ إلّا لنَسْيِهِ» ويتكرر خطاب الوحي في القرآن: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ۝ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾.. [يونس ٢٢ - ٢٣] ومثلها في الروم ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٦٥].

يناديك قائد الطائرة: تنبه، وشد الطوق.. هنا مطب جوي، وحين تعود الريح طيبة رخاء.. ينسى المرء أنه كان في أجواز القضاء بين يدي الرحمن ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَـٰٓفَّـٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَـٰنُ ۚ﴾ [الملك: ١٩] فإذا ما هبطت الطائرة.. وانطلق الكل إلى أغراضهم، عبْرَ الإجراءات المعتادة، نسوا في غمرة الحياة وشواغلها كل شيء.

«الإجراءات المعتادة».. ! نعم بالنسبة لعباد اللّه في الأرض، في البلاد كافة، لكنني ربما أذهب إلى المطار، مصطحبًا التوكل على اللّه وأنا على الأرض، ولا أدري هل أجتاز «الإجراءات المعتادة».. وأصل إلى الطائرة أم لا؟.. والعقبات الدائمة؛ إنما هي في العودة، فما عدت إلى أرض الوطن، إلا واحتُجزت - مع زوجي وبعض زملائي - ساعة

أو ساعات قد تطول أو تقصر.. ويذهب العائدون في سلاسة إلى أغراضهم أحرارًا.. كنتُ مرةً عائدًا من أحد البلاد العربية، واحتجزتُ كالمعتاد أو «المعتادة»، وفوجئت بالدكتور عبد المنعم أبو الفتوح - وكان أيامها عضوًا بمجلس الشعب - يريدون احتجازه، وهو يصرخ فيهم: يحترمنا الناس في كل البلاد، فإذا عدنا إلى وطننا نواجه التفرقة والمعاملة السيئة؟! فاعتذروا له، وخرج.. أما العبد الفقير، فإننا حتى ونحن معارون رسميًّا من الحكومة المصرية إلى باكستان.. ما دخلنا مصر كما قال اللَّه - تعالى - ﴿ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٩] إلَّا بعد احتجاز ممل ممنهج، قد يمتد إلى ساعات طوال.. للرجال والنساء.. كان هذا في عهد «مبارك» الذي كانت فيه مصر مرتعًا لكل من هَبَّ ودَبَّ، فكان يذكرني بقول شوقي:

أحرامٌ على بلابله الدو ... حُ حلالٌ للطير من كل جنس

أمَّا بعد الثورة فلم أسافر إلَّا مدعوًّا من بلدٍ شقيقٍ، أو عضوًا في وفد رسمي، فلم أتعرض «للإجراءات المعتادة» مع أمثالي، وأرجو أن يعفي اللَّه منها كل مصري ومصرية..

وفي المطارات يكون الانتظار ويسود الملل.. وربما القلق.. أما في الطائرات فيسود التعلق باللَّه - تعالى -، والاسترسال مع ظروف الرحلة، وأعرف أكثر من واحد ما إنْ تدلَّه المضيفة على مقعده حتى يستوي فيه.. ويغلق عينيه.. ويستغرق في نوم عميق؛ حتى يوقظوه لتناول الطعام، أو للاستعداد للهبوط.. وما أذكر أني نمت في طائرة أو سيارة قط.. مع أن قلق السفر أو «دُوارهُ» الذي يصيب بعض ركاب

الجو والبحر لا يعتادني بحمد اللَّه. . وأذكر أن صديقنا وشيخنا الدكتور عبد الهادي التازي - بعد أن بلغت رحلاته الجوية بضع مئات - لم يكتف بدعاء السفر المختصر: «سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون - اللهم هوِّن علينا سفرنا هذا واطو عنَّا بُعدَه. اللهم: إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى، اللهم: إنا نعوذ بك من وعثاء السفر، ومن سوء المنظر، ومن سوء المنقلب في المال والأهل» لم يكتفِ به، وكتب على منوال الشيخ أبي الحسن الشاذلي الذي تعرَّض في رحلاته بين المشرق والمغرب - وهو المكفوف البصر - لمتاعب جمَّة؛ فكتب حزبي البر والبحر، لإيناس المسافر بهما، وربط قلبه بالله - تعالى - الذي يأخذ بنواصينا جميعًا. . أمَّا الشيخ عبد الهادي التازي فكتب «حزب الجو».

من أجمل ما يكون في السفر «تلاوة القرآن»، والتأمل في أحوال البشر، وتأثرِ سلوكهم بظروف السفر. وهو على كل الأحوال، وتقدم وسائل الراحة، «قطعة من العذاب» كما قالت العرب، أو هو في أقل تقدير «وضع خاص» تبتعد فيه عن مرافقك في حال إقامتك، ولا تستطيع أن تمارس عاداتك الشخصية. وذهنك أيضًا مشغولٌ بما أنت مقدم عليه، ترجو قضاءه في يسر، وبمن تركتهم خلفك من أهل وولد. . وعمل ومسئوليات. . وقد اعتد الرحيم «الرحمن» بذلك أيضا فأسقط عنك بعض الواجبات، أو أخرَّها، أو قصرها، ولكنه حذَّرك من أن تخضع للضعف إزاء متاعب السفر التي لا بد منها، في «رحلة التعبد الكبرى = رحلة الحج»: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ . . .﴾ البقرة؛ فإن

السفر، والمعاملة الإنسانية والمالية، هي التي تظهر أخلاق الرجال. جاء أحد الشهود إلى سيدنا عمر بن الخطاب - رضي اللَّه عنه - ولما كان غير معروف له طَلَب مَن يُزَكِّيه، فتقدَّم أحد الرجال للتزكية، فسأله سيدنا عمر: أهو جارُك الأدنى تعرف مُدخله ومُخْرجه؟ قال: لا. فسأله ثانية: هل عاملته بالدرهم والدينار..؟ فقال: لا. فسأله ثالثة: هل سافرت معه، فإن السفر يكشف أخلاق الرجال؟ فقال أيضًا: لا. فقال له عمر: لعلك رأيته في المسجد يرفع رأسه ويخفضها؟ فقال الرجل: نعم. فقال له: اذهب فلست تعرفه.

كان العربي القديم يسافر كثيرًا، ويقطع الفيافي، ويجتاز العقبات والوهاد، لأن اللَّه تعالى وضعهم على طريق أسفار وتجارة دولية، وسياحة دينية، وفَّرت لهم الأمنَ، ويختطف الناسُ مِن حولهم أحيانًا.. وقد امتنَّ اللهُ عليهم بذلك وخاصة قريش - سكان الحرم ومن حولهم- ﴿لِإِيلَـٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَـٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَـٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾ [سورة قريش].

ولكن الغريب في الأمر أن المسافر القديم، في أرجاء الجزيرة، كان أكثر إنسانية وربما أكثر أُنسًا، على انفراده وتجشمه للصعاب، التي لا أظن أن عرب اليوم يتحملونها أو يتصورنها.. فهذا شاعر يمني قديم، يقول مستشعرًا عواطف ناقته، التي تركت خلفها في اليمن وليدها لم يشب عن الطوق، إلى جانب عواطفه هو وشواغله الخاصة:

هَوَى ناقتي خَلْفِي وقُدَّامِي الهَوَى وإنِّي وإيَّاها لمختلِفانِ
هَواي شآمِيٌّ وتَرْنُو بطَرْفِها لِبَرْقٍ إذا لاحَ العَشِيُّ يَماني

رأيتُ مِن عرب اليوم مَن إذا عَلَوْا سُلَّمَ الطائرةِ، واستقرُّوا في مقدِّمتها، خلعوا الخمار والعباءة، وتبدل الحال غير الحال، كأنك ترى أوربيين كانوا في زيارة لبلاد العرب.. تَجِدُ من يُكَلِّمُك بغير العربية كأنه لا يعرفها، ليثبت ثقافته وحداثته.. ومن يتعالى على مَن حوله كأنهم نوعية أخرى من المخلوقات، لما في جيبه من الشبكات. ورأيتُ أيضًا من أهلي - المصريين - العائدين من حج أو سفر، في يده أو يدها حِمْلٌ، وعلى الرأس أو الظهر حمل كبير.. والطائرة تئن بحمولتها.. وفريق الخدمة في حرج شديد.. فأشعر شخصيًّا بالخجل، ولكني أعذر هؤلاء، فما حملهم على هذا إلا الفقر والحاجة، ومازالوا بعد بشَرا أسوياء، يسلكون مع غيرهم - فيما سوى هذا - المسلكَ الطبيعي. أما أولئك الذين يخلعون جلدهم وثقافتهم خارج الوطن، ثم يعودون إليها كارهين، أو ينظرون إلى غيرهم في جمود واستعلاء كاذب.. لا لشيء إلا أن اللَّه - تعالى - امتن عليهم بنعمة المال أو نعمة التعليم، فهم أقل إنسانية وأضل سبيلًا.

ثقافتنا تحض على الرحلة والضرب في الأرض:.. ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [آل عمران] والأرض كلها مسخرة ميسرة للبشر كافة؛ ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك] ولا ينبغي الإخلاد إلى الأرض إذا هُددت الكرامة أو العقيدة ﴿الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧].. ومن هاجر من أجل ذلك، أو لعلم يطلبه، أو لرزق يسعى إليه، فقد وقع أجره على

اللّه ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠].

وفي الحديث «مَن سَلَكَ طريقًا إلى عِلمٍ يسر اللّه له به سبيلًا إلى الجنة»، بل هو التحريض والتحضيص الإلهي على الرحلة في طلب العلم ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ ومثل هذا الطالب المسلم لا تتجاوب معه ناقتُه فحسب كجده القديم؟ بل يتجاوب معه الكون كله «. . إن طالب العلم يدعو له كل شيء حتى الطير في الهواء، والحيتان في البحر، حتى إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رِضًا بما يصنع». كما جاء في الحديث النبوي الشريف.

فلم يكن غريبًا أن يُدفن أصحاب النبي - صلى اللّه عليه وسلم - في أنحاء عديدة متباعدة في آسيا وأوربا وأفريقيا. . وأن يقول شاعر الفقهاء وفقيه الشعراء الشافعي رضي اللّه عنه: سافر ففي الأسفار سبع فوائد.

ومن طرائف السفر ما أورده الشيخ الشريف بن كنون - رحمه اللّه - في كتابه (أدب الفقهاء) عن قوله:

كانت مساءلة الركبان تخبرنا عن أحمد بن فلاح أطيب الخبر
حتى التقينا فلا والله ما سمعت أذني بأطيب مما قد رأى بصري

كتب اللّه لك رحلات سعيدة. . على أي متن تستوي عليه ولكن لا تنس قوله تعالى: ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ صدق اللّه العظيم.

(٥٨) الدكتور عبد الحميد مدكور

ثبت لغوي وشيخ صوفي، وأستاذ جامعي من قرية «باسوس» في مشارف القاهرة، وبدايات محافظة «القليوبية» وهي القرية المعروفة بكثرة الحُفَّاظ، وليس غريبًا أن تجد الفلاح في حقله، وهو يرعى مواشيه، يتلو القرآن الذي يحفظه كله عن ظهر قلب. ومِن ثَمَّ عُرِفَت أيضًا بالأصوات الحسنة، ونجوم التلاوة في الإذاعة المصرية، ويرجع الفضل في ذلك إلى شيوخ «الكتاتيب» الذين غرس اللَّه في نفوسهم حُبَّ القرآن، فعَلَّموا الناس وحفَّظوهم كِتابَ ربِّهم جيلًا بعد جيل. . وقد ضربت الكتاتيب ضربة قاصمة أوائل الخمسينيات، وتطبيق نظام اليوم الكامل بالمدارس الأولية، والابتدائية. والآن استقالت المدرسة وخرجت من الخدمة وماتت الكتاتيب أيضا. . وصار الناشئ المصري ينهي المرحلة الابتدائية وهو لا يستطيع كتابة اسمه. . وكنا في الكتاتيب نقرأ ونكتب. . ونصلح أجهزتنا الصوتية، ونعودها على نطق العربية ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا . . .﴾؛ فلا كسبنا دنيا بنهضة التربية، ولا بقي لنا الرصيد الديني بحفظ القرآن. . هل يفكر أساطين التربية المصريون في هذا الجانب الخطير من أزمتنا التربوية؟

كنت أزور قرية باسوس في أوائل الخمسينيات من القرن الماضي؛ قرية صغيرة جميلة، نعم كانت تعاني من هيمنة بعض الأسر الإقطاعية، لكن الوعي الشعبي كان يوازن إمكاناتهم المتفوقة، وصلاتهم المشبوهة بعناصر الإدارة ويوقفهم عند حدهم. . وجاءت ثورة ٥٢ لتقلم أظفارهم، وتساند

الوعي الشعبي المتنامي ضد هيمنتهم.. وكنت أسلك طريق أبي المنجي المشروع المائي الهام، ومصانع الزجاج الوطنية للرجل العصامي العظيم «ياسين» بعد اجتياز شبرا البلد مدخل القاهرة الوحيد من الشمال حينذاك.. وأحيانًا أتجاوز بيوت القرية وأمشي بين المزارع والربوع الخضراء إلى حيث ضريح الشيخ «سيف» على النيل؛ لألقى صديقي السيد حسن حماد.. وهو يمارس هوايته المفضلة «السباحة في النيل» بعيدًا عن الأعين والفضوليين..

وجدت ذلك كله الذي كان بالأمس أخضر، قد قامت فيه بيوت إسمنتية تفتقد الجمال، وعمارات ما تزال حمراء، لون «الطوب المحترق»، واختفت الربوع الخضراء، وصارت شوارع تغصُّ بالفضلات.. وغيرها. وتآكلت الأرض الزراعية، وتمددت الأبنية إلى الشيخ سيف وما بعد الشيخ سيف.. ويكاد البنيان يتصل تمامًا من شبرا المظلات، وشبرا البلد.. وأبي المنجي.. والمصانع القديمة والجديدة.. عمارت تسلمك إلى عمارات.. حتى باسوس التي لا أدري أهي قرية أو مدينة.. فقد أصبحنا مع ترييف المدن المصرية، لا تمدين الريف، لا نكاد نميز بينهما.. ولكن السؤال الأخطر من أين سيأكل كل هؤلاء الساكنون في هذه العمائر؟ بعد أن تآكلت الأرض الزراعية واستهلكت في هذا التطور «المجنون».. الذي فاق التجريف.. والتبوير.. وغيرهما، من صور الخبل الزراعي، الذي يمكن إصلاحه. أما الذي تواجهه أرضنا الزراعية الآن، في طول مصر وعرضها، فهو أشبه بالاستيطان، الاستيطان، الاستعماري (أو المعماري) الذي لا يمكن إصلاحه.

كنت أؤدي - مع زوجي وبعض الأسر الصديقة - واجب العزاء في

وفاة زوجة الزميل الدكتور عبد الحميد عبد المنعم مدكور، الذي انضم إلى قسم الفلسفة الإسلامية بدار العلوم معيدًا في منتصف الستينيات تمامًا، وواصل دراسته الجادة - في مجال التصوف - مع الراحل الذي بنى هذا القسم، الدكتور محمود قاسم - حول الصوفي أبي طالب المكي وكتابه قوت القلوب. ثم سافر أواسط السبعينيات إلى باريس، وجدَّ في العمل لدرجته الدكتوراه، مع أحد زملاء الدكتور قاسم وإن كان أحدث منه - وهو المستشرق آرنلديز. .

زرته في باريس وزملاءه هناك بالسوربون. . الدكتور حامد طاهر، والدكتور أحمد درويش، والدكتور، محمد الألفي، الذي كان زميلًا لي في «الإمامة» بعابدين، وانتقل معيدًا بكلية الشريعة، وبعث إلى باريس لكنه استمر هناك فترة من الزمن غير قصيرة. . وكان الدكتور عبد الحميد. . قد تزوج - بفضل الله، وبمشاركة بالمشورة من جانبي - شقيقة أحد أصدقائي وبلدياتي. . وفي باريس ولد له أكثر من وليد. . أحسبهم يحملون الجنسية الفرنسية كالمعتاد. . وقد أعان الاستقرار العائلي الدكتور عبد الحميد على المضي في دراسته بتقدم ملحوظ. . وهذه السيدة الكريمة، التى اقترن بها أوائل السبعينيات من القرن الماضى، عانت في السنين الأخيرة. . وقد أنجبت ثلاثة رجال أكملوا دراستهم، ولم يتزوج إلا واحد منهم فقط، وبنتًا وحيدة تخرجت وسافرت مع زوجها المبعوث إلى الولايات المتحدة، وما زالا يدرسان، ويربيان طفلين جميلين. . عانت السيدة من مرض المصريين = الكلى وتحملت آلام العمليات الأسبوعية في تطهير الجهاز الدوري. . وما يتصل به من متاعب طبية، وجاء الأجل المحتوم. . وعاد

ولدها الذي يعمل بإحدى البلاد العربية. . لكن الغريب حقًّا، والذي ذهل له المتابعون لحالة السيدة الراحلة. . أنها ظلت تفتح عينيها بين غمرات الغيبوبة المتطاولة أحيانًا، حتى اكتحلت عيناها بمرأى ابنتها القادمة من الولايات المتحدة. . لمدة خمس دقائق، ثم أسلمت الروح - كما حكى لي. . رحمها اللَّه. .

إن الدكتور عبد الحميد مدكور هو أقرب الزملاء إليَّ بدار العلوم بعد رحيل زميلي الدكتور علي عشري، وقد كان أول معيد ينضم إلى قافلة القسم العتيد بعدي، فصرنا ثلاثة، كلانا و «الدكتور السنهوتي». . ومن غرائب أحواله - وهو الشيخ الصوفي بالقسم، حتى إن الدكتور قاسم كان يناديه أحيانًا: يا شيخنا - أنه وهو طالب بالسنة النهائية لليسانس اعتقل، في حادث عارض فقد بدا لأحد أبناء عمومته أن يصلِّي الجمعةَ بالأزهر الشريف، وهو مسلح بمسدسه كالكثيرين من أبناء الأسر الريفية، ولسوء حظه كان الرئيس عبد الناصر يؤدي الجمعة في هذا اليوم بالأزهر، فاعتقل على باب المسجد، واعتقل العديد من أقاربه، ومن بينهم «الدكتور عبد الحميد»، ولكن لحسن حظه، ولظهور الظروف التلقائية للحادث، خرج الدكتور عبد الحميد من المعتقل بعد فترة قصيرة وأدرك امتحانه، وتفوق كعادته، ولكن الحدث العارض صار نقطة سوداء في «دوسيه سيادته» - خصوصًا أنه يمارس الإمامة والإصلاح العائلي والتكافل الاجتماعي في قريته. . وفاءً لأهله ومواطنيه. . ولكنه أصبح ينال نصيبه من الإزعاجات الثقيلة، التي ظننا أن ثورة يناير قد غيَّرت منها ، ولكن عادت ريمة إلى «العادة القديمة» في تتبع الشرفاء، وإيذاء الأحرار الأبرياء، والانشغال عن أعداء القانون الحقيقيين بغير ذلك من الأعباء. .

على كل حال.. يبدو أنها ضريبة لا بد من دفعها، وبلادنا تتململ منذ عهد مبارك الكئيب، ساعية نحو حريتها، وستبلغها طال الطريق أو قصر بإذن اللَّه.

عندما عدت من لندن ١٩٧٧، بعد زيارة الدكتور عبد الحميد وأسرته، وزميليه الكريمين «د. حامد طاهر ود. أحمد درويش» اللذين حصلا على دكتوراه الدولة بعد ذلك: وجدت أن بعض تلاميذ الدكتور مدكور، الذين عينوا بالقسم معيدين وشحن بهم الدكتور كمال جعفر - رحمه اللَّه - قسم الفلسفة، وهم خمسة جدد، بالإضافة إلى الأربعة القدماء من أيام الدكتور قاسم (حسن، والسنهوتي، وعبد الحميد - القدماء الثلاثة) والدارس في باريس (حامد طاهر) تسعة معيدين مع أستاذ واحد هو الدكتور جعفر نفسه، حتى عينت أنا والدكتور السنهوتي مدرسيْنِ.. وهذا الخلل البنيوي لم يكن يشغلنا، ولكن هؤلاء الزملاء الجدد - وهم تلاميذي جميعًا فيما عدا الدكتور عبد اللطيف العبد - رحمه اللَّه - كانوا يسعون بنشاط للحصول على الدكتوراه في الداخل على نحو متعجل.. ولم تَرُق لي هذه الأوضاع، التي انتهى إليها قسم عريق التقاليد، قاد مسيرة الكلية عشر سنين، خلال ظروف دقيقة حساسة.. وكان ينمو بطريقة طبيعة غير عشوائية كتلك الحال، التي لمستها عقب عودتي، وخاطبت الدكتور مدكور مقترحًا عودته ليكمل بحثه في مصر، ويحتل مكانه الطبيعي مدرسًا في القسم، واستجاب الرجل لنصيحتي، وعاد بعد أن تعلم الفرنسية، وصار القسم بحمد اللَّه يضم لغتين أجنبيتين، وتأكد ذلك بعودة «الدكتور» حامد طاهر بعد سنوات.. وهذا جانب من تاريخ القسم ومسيرة الزميل الفاضل - الشيخ مدكور - حكيته لكم في هذه الحكاية القصيرة، ولكن الدكتور عبد الحميد حاضر في كثير من حكايتي الأخرى. والحمد للَّه.

ويبدو أن حياتنا الجامعية تنمو كما تنمو «باسوس» والريف المصري دون تخطيط مناسب، أو دون تخطيط على الإطلاق. . ولكن من الحق أن أذكر أيضًا أن تنوع الكفاءات في هذا القسم، وأنفاسَ قاسم - رحمه اللَّه - وبقايا طريقته في التكوين، وحيوية هؤلاء التسعة الذين لم يلبثوا أن صاروا أساتذة مرموقين أعطت قسم الفلسفة حيوية لا أظن أن حظي بها قسم آخر. ومَن شواهد ذلك، أنه أول قسم نجح في إقامة مؤتمر دولي منتظم للفلسفة الإسلامية، على مدى يقارب عشرين عامًا الآن. وأنه يستقطب من الطلبة الوافدين، من أنحاء العالم، عددًا لا ينافسه فيه إلا قسم «الشريعة الإسلامية» لطبيعة التخصص لا لاعتبار آخر. وأنه القسم الوحيد الذي بثَّ في محيط أقسامنا العلمية، أو في دار العلوم على الأقل، روحًا إنسانية جديدة، بإنشاء «الصندوق الموحد» لموارد لقسم وتوزيعها على السوية. وصدق القول المعصوم: «من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا. .».

والحمد للَّه.



(٥٩) الدكتور عز الدين إبراهيم

كان شابًّا في أوائل عشرينياته، وأنا طالب في أوائل سني الأزهرالإبتدائية، يخطب الجمعة في مسجد الشيخ عماد الدين، الذي يحمل اسمَه أحدُ أهم شوارع العاصمة، عند تقاطعه مع «الشيخ ريحان»، أبيض الوجه مشربا بحمرة، ذا لحية قصيرة يميل شعرها إلى الاصفرار. وكان عندئذ طالبا بقسم اللغة العربية بكلية الآداب، في جامعة القاهرة، يقيم مع أسرته بحارة تسمى «القبودان»، بين عابدين وحى «الحنفي». وكنت أسعد بالصلاة خلفه، ومتابعة أذانه المتميز.

ثم جاءت أحداث الصراع السياسي الذي شهدته مصر، أواخر «الأربعينيات»، فبرز اسمه فيها، وكان قد تخرج في آداب القاهرة؛ إذ صحب الأستاذ محمود الشناوي المحامي في مغامرة هروب إلى ليبيا، فاجتازا الحدود الغربية سالميْن، وحظيا برعاية الملك السنوسي، الذي جرب النفي والغربة، قبل أن يتولى مقاليد الملك، وشاء اللَّه - سبحانه - أن يعود إلى هذا الضرب من الحياة مرة أخرى لاجئا إلى القاهرة، أواخر الستينيات، بعد انقلاب قاده القذافي، الذي حكم ليبيا أكثر من أربعين عاما، أشقى فيها شعبه وبدد ثرواته وخرَّب مؤسساته.

ثم عاد إلى مصر، وتعاقد - بعد فترة - للعمل بإحدى الدول العربية، وكان يحسن الإنجليزية، فسافر بما دبره من مال إلى لندن، والتحق بكلية الدراسات الشرقية والأفريقية بجامعة لندن، وعرفته عندئذ

حلقات الحوار والجدل السياسي، في حديقة «هايد بارك» في قلب لندن، منافحا عن قضايا العالم الإسلامي وبخاصة قضية فلسطين.

وبعد حصوله على «الدكتوراه» من جامعة لندن، عمل فترة بجامعة الملك سعود، بمدينة الرياض، بقسم الثقافة الإسلامية، وأخبرني الدكتور أحمد العسال الذي زامله في هذا العمل خلال «الستينيات» أنه كان يتهيأ لدرسه كما يتهيأ لأداء الشعائر، ويقول: إن حضور الأستاذ أمام طلابه «ضرب من «الأداء»»، كأداء الممثل أمام جمهوره، مع الفارق طبعًا. وإن على الأستاذ أن يأخذ كل حركة وكل سكنة، وكل كلمة وكل سكتة، في الحسبان؛ حتى يضمن حُسنَ الأداء، وحتى يتطبع بذلك، ويتقن الأداء الإنساني في حياته، والأداء التعليمي في المدرَّج.

لم تشغله حلقات التدريس - على اهتمامه بها ورعايته لحقوقها - عن البحث، فنشرت له أبحاث عبرت عن كفاياته وخبراته التي اكتسبها في تجارب خصبة، ودراسات متتابعة، وما أعطاه اللّٰه من مواهب، ظهرت بوادرها عندما كان شابًّا جامعيًّا في أواخر الأربعينيات. فكان هو و«الدكتور» محمد فتحي عثمان، ينهضان عادة بالترجمة الفورية للزوار الأجانب للمركز العام للإخوان المسلمين.

ثم انتقل من «السعودية» إلى «دولة الإمارات العربية المتحدة»، وهي تبني أسس حياتها العلمية، وهناك، ظهرت مواهبه وخبراته، فاختاره القوم بعيون فاحصة، لا تقيم وزنًا إلا للكفاءة والأمانة، أول رئيس لجامعة «العين»، وقدر له أن يضع أصولها الأولى على نهج سليم.

كان يأتي إلى القاهرة أحيانًا، ولكن مجال نشاطه وخدماته كانت البلاد العربية في المشرق، وأحسب أن تجربة الأربعينيات، وحياته في الغرب هي التي وجهته إلى ذلك، كان واحدا من جيل متميز موهوب حقا: منهم الأستاذ أحمد فراج أحد أبرز الإعلاميين العرب، والدكتور محمد فتحى عثمان أحد كبار الأكاديمين، والأستاذ محمود الشناوي وكان قانونيًا بارزًا ومحاميا أمينًا، والأستاذ على رياض زميل الدكتور عز الدين في آداب القاهرة، الذي انضم إليه في الإمارات وعمل معه، والدكتور محمد رشاد سالم صاحب الدراسات «التيمية»، والأستاذ عبد الحليم أبو شقة صاحب العمل الكبير الرائد: «تحرير المرأة في عصر الرسالة»، وغيرهم.

وقد استقر أخيرًا مستشارًا بديوان رئيس الدولة في الإمارات..

إن جيل الدكتور عز الدين لم يكونوا يبحثون عن تصدر أو شهرة - كما غلب على طائفة ممن ظهروا في مرحلة «الفضائيات»، وعرفوا «بالدعاة»، وهو لقب أكبر منهم بكثير - بل كانوا يبحثون عن الخدمة النافعة، ويملكون الخبرة، ويحسون أداء واجباتهم أينما كانوا.

لم تشغله مهامه في الإمارات عن حضور المؤتمرات العلمية، واللجان الاستشارية، في البلاد العربية جميعًا، ومن آخر ما شاركته فيه من ذلك، لجنةً ضمت نخبة من كبار التربويين والجامعيين لمناقشة «البرنامج العلمي والخطة التنفيذية»، لإحدى المؤسسات التعليمية الجامعية بدولة قطر، أعدها زملاء بدار العلوم، منهم: الدكتور محمد سراج والدكتور عبد الرحمن سالم، وشاركت فيها، وكذا الدكتور

عبد الحميد مدكور. وكان الدكتور عز الدين حفيًّا بهذا العمل - كما أخبرني أ.د. سراج - لخبرته الجامعية الطويلة، وتقديره لجدية الأداء.

وآخر لقاء لي معه، فوجئت بعده بخبر رحيله - رحمه اللَّه - وكان معه أحد أحفاده، كان مؤتمرًا للحوار بين الأديان، في أم القرى - حرسها اللَّه تعالى - وهو مجال له فيه باع، وخبرة طويلة، وكان الغربيون يحرصون على الاستماع إليه في مؤتمرات الحوار المتنوعة، وقد كتب بحوثًا ومقالات عدة في هذا الصدد - حبذا لو جمعت؛ لأهميتها الخاصة، إذ فيها خلاصة لخبرة أحد أكبر خبرائنا في العالم الإسلامي في شئون الحوار ، فعسى أن ينهض بذلك بعض أهله أو تلاميذه بإذن الله. وأذكر أن أحد زملائنا في هذا المؤتمر، كان يتعرض لما نقل عن الرازي والشهرستاني، وغيرهما في أخريات حياتهم من نحو قولهم:

نهاية أقدام العقول عقال　　وآخر سعى العالمين ضلال

ولم نستفد في بحثنا طول عمرنا　　سوى أن نقلنا فيه قيل وقالوا

ويرى فيه نكوصا عن كل ما قدموه من أفكارا، وإدانة كاملة لحياتهم العقلية والفكرية السابقة، وكنت أقول: إنه مقام الحيرة، يعتري المفكرين في فترات النضج، والاستعلاء على المذهب الضيق. وصادفناه خارجا من المؤتمر، بعد أن ترأس إحدى حلقاته، فبادره زميلنا الدكتور محمد السليماني يستفتيه في هذا الخلاف، فإذا به يقول: إنها حيرة المفكرين!

ولا أستطيع أن أنهى حكايتي هذه، دون أن أحكى أيضا ما سمعته منه في زيارة له لمدينة لندن، واستضافه خلالها الدكتور محمد

عبد الحليم - حوالي منتصف السبعينيات - في الكلية التي تخرج فيها خلال الستينيات، وجاء ذكر حسن البنا، فقال: هذا رجل كان موهوبا على نحو فريد، أذكر أنه حضر يوما احتفالا بمناسبة دينية، في حي «المذبح» بجنوب القاهرة، وأكثر الحاضرين من الجزارين، فما كان منه إلا أن حدثهم عن مصر القديمة، وهم من أهل هذا الحي، وأن الذي أسسه في البداية بعد أن وفقه اللَّه - مع عمر بن الخطاب لفتح مصر - هو عمرو بن العاص الذي كانت مهنته، قيل الإسلام، هي «الجزارة». وعقب الدكتور عز الدين: ولا أستطيع أن أنسى براعة الرجل، التي جعلت كل واحد من جزاري المذبح الحاضرين، يحس بحالة من التوحد أو التلبس مع زميلهم الجزار عمرو بن العاص - رضي اللَّه عنه.



(٦٠) زيارات، ورحلات

الرحلة ملمحٌ أصيل في ثقافتنا، بل إنها تصلح علامة عليها ورمزًا لها، ولم يصل البرتغاليون إلى الشرق، عبر رأس الرجاء الصالح، إلا بهداية عربية عملية وعلمية، فلابن ماجد دور في ذلك، وللإدريسي راسم الكرة الأرضية. ولمن قبلهما ومن بعدهما من الرحالة الكبار كابن جبير وابن بطوطة وابن فضلان.

وأذكر أني حضرت محاضرة لشيخ المستعربين المعاصرين، الدكتور فان إس الألماني، يتحدث فيها عن الحضارة العربية الإسلامية، في كلية دار العلوم بالقاهرة، ويتساءل ما الرمز الذي يمثل هذه الحضارة، ويرمز إلى جوهرها؟

- أهو المحارب المقاتل، كما يرى بعض الكتاب، من الغربيين والشرقيين أيضًا؟ ويعقب بعدم قبول هذا الرأي؛ إذ القتال «كره» بنص القرآن، فهو في الشعور الإسلامي شيء بغيض، وحالة استثنائية تُستباح للضرورة.

- ثم تساءل أهو القاضي الذي يحكم بما أنزل اللَّه، ويعلي صوت الشريعة والقانون؟

- وعقب بأن القضاء منصب أو سلطة لكل دولة، وللرومان في ذلك مكانة.

- ثم تساءل : أهو التاجر الذي ينقل البضائع والمنتجات، بين أجزاء العالم المختلفة في حرية وأمانة وأمان، وينقل معها أشياء حضارته، وثقافة

أمته بطبيعة الحال؟ وعقب سيادته بأن في هذا بعض الحق؛ ولكنْ لليهود والفينيقيين دور في هذا لا يُنكر أيضا.

- ثم تساءل أيضًا : أهو الشيخ الصوفي، يجتمع حوله المريدون، ويرحلون معه؟

وعقب : هذه من أقرب الإجابات، ولكن الظاهرة الصوفية توجد في البوذية وغيرها أيضا.

- ثم تساءل : أهو العالم الذي يجلس للناس، عموم الناس، لا في معبد للكهنة فقط، ولا في دير للرهبان فقط، وإنما لإشاعة المعرفة بين الجميع؟ وعقب: ربما كان هذا أقرب الاحتمالات أيضا، ولكنه ليس بالرمز الحاسم الجامع المانع - كما يقال.

وقدَّم إجابته هو إن كنت أحسنت فهمها : وهو أنه الرحالة المسلم، الذي يقوم بهذه الوظائف السابقة كلها، حسب الظروف والأحوال، فابن بطوطة مثلًا، لا يرحل للمتعة وحدها، بل هو أحيانًا قاضي قضاة، وربما يشارك في الديبلوماسية، كما في مصر، وهو معلم يفتح المدارس ويشيع المعرفة أيضا، هناك في جزر الباسيفيك بجنوب شرق آسيا. وهو في الوقت نفسه شيخ صوفي ينقل الرسائل الروحية، كما فعل ابن بطوطة بين مصر والهند وغيرها، وربما حملته الأحوال أن يشتغل بالتجارة لتوفير مصدر رزق له في جولاته المتعاقبة.. وهكذا نرى أن الرحالة هو الرمز الجامع الذي يقوم بهذه الوظائف الحضارية جميعًا، حسب حاجة بيئته.. كما جسد ذلك فعلًا ابن بطوطة رحمه اللَّه. وذلك هو رمز الحضارة الإسلامية.

كان درسًا محكمًا مقنعًا، لا يوازيه - في تجربتي المتواضعة - إلا ما كنت

أسمعه، من مواطنته الأستاذة أنا ماري شميل، في لندن وإسلام آباد فقد كانت عجبًا في إلقاء محاضراتها: تحدد موضوعها؛ وتغمض عينيها، وتنطلق إلى آفاق الموضوع، حاملة معها عقول السامعين ونفوسهم. وفي الدقيقة الستين تمامًا، تفتح عينيها وتختم المحاضرة.

بالنسبة لي: فإني، مع إيماني بكل ما قاله الدكتور فان إس، واعتقادي بأن المعرفة ليست كلها في الكتب، كالذوق تمامًا الذي قيل إنه: «شيء ليس في الكتب»؛ أي إنه يحتاج إلى تنشئة حضارية. لا أدَّعي حظًّا وفيرًا من الرحلة، في عالمنا المعاصر، ولكن لي بعض الرحلات قد لا تخلو من لمحات إنسانية.

١- وأول رحلة، خارج مصر، قمت بها كانت إلى مكة المكرمة عام ١٩٧١، لأداء فريضة الحج مستعينًا بمائتي جنيه مصري، مكافأة أول كتاب صدر لي، من المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، فكفتني سفرًا وإقامةً، وكنتُ ضمن فوجٍ من الفلاحين والمعلمين المصريين، ننام في غرف مشتركة، ونقضي حاجاتنا بصورة جماعية. ولم يكن توفير المياه سهلًا؛ إذ كانت تأتي في «فناطيس» محمولة على السيارات، وصاحب المنزل يقول في إيمان: حتى تعلموا أيها المصريون نعمة اللَّه عليكم بنهر النيل. كنتُ مُدرَّبًا على الحياة الجماعية، ومحملًا برسالة وهدية الشيخ محمد محمود شقيق شيخي الإمام الأكبر عبد الحليم محمود، وكان يعمل أستاذًا للتفسير بكلية القرآن الكريم بالمدينة المنورة بسكنى محمد - صلى اللَّه عليه وسلم، وقد ساعدني - رحمه اللَّه - في الحصول على نسخة لكتاب «نصير الدين الطوسي في المنطق»: (أساس الاقتباس)،

مترجمة إلى اللغة العربية، من مكتبة شيخ الإسلام حكمت، التي كانت تشغل بيت الحسن بن علي -رضي اللّٰه عنهما- وضُمَّت إلى الحرم النبوي فيما بعد.

وأذكر أنني في مكة: تقلبت في أسواقها؛ لأشتري ما كُلِّفت به من أشياء طلبها أقاربي، فلما تعبتُ من البحث، قلتُ كأني أخاطب نفسي: لئن جئتُ إلى مكَّة مرة أخرى فسأفرغ للعبادة، ولا أنشغل بهذه المشتريات. ويبدو أن صوتي كان مسموعًا دون أن أدري، فإذا بصوت كأنه مصري يقول: لا، هذه نقرة وهذه نقرة: ألم يقل اللّٰه - تعالى -: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْۚ﴾ [البقرة: ١٩٨] فتنبهت فإذا وجه سمح لشاب فتىّ من أهل مكة، يقول لي: أنا خريج تجارة جامعة القاهرة، وأقول لك المثل المصري «دي نقرة ودي نقرة»، أليس كذلك؟ فقلت: بلى، صدق اللّٰه العظيم وصدقت، ولكني تعبت، وعرضت عليه ورقة المطلوبات، فساعدني في الحصول عليها جميعًا، بعضه عنده والبعض الآخر من عند جيرانه من التجار.

أما في المدينة، فلدى اقترابي، في المسجد النبوي، من حجرته - صلى اللّٰه عليه وسلم - انعقد لساني من الهيبة، وأنسيت ما أحفظ من أدعية، وإذا شاب يمني يسبقني يتلو: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤] وأنا أردد خلفه الآية الكريمة كأني أسمعها لأول مرة.. كما حكيتُ في قصيدتي: (أحب محمدًا والعاشقيه).

٢- ثم كانت رحلتي الثانية - بعد عامين - إلى مدينة لندن؛

لاستكمال بحثي لنيل درجة الدكتوراه وانتهى بي الأمر إلى الإقامة بها، أربع سنين وأربعة أشهر، حتى حصلت منها على درجة «الدكتوراه» من كلية الدراسات الشرقية والأفريقية بجامعة لندن، وهي تجربة غنية لشبابنا المصري حكيتُ أطرافًا منها في عدة حكايات سابقة. وكانت فعلًا كما قال لي أستاذي الدكتور قاسم: ستجد أثرها في شخصيتك لا في عقلك فحسب - رحمه اللَّه-.

٣- وعشت في إسلام آباد ومن باكستان زرت الصين مرتين، إحداهما بصحبة القاضي خليل الرحمن خان، الذي كان وثيق الصلة بالدوائر السياسية الباكستانية، وكان يحرص دائمًا على دعم العلاقات الراسخة بين الدولتين، فنحن لا نعرف هنا في العالم العربي ظروف الدولة الباكستانية الوليدة، وأنها لا تكاد تجد صداقة مستمرة من دول الجوار إلا الصين؛ فالهند المتنامية اقتصاديًّا وسياسيًّا، والمشتهرة بأنها أكبر الديموقراطيات حجمًا، تقتصر ديموقراطيتها على الميدان السياسي البرلماني، أما الاجتماع والاقتصاد فيسجل واقع المذابح الدينية والعنصرية حقيقة تلك الديمواقراطية الناقصة أو المشوهة. وفي السنين الأخيرة يتجه النشاط السياسي أيضًا إلى الوقوع في فخ «القومية الهندستانية»، وهو ما قد يهدر الجانب الإيجابي من التجربة الرشيدة منذ الاستقلال. ويخشى على العلاقات القلقة الهشة بين الهند وباكستان من أخطار كبيرة، لا تقتصر على مسألة كشمير، التي تشبه مشكلة فلسطين والاحتلال الإسرائيلي إلى حد بعيد. بل قد تتجاوز هذه الأخطار كشمير - لا قدر اللَّه - إلى ميادين أخرى للنزاع. أما إيران في الشمال الغربي،

فهي منذ الثورة الخمينية ليست على ولاء مع الباكستان، وتعمل على تأجيج الأزمات الطائفية داخل الباكستان - أو هكذا يقول السياسيون الباكستانيون - حيث يعيش نحو ١٠٪ من إخواننا الشيعة، يملكون مفاتيح مؤثرة في عالم المال والإعلام،وقد قاموا باحتلال وزارة العدل عندما أصدر ضياء الحق «قانون الزكاة» على أساس أنهم يدفعونها - حسب مذهبهم - للمراجع الدينية الشيعية، واضطرت الدولة إلى إصدار تعديلات للقانون تستثني الشيعة من الالتزام..

الذي أريد إيضاحه أن الصديق الوحيد لدولة باكستان - برغم علاقاتها الوثيقة المتنوعة بالولايات المتحدة الأمريكية - هو الصين شرقًا، أما أفغانستان، ذات التداخل الجغرافي واللغوي والإثني، بمنطقة الحدود الباكستانية، فهي مجال صراع بين السياسات الهندية والباكستانية والغربية - بعد أن اضطر الجيش الروسي لمغادرتها.. وما مرت به من أطوار انتهت باحتلال أمريكا و«حلف الناتو» لهذا البلد، الذي لم يذق طعم الاستقرار منذ ثلث قرن شاهد على ما أقول. أطلتُ في التعرُّض لهذا الجانب من العلاقات الباكستانية المعلنة وغير المعلنة، والمعروفة لنا في العالم العربي والمجهول لتوضيح طبيعة من علاقة الصين بجارتها باكستان..

أما اهتمامي شخصيًا فكان الاطلاع على أحوال المناطق المسلمة، خصوصًا في الغرب الصينى المجاور لباكستان، وبالأخص قومية «الهوى»، ومؤسساتهم العلمية والجامعية، ومحاولة الربط بينها وبين الجامعة الإسلامية.. وقد وجدتُ عونًا كبيرًا على ذلك من الخريجين

الذين تعلموا في الجامعة الإسلامية بإسلام آباد، حيث إن دولة الصين كانت لا ترسل أبناءها للخارج، للدراسات الإسلامية، إلا إلى باكستان؛ بحكم العلاقات الخاصة معها. وقد كنا نتلقى كل عام مائتين من أبناء الصين المسلمين، لا يعرف بعضهم حرفًا من العربية.. فيتعلمونها حتى يصل بعضهم إلى قرض الشعر العربي، وقد انبهر الأستاذ الدكتور مفيد شهاب، وزير التعليم العالي والبحث العلمي المصري، عندما زار الجامعة بإسلام آباد، والتقى بهذه النماذج الوافدة من مختلف أنحاء آسيا وخاصة الصين.. وكيف نجحت الجامعة في تعليمهم العربية والإنجليزية اللتين يتم بهما التدريس في الجامعة - دون الأوردية التي لو سمح بها لطغت على كل شيء وخرجت الجامعة من صفة العالمية - فضلًا عن اقتناع مؤسسي الجامعة وواضعي خططها، على النمط الأزهري، بحقيقة أن من لا يعرف العربية لا يحسن الدراسات الإسلامية.

إن الصين عالَمٌ حضاري على حياله لا يظهر لنا منه إلا الجانب الاقتصادي والسياسي، وتجربة باكستان أثبتت لي أن آفاق التقارب أو التفاهم بين الصين وبين البلاد الإسلامية، أعمق وأرحب.. فأين مصر وعالمنا العربي من الاتجاه شرقًا؟! وإني لسعيد؛ شخصيًّا، باتجاه الديبلوماسية المصرية أخيرًا إلى توثيق العلاقات مع الصين.

٤- كما دعيتُ وأنا في باكستان أيضًا لزيارة إيران، لحضور مؤتمر عن «فلسفة صدر الشيرازي» صاحب «الأسفار الأربعة»، تقيمه جمعية متخصصة في رعاية وتطوير فلسفة هذا المفكر، يرأسها شقيق للخامني

مرشد الجمهورية، ولها أنشطة في الغرب، فهي تصدر مجلة «بالإنجليزية» في لندن، عن الحكمة المتعالية لملا صدرا، وهو اللقب الذي يعرف به الشيرازي في الأوساط الشيعية.

لم يكن في المؤتمر أحد من مصر سوى الدكتور حسن حنفي الأستاذ والمفكر المصري المعروف، ولم يسمح نظام مبارك عندئذ - أواخر التسعينيات من القرن الماضى - لسائر المدعوين المصريين بالسفر، كالدكتور عبد الحميد مدكور، زميلي بدار العلوم وبالمجمع، الذي دُعِيَ وأعَدَّ بحثًا في الموضوع، وآخرين لم يكن النظام راضيًا عنهم كل الرِّضا.. وأما أنا فدعيت بحكم مسئوليتي الجامعية بإسلام آباد. وكنا نظن أن سيقام المؤتمر في طهران، أو في قم مقر الحوزة العلمية للمذهب الاثنا عشري، ولكن القوم أقاموه بإحدى جزر الخليج، يسمونها «جزيرة كِشّ» وهو تحريف لاسمها الأصلي العربي «جزيرة قَيْس»، الذي يدل على أصلها العربي.

حدث لقاءان قبل انعقاد المؤتمر كان أولهما لقاء تمهيديًا بين المدعوين والمنظمين، تحدث فيه الكثيرون ومنهم الدكتور حسن حنفي، الذي أبدى عنايته بالفكر الإثنا عشري، وحماسه للثورة الخمينية، وتكلمت ليلتها فحرصت على بيان فصل من العلاقات الثقافية، الذي كان للقاهرة فيه النصيب الأوفى، من خلال «جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية» بالقاهرة، التى كان في مقدمة دعاتها الشيخ شلتوت والشيخ المدني، ولفيف من المفكرين والدعاة منهم الأستاذ حسن البنا، واللواء محمد صالح حرب وآخرون، وكان من أبرز أنشطتها التي قام عليها من علماء «قم» الشيخ تقي القمي أمين عام الجماعة: إصدار مجلة

«التقريب» التي نشر فيها - حسب علمي - المفكر المصري الكبير الأستاذ محمود الخضيري أول بحث بالعربية في مصر، عن ملا صدرا وفلسفته المتعالية وفكرته المتفردة عن «الحركة الجوهرية»، وأعتقد أن محاولتي هذه - على إيجازها كمداخلة سريعة - وضعَتِ الأمورَ في نصابها، وأعطت لكل ذي حقٍّ حقَّه، وبخاصة الأستاذ الخضيري - رحمه اللَّه - أحد أعلام الجيل الأول من أساتذة الفلسفة المصريين تلاميذ الشيخ مصطفى عبد الرازق - شيخ الأزهر فيما بعد. أما اللقاء الثاني فكان في أحد مساجد الجزيرة، التي ما يزال أكثر سكانها من أهل السنة والجماعة؛ لأداء صلاة الجمعة، ولكن القوم اختاروا مسجدًا شيعيًّا مع أن أكثر المدعوين سنية، وكان عجيبًا أن يقوم بجانب الإمام أثناء الخطبة شخص يرفع صوته بالدعاء للأئمة عند ورود ذكرهم في الخطبة، والأعجب أنه يحيي كبار الداخلين إلى المسجد ويرحب بهم، أثناء إلقاء خطبة الجمعة، كأننا في حفل اجتماعي، ولسنا في شعائر صلاة هي أهم الصلوات في الأسبوع.

وفي المؤتمر تكلم الدكتور حسن حنفى كعادته عن الفكر الإسلامي في «بانوراما عامة» يحسن صياغتها، وألقيتُ بحثي «عن أصول فكرة الحركة الجوهرية» التي أوحت لصدر الدين بها، وأهمها «فكرة فناء النار»، وتحول أهلها إلى كائنات نارية، للشيخ محيى الدين بن عربي؛ في ملحمته الفكرية الكبرى «الفتوحات المكية» - كما يعترف بذلك صدر الدين نفسه، وعن أصداء الفكرة بعده وخاصة لدى الفيلسوف محمد إقبال.

لقد كان المؤتمر على كل حال أحد المناسبات القليلة، التي يلتقي فيها مفكرون من السنة والشيعة، برغم خصوصية الموضوع، في ظروف

نعيشها- للأسف - تشبه القطيعة الثقافية بين الجانبين، وخصوصًا من جانب أهل السنة، بينما يعمل القوم على تصدير مذهبهم وفكرهم، مع الترويج لنظامهم الجديد، الذي يغلب عليه الطابع الطائفي، إلى المجتمعات الإسلامية السُّنِّيَّة، متبعين استراتيجية الغرب، في التوجه إلى أطراف العالم الإسلامي، وخاصة في نيجيريا وإندونيسيا، التي صار فيها مجتمعات اثنا عشرية ولم يكن فيها من قبل شيعي واحد.

إن موقف الفكر الإسلامي السُّنِّي في مصر، يفرِّق بين العلاقات السياسية بين مصر والعالم العربي، وبين إيران، فيشجع على تعاون الأُخوّة والجوار، على هذا المستوى، وبين محاولة القوم غزو المجتمعات السنية بالمنح الدراسية والأساليب المختلفة لشق وحدة النسيج الروحي، في المجتمعات السنية، وهذا ما يحاربه ويقاومه مفكرو أهل السنة والجماعة، وفي مقدمتهم الأزهر الشريف كمرجعية سنية عالمية مسئولة. وهذا هو الموقف الذي عبَّرت عنه أخيرًا - باسم الأزهر - في الزيارة التي قام بها الرئيس الإيراني أحمدي نجاد لمصر في الشهور الأخيرة من ولايته.

وكنتُ قد عرضتُ من قبل وجهةَ نظر شخصية، في مؤتمر عن «الشيخ محمد عبده» بمكتبة الإسكندرية، تتعلق بصراع الأفكار داخل الثقافة الواحدة، رغم صراعها الكلي مع الثقافات الأخرى. وقلت: إن الشيخ مصطفى عبد الرازق التلميذ الأوفى للشيخ محمد عبده، تنبأ في آخر كتابه «التمهيد» الذي أصدره في الثلاثينيات، أن الصراع المذهبي بين المسلمين، سيتركز - خلال القرن العشرين - بين الفكر الوهابي القائم على تراث ابن تيمية ومدرسته، وبين الفكر الأشعري الماتريدي

السائد في الأزهر، وهي نبوءة تحقَّقت فعلًا، وشغلت الناس خلال القرن الماضى. وقلت: إني أخشى - راجيا ألا تتحقق توقعاتي - غلبة الصراع السني الشيعي - بما يستتبعه من آثار سلبية - على القرن الحادي والعشرين.. وما تزال ظروف إيران والعالم العربي ترشح لهذا التوقع المتشائم. ولله الأمر من قبل ومن بعد.. وهو حسبنا ونعم الوكيل.

٥- وزرت عدة مرات «استانبول»، الآستانة،/ الباب العالي، / «البيت الأبيض» في عصره الذي استمر عدَّةَ قرون، يحكم العالم يومًا ما، والذي كان يمسك بالعروة الرابطة لآسيا بأوربا، ويحكم حركة العالم القديم، الذي قال فيه نابليون: من يملك هذه البقعة يملك العالم.. والبلد الذي شارك بأكبر قدر من صناعة التاريخ الحديث للعالم الإسلامي فيما قبل الحداثة وما بعدها.

ومرة دعيت إلى زيارة «سيواس في الأناضول» بلد الشيخ الكمال بن الهمام السيواسي السكندري، جاء منها والده واستقر بالإسكندرية، وكان هو من مواليدها لكنه ينسب نفسه إليهما، على عادة العلماء المسلمين في تعدد الانتماء، أصلًا، ومنشئًا، ومستقرًّا ومدفنًا، وعقيدة ومذهبًا، وطريقةً ومسلكًا، وغير ذلك مما يعبر عن تعدد جوانب الشخصية وتركيبها، وأبعادها الاجتماعية والفكرية. وكانت كلمتي عنه مفكرًا ماتريديًّا وأصوليًّا حنفيًّا، بين علماء مصر وشيوخها الأشاعرة. وفي أعقاب المؤتمر تحدثت عن علاقات الشعبين في جلسة الختام التي حضرها رئيس الجامعة الإقليمية وحاكم المدينة ومحافظها.. ومع أن حديثي كان بالعربية إلا أنه لقي تجاوبًا كبيرًا، وأخذونا بعد المؤتمر إلى

عاصمة السلاجقة في قلب الأناضول، فصلَّينا في مسجدها التاريخي، بين القلعة وبين مستشفى مجاورٍ له للأمراض النفسية، راعى فيه منشؤه - وهذا أصل لما يُسمَّى الآن «العمارة الطبية» - أن يتخلله خلجان يترقرق فيها الماء، وأن تكون في شرفاته طيور تشقشق بأصواتها، فتدغدغ أحاسيس المرضي سمعًا وبصرًا.. ذكرني ذلك بمسجد قلاوون ومستشفاه في القاهرة، التي كانت تصرف الدواء للمرضى مجانًا، وتخصص فرقًا موسيقية لإبداع ألحان تريح نفوس المرضى المقيمين، وتهدئ أعصابهم.. وفي المسجد صَلَّينا الظهر خلف إمام شاب بلحية خفيفة، ألقى فينا كلمة عقب الصلاة بعربية فصيحة جميلة، فسألته: أين تعلَّمتَ العربيةَ؟ فقال: في الجامعة الإسلامية بإسلام آباد، فقلت له: أو ما سمعت هناك عن حسن الشافعي؟ قال: في الحقيقة سمعت من زملائي القدماء حديثًا كثيرًا عنه، فقلتُ له: أنا حسن الشافعي، ففرح الرجل بنا.. ودعا مفتي المدينة ومحافظها للغداء مع الوفد الزائر، ودعوتُهم لمصر.. ووعدتهم أن أصحبهم في التعرف على معالمها.. ولكن لم يتهيأ لهم ذلك حتى اليوم.

وفي هذه المرة - كعادتي - مررت باستانبول ذاهبًا وآيبًا، بعد أن ودعت الدكتور غالب ياوزر الأستاذ بكلية الشريعة بـ وهو من تلاميذي في إسلام آباد أيضًا ويعمل أستاذًا في جامعة سيواس. والتقيت في استانبول بزميله الأستاذ عمر الفاروق، الذي يرأس إحدى مؤسسات الإغاثة ذات النشاط الواسع في المجالات الإنسانية، وتعرفت معه، بفضله على بعض معالم المدينة، وخاصة مكتبتها الشهيرة «السليمانية» وفيها لقيت مدير المكتبة الذي رحَّب وبزوجي كثيرًا، وجمعني بالعالِم المشغول

بترجمة كتابي «المدخل إلى دارسة علم الكلام» إلى التركية، فكتبتُ له إجازة بذلك، وبعد فترة جاءتني نسخة من الترجمة - بحمد اللَّه.

وفي زيارة أخرى لاستانبول كنا وفدًا مصريًّا في أحد المؤتمرات، أنا والدكتور حسن حنفي وآخرين، ورتَّبوا لنا زيارة لكلية الشريعة، ولاحظت أن نصف الحضور فتيات محجبات كلهن، فقالوا لي: هذه أول مرة، منذ الانقلاب الكمالي يسمح لفتاة أن تتحجب داخل الجامعة، وكان لقاءً تاريخيًّا غير مقصود. ولقيت في هذه المرة بمسجد السلطان محمد الفاتح، شيخي الشيخ محمد أمين سراج خريج الأزهر وأحد أئمة المسجد ومدرسيه، وتلميذ الشيخ محمد زاهد الكوثري، وعضو البرلمان التركي سابقًا، وأجازني فضيلته بكل مروياته، وحمَّلني السلام إلى أبناء شيوخه حين كان طالبًا بكلية الشريعة بالقاهرة طوال الخمسينيات، وهي الفترة التي اضطربت فيها حياتي الدراسية في القاهرة، وقضيت أكثرها في السجن، وذكر لي شيخيه في مصر الشيخ محمد عبد الوهاب البحيري وزميله الشيخ سيد الحكيم، وفرح عندما علم أني لقيتهما وأخذت عنهما، وأعطاني عنوان الأستاذ المحامي نجل الشيخ البحيري، وقد سعيت إلى مكتبه في منطقة التوفيقة بالقاهرة فلم ألقه، وأبلغته السلام بالهاتف، وسألته عن ابن عمته الأستاذ فكري الذي كان يسكن مع أخيه الأكبر الشيخ محمد خريج كلية اللغة العربية، وسكنا معا عام ١٩٥٠ بشارع الحافظية بشبرا، فأنبأني أن الشيخ محمد انتقل إلى جوار ربه، وأن الأستاذ فكري أحيل إلى المعاش، وأعطاني تليفونه، وأعترف أني قصرت في الاتصال به - رعاه اللَّه - وكان الشيخ البحيري يزورهما كثيرًا ويتابع أحوالهما لوفاة والديهما - جزاه اللَّه خيرًا.

وفي إحدى هذه الزيارات ورد ذكر الأستاذ العقاد فأبدى تقديره له، ثم قال لكن الرجل - على رصانته - حمله العداء الشخصي أو الحزبي على أن يرمي الأستاذ حسن البنا بأنه من أصل يهودي، واستدل على ذلك بترهات متهافتة، وأشهد أن وجهه وجه هاشمي. أو هكذا قال.. رحمه اللَّه.

والشيخ سراج قطعة حية من تاريخ تركيا المعاصر، منذ قيام الأتاتوركية، التي يفقدها في عدائها لعلماء الإسلام خاصة، وما مرت به من أطوار، حُمل في بعضها على أن يشارك في السياسة ويدخل البرلمان، لمناصرة التوجهات الجديدة للشعب التركي.. وهو العالم العاكف على شانه، لكنه عارف بزمانه.. وله دوره الديني وتأثيره الواسع على المناخ الفكري والسياسي في تركيا، وما يزال الرجل ينشر العلم ويناصر الحق، في ركنه من مسجد السلطان محمد الفاتح باستانبول، وهو الذي على نمطه مصغرًا بنى «مسجد الفتح» بعابدين الذي عملت فيه إمامًا وخطيبًا بضع سنين، ومن إحدى زياراتي لإستانبول أخذت فكرة الوقف على البحوث والدراسات، فهي تشيع لديهم، وتزدهر بها مؤسسات كثيرة.

وعلى ذكر مسجد الفتح ومدينة استانبول، فقد قرأتُ وأنا أكتب هذه السطور أن صديقي الدكتور أكمل الدين إحسان أوغلو، وهو الذي عرفته في مطلع الستينيات بالقاهرة، يصلي معي، في هذا المسجد، شابًّا متفتِّحًا بالغ الحيوية، قد ترشح لرياسة الجمهورية التركية منافسًا لأردوغان، مرشحًا للأحزاب القومية والليبرالية، ولكني على ثقة من أنه لا يملك إلا أن يكون وفيًّا لتاريخ الشعب التركي الشقيق، بعد تجربته

المريرة مع «علمانية» تكاد تكون معادية للدين الإسلامي بوجه خاص، حتى لتعاقب على تحفيظ القرآن الكريم، كما تحكي مذكرات الذين عاشوا تلك المرحلة. نعم لقد قال -في تعبير ديبلوماسي -: «إن هذه الفترة في مطلع حياة الجمهورية - يقصد الفترة الكمالية - تحوي بعض النجاحات وبعض الإخفاق..» ولكن الواقع الذي ذاقته أسرة الشيخ إحسان وغيره، يتجاوز ذلك التعبير الديبلوماسي، إلى آماد بعيدة مؤلمة - لا أعادها الله، وأعان صديقي ورجال السياسية التركية، على اختلاف توجهاتهم، إلى قيادة حكيمة لسفينة الوطن التركي الطامح إلى التقدم والحرية، والعودة إلى هويته الإسلامية.

٦- أما في لندن فكانت الفرصة متاحة للتعرف على أوروبا، القارة العجوز، التي كانت وما زالت تتحكم في مصير منطقتنا العربية - التي أسمتها نسبة إليها؛ باعتبارها هي مركز العالم: «منطقة الشرق الأوسط»، وغرست في قلبها دولة «إسرائيل» لاستنزاف طاقتها، والحيلولة دون اتحادها، وهي الآن باسم الغرب، تعمل تحت قيادة أمريكا؛ لإعادة تقسيم «الشرق الأوسط» في «سايكس بيكو» جديدة، لضمان عدم قيام أي تهديد مستقبلي للكيان الصهيوني.

غير أني كنت فقيرًا أعول نفسي، لا أملك ترف الرحلة داخل أوربا، وعندما فرغت من دراستي، نظم المكتب الثقافي المصري بلندن رحلة جماعية إلى باريس، شاركت فيها أنا وزوجي، مع الدكتور عبد الواحد علام - رحمه الله - وزوجته، وسعدنا بلقاء زملائنا الدارسين في

باريس، الدكتور عبد الحميد مدكور وكان يعمل تحت إشراف البروفسور آرنالديز في السوربون، والدكتور حامد طاهر وكان يعد رسالته للدكتوراه التي قدمها إلى جامعة ليون، والدكتور أحمد درويش وكان يدرس الأدب في السوربون أيضًا.. وزملاء أزهريين منهم الدكتور محمد الألفي.. وتجوَّلنا في المدينة العريقة، وعندما زرنا كتيسة «نوتردام» تذكرت ما كنت أقرأ في قريتي - مع صديقي حمدون الجندي - عن أحدب نوتردام، وعندما زرنا الكاتدرائية الكبرى، صحبني «أب» راهب أقام في دير الآباء الدومينكان في القاهرة زمنًا، ويعرف العربية، وأخذ يحدثني عن هذه الكنيسة التي تقع فوق ربوة عالية، وعن معالم المدينة الأخرى.. ويتذاكر معي أيامه في القاهرة وجَوّها الآسِر، كما كان يقول.

زرنا «برج إيفل» وصعدناه، وتذكرتُ كوبري أبو العلا القديم الذي صمَّمه المهندس نفسه الذي صمم البرج، وكان ما يزال قائمًا قبل أن يختفي في أحشاء البيروقراطية المصرية، التي أعلنت أنه سيبقى مُتْحَفًا على شاطئ النيل الشرقي، ومن يعلم أين هو الآن، فأرجو أن يُعلِمَ أمثالي وسائرَ محبي «الكوبري» من المصريين. ومما لفت نظري بوجه خاص في هذه الزيارة، الهمة الفرنسية في رعاية الطلاب فرنسيين أو وافدين؛ من حيث السكن المدعوم، والمطاعم المخصصة لهم بأسعار خاصة. وهي إجراءات وتسهيلات لها أهداف ثقافية وسياسية.. ومع ذلك فقد قرأتُ بالأمس لكاتب يقيم في واشنطون بجريدة الشروق / ٧ / ٢٠١٤ أن عدد الطلاب العرب في أمريكا يبلغ مائة ألف طالب، وهو رقم هائل يدل على النفوذ الأمريكي في البلاد العربية، ويفوق عدد الوافدين من العالم الإسلامي كله إلى جامعة الأزهر..

وقد زرتُ فرنسا أخيرًا بعد ثورة يناير، واستضافتني «إذاعة فرنسا ٢٤»، فقلت عندما سألني المذيع - شاميّ اللهجة - عما كان بين ساركوزي وزير داخلية فرنسا، وبين الشيخ طنطاوي شيخ الأزهر: إن رجلكم قد نال عندئذ من الشيخ أكثر مما ينبغي - أقصد مسألة تحريم الدولة الفرنسية والعلمانية للحجاب، وهي لا تحرم رسميًّا العمامة الخاصة بإخواننا السيخ مثلا. وزرت وحاضرت في عدة مناطق لتجمعات الجالية المسلمة، في باريس وما حولها، ولفت نظري النشاط العلمي في المسجد المركزي بباريس، وآمل أن يدعمه الأزهر علميًّا، وحبذا لو أنشأ فرعًا للجامعة هناك، وهو يلقى الترحيب من الجالية ومن رجال الدولة.

٧- زرت إسبانيا مع زميلي الأستاذ الدكتور محمد السيد الجليند، بدعوة من جمعية سانت إيجيديو في روما، لمؤتمر في مدينة «بارشلونة» كان يضم الكثيرين من العلماء العرب، أمثال الشيخ فيصل مولوي - حفظه اللَّه - والدكتور عبد الكبير المدغري شفاه اللَّه، والدكتور أحمد طالب الإبراهيمي نجل شيخنا محمد البشير الإبراهيمي، زاده اللَّه توفيقًا، وبارك وقته حتى يحضر مؤتمرات المجمع اللغوي بالقاهرة، وهو عضو فيه، وسعدت بلقاء الشيخ عبد اللَّه بِن بيَّه، والمفكريْن المصريين الراحلين: عز الدين إبراهيم وقد تكلمت عنه في حكاية أخرى - رحمه اللَّه، والأستاذ الدكتور محمد فتحي عثمان الذي آثر أن يقضي العقود الثلاثة من حياته في الولايات المتحدة، وكان من أبرز المفكرين المؤهلين لغويًّا وأكاديميًّا في الأوساط الإسلامية بالقاهرة، وقد كان هو - والدكتور عز الدين إبراهيم - يقومان قبل الخمسينيات، في المركز العام للإخوان المسلمين القاهرة، بالترجمة الفورية للزوار الناطقين بالفرنسية والإنجليزية..

وكان الصديق الدكتور السليماني - وهو الذي وجه إلينا الدعوة - بين منظمي الملتقى من إكليركيين ومدنيين، ورأيت هناك كبار الساسة الغربيين، منهم رئيس الوزراء الإيطالي اندري أوتي، والوزير أندريا وغيرهما، ولقيت شيخنا الدكتور محمود علي مكي - عضو مجمع اللغة العربية، ورائد الدراسات الأسبانية في القاهرة، والباني الحقيقي للمركز الإسلامي في مدريد، فطمأنني على صِحَّته، ومشاركاته العلمية أحيانًا في الدراسات الاستشراقية والمقارنة.

وقد حدث ونحن في مدينة «بارشلونة»: «أن شُكلت وزارة نظيف»، بالقاهرة، آخر وزارات عهد مبارك البائس، الذي خلَّف كل المشاكل التي تعاني منها مصر الآن.

تجولنا قليلًا في المدينة، لقصر وقت الزيارة، وشاهدنا بعض الآثار العربية والوطنية، وهي تمثل خصائص مدن البحر الأبيض المتوسط.. وتذكرتُ أيَّامًا مجيدة وأخرى أليمة، لأمتنا العربية وحضارتنا التي شعت هناك وولدت ابن حزم، وابن عربي وابن رشد، وأوربا تغط عندئذ في نوم عميق.. كما ذكرتُ ألحانًا حديثة لأحمد شوقي أمير الشعر العربي الحديث والمعاصر - رحمهم اللَّه جميعًا - ولم يتح لنا زيارة مدريد أو غرناطة.. أو التعرف على المؤسسة التي أقامها «جارودي» - رحمه اللَّه - في العاصمة الأسبانية.. وكان لقاء شيخنا محمود مكي آخر لقاء، وقد أثار موته، غريبًا، روحًا شعريًّا كامنًا في جوانب نفسي، فقلتُ أُخاطبه:

فيا جدث الحبيب بما جريط تمكنْ من ثراها في الصميم
تصلك عروق أجداد كرام لقرشيين جاءوا من قديم
فصاغوا الشعر فنًّا عبقريًّا من الوجدان في ركن حميم

إلى آخر هذه النداءات التي لعلها وصلته - رحمه اللَّه.

٨ - وزرتُ ألمانيا في مهرجان دولي ذي طابع ديني، يكاد يشبه «الموالد» لدينا، لو نُظِّمَت وهُذِّبت، وبرز الجانب الثقافي فيها، كما فكر مرة الدكتور محمد البهي عندما كان وزيرًا للأوقاف بمصر أوائل الستينيات، وكما دعا إلى ذلك طوال حياته، بكتاباته وبأشعاره وبمواقفه العملية الشيخ محمد زكي إبراهيم، شيخ العشيرة المحمدية بالقاهرة.

كنا في مدينة «ميونيخ» وكان مركز الاجتماعات قصرًا تاريخيًّا كان مقر الحكام والأباطرة الألمان، يومًا ما، وحضرنا حفلًا بمنزل الكاردينال الألماني الكاثوليكي، وزرتُ الكاتدرائية. وفي أحد أيام المؤتمر الذي نظمته مؤسسة سانت إيجيديو الكاثولوكية - حضرت الرئيسة الألمانية، مسز ميركل، وتوقفت قليلًا وهي تصافحني عندما سمعت كلمة «الأزهر»، وقد كان خطابها دبلوماسيًّا كالمتوقع، ولكن لفت نظري «البلوزة الخضراء» التي لا تكاد تغيرها، وهي من البساطة على «جوب» مماثل، لا تختلف عن ملابس عاملة ألمانية عادية، ولا تتجاوز القيمة المالية لهذا الرداء كله مائة جنية مصري، وهي توصف بالسيدة الحديدية بعد «تاتشر»، وبأنها أقوى امرأة في العالم. . وهي القادمة من الجانب الشرقي لألمانيا حيث التبعية السياسية وحكم الاستبداد، ولكنها تقود بلدها لمصالحه في اتزان وكفاءة ملحوظين. وقارنت بأحوال الساسة العرب من حيث المخبر والمظهر. . وقد كان لزيي الأزهري في هذا المهرجان دور أكيد: في أن قدم دوري على كل ممثلي الأديان والمذاهب غير الكاثوليكية، وماكنا أنا وزوجي نلقاه من ترحيبات الجماهير في روح مميزة حارة واضحة.

وقد تجولنا في المدينة، ولاحظنا غناها المعماري، ووجود جالية

إسلامية بها، يرتدي بعض فتياتها الحجاب دون مشاكل، كما هو الحال في فرنسا مثلًا.

٩ - وزرت مدينة روما مبعوثًا من الأزهر الشريف، تلبيةً لدعوةٍ من جمعية سانت إيجيديو أيضا، التي زار مؤسِّسُها المفكرُ السياسي الإيطالي «السنيور أندريا» مصر، بعد ثورة يناير، وكان لي فرصة الرد على خطابه في مركز المؤتمرات الأزهري، بما يكشف عن الطابع العالمي للوسط الأزهري، كما كان واضحًا من صفوف الحاضرين بقسماتهم الآسيوية والإفريقية المتميزة.. أما في روما فقد كنتُ ضمن وفدٍ يضم السيد محمد رفاعة الطهطاوي الذي ألقى خطابًا متميزًا في إنجليزية رفيعة، وتكلَّم الدكتور محمد السليماني بالعربية على نحوٍ مؤثِّرٍ، وألقيتُ خِطابًا بالإنجليزية وكانت أصداء حادثة «كنيسة القديسين» بالإسكندرية ما تزال تتردد، فقارنت بينها وبين حادثة «الخليل» التي قُتل فيها مصلون وهم بين يدي ربهم، وقلت: إن الفارق الوحيد أن المجرم في حادثة الخليل صار بطلًا قوميًّا، وأن المسئول الرسمي في حادث الإسكندرية، تحت يد العدالة ينتظر مصيره القضائي. وأخبرني إخواني: أن الحديث كان مؤثِّرًا..

وقد ظهر ذلك في العديد من الصحفيين الذين التقوا بي بعد هذا الحديث، وكان مما أثير «العلاقات بين المؤسسات الدينية» بعد محاضرة البابا السابق - وكان ما يزال في منصبه - واعتذاره الذي كان أشبه باتهام جديد للمسلمين كافة أنهم لم يفهموه.. وقلت: إن الأمر راجع إلى المسئولين في البلدين على صعيد رسمي.. أما على المستوى

الشعبي والثقافي فليست هناك قطيعة؛ بدليل وجودنا هنا، ونحن دائمًا حريصون على علاقات المودة والسلام. . ولا خصومة لنا - كشعوب مسلمة - إلا مع من يغتال حقوقنا اعتمادًا على قوته المادية. . وقلت: إن الكثلكة بريئة مما شاب مذاهب أخرى مسيحية من «الصهيونية الكتابية» التي تدشن مظالم سياسية بأساطير دينية. . وتكررت الزيارة، وتكلمت فيها أيضًا عن الديمقراطية في مصر منذ إسماعيل عام ١٨٦٨، وأن مصر بغير حاجة إلى ما ترصده بعض الجهات الغربية من أموال؛ لدعم الديمقراطية بمصر، وأن هذا التصرف يُعَدُّ عملًا مشبوهًا في نظر شباب الثورة المصرية وكان معنا السيد / أنور إبراهيم السياسي الماليزي فثنى على قولي، وأشار إلى حقوق الشعب الفلسطيني.

١٠ - وبهذه المناسبة فقد زرت ماليزيا مرتين من إسلام آباد؛ لما بين الجامعتين الإسلاميتين فيها وفي كوالا لامبور من علاقات وثيقة، وزرتها بدعوة لي - في صحبة زميلي الأستاذ الدكتور محمد سراج - من القاهرة بعد مغادرتي إسلام آباد، في مؤتمر علمي عن الوقف الإسلامي، تكلمت فيه عن «وقف النقود»، وكيف أن الخلاف في النظر الفقهي حوله قد انتهى عمليًّا، إلى إجازته في المذاهب السنية الأربعة. وأظن أن البحوث المتكررة في الموضوع جاءت لاحقة على هذا البحث. أما زياراتي الأُخرى فكانت مرتبطةً بنهوض العلاقات بين الجامعتين، وخاصة أن إسلام كانت متفوقة في تدريس العربية والعلوم الشرعية، على نمط قريب من الأزهر، أما هناك فالمناهج متأثرة بأفكار أُخرى تحديثية، على حين أنهم أكثر تفوقًا في دراسات الأديان والأديان المقارنة، وبعض جوانب

الاقتصاد، وفي الاعتماد الكامل على موارد الدولة الصاعدة هناك اقتصاديًا، على خلاف الوضع في إسلام آباد، التي حاولتُ علاج حالها حين عدت رئيسًا لها بالصناديين المخصصة لمنح الطلاب، واستقدام الأساتذة، وعبث المسئولون بعدي بها في غير مقصدها.

إن لرابطة الجامعات الإسلامية أنشطة مهمة جيدة، ولكن التواصل بين المسئولين فيها وفي الجامعات الماليزية الأخرى سيكون له أثره النافع، لكل الأطراف المهتمة بتطور التعليم في العالم الإسلامي.

١١ - وزرت من عواصم العالم العربي الرِباطَ أكثر من مرة، وكانت المرة الأولى عام ١٩٨٧ بدعوة من كلية الآداب، بجامعة محمد الخامس بالرباط، وفيها لقيت المفكرَ المصري الكبير، ذا المكانة العالمية عبد الرحمن بدوى، واقتربتُ منه كثيرًا، وكنتُ قد فقدتُ حقائبي بمطار «الدار البيضاء»، وفيها أمتعتي والبحث الذي سألقيه، فأعدتُ كتابته هناك عن «الإمام الغزالي - المنهج وبعض التطبيقات» ونشر في أعمال المؤتمر. وربما ينشر ضمن مجموعة البحوث الكاملة لكاتب هذه السطور عمَّا قريب - بإذن اللَّه. ونصحني دكتور بدوي - الذي عانى مثل تجربتي - أن أضع نسخًا عديدةً من البحث في جيبي وفي حقيبة يدي وفي حقيبة الأمتعة. وكان لقاءً علميًّا خَصبًا رغم الصعوبات. والغريب أني عند العودة في مطار الدار البيضاء، فتشت مخازن الحقائب المتخلفة، وبعد اليأس وطائرتي تؤذن بالرحيل، حركت باب المخزن لأجد حقيبتي خلفه، وألحق بالطائرة.

أما المرات التالية فقد كانت للدروس الحسينية الرمضانية، بحضور

جلالة الملك محمد السادس، وفي إحداها ألقيتُ بحثًا عن «القواعد الاعتقادية الشرعية» باعتبارها عِلمًا جديدًا من فروع علم الكلام، وفي أخرى تحدثت في اللقاء الختامي بمراكش ممثلًا للعلماء الوافدين. . وقد رزقني اللَّه حظًّا من التوفيق فيهما كما عبَّر العلماء المغاربة - لطفًا منهم - وفي مقدمتهم الأستاذ أحمد التوفيق - وزير الأوقاف والشئون الدينية. وكنت عندئذ - ومازلت - صاحب صَدَاقاتٍ كثيرةٍ: الدكتور عبد الهادي التازي الذي أكرمني بنفسه وبأبنائه وبحفدته الكرام، والدكتور/ محمد بن شريفة - الذي عشت في بيته جوًّا مصريًّا، وتناولتُ طعامًا مصريًّا، وإن كان أفقه الثقافي يكاد يكون أندلسيا، لكنها الدكتورة عصمت - زوجته المصرية / الأستاذة بكلية الآداب بالرباط - حفظ اللَّه الجميع. وقد غمرني يكرمه الأستاذ الدكتور عبد الكبير العلوي العبدلي الحسني المدغري - أتَمَّ اللهُ شفاءَه وأمتعنا به، في داره العامرة، وكنت في صحبة الدكتور التازي، وأطلعني على جوانب من عمله الدائب الصامت في خدمة إخواننا الفلسطينيين بالقدس الشريفة - جزاه اللَّه عن جهاده خيرًا. . ورَعَى إخواننا ومقدساتنا في أم المدائن، ومسرى النبي محمد - صلى اللَّه عليه وسلم - ومنعرجه إلى السماء - وقبلة الأُمَّة الأُولَى، وحَرَمِ اللَّه الثالث في الأرض. . وحررها من نير الصهاينة، وكيد الأعداء كافة.

وكنتُ عادةً أنزل في «فندق حسان» في الحي المعروف بهذا الاسم، وأُصَلِّي الجمعة في المسجد الذي يضُمُّ ضريح الملك محمد الخامس، الذي استقبلناه في القاهرة عائدًا من المنفى، في يوم حافل من أيام العروبة

والإسلام. وإلى جوار المسجد بقايا مسجد حسان التاريخي بآثار أعمدته، وصومعته الكاملة التي لم يؤثر فيها الزمان. . وكنت أعرف من الإمام الأكبر الشيخ أحمد الطيب شيخ الأزهر الشريف، أنه من نسل حسان، وأنه - مثل العديد من البيوتات الصوفية بمصر - ينتمى بأصوله إلى المغرب وما حولها في أفريقية، والعدوة الأخرى الأندلسية. . وتعرفت على علماء من أقطار أفريقيا وآسيا. . وكثير منهم يعتبر القاهرة وطنه الثاني. . والقاهرة لا تولي أحيانا مواطنيها هؤلاء ما يجب لهم من استحقاقات المواطنة. .

١٢ - وزرتُ تونس مرتين: مرة وابن عليٍّ ما يزال حاكمًا دكتاتورًا، بدعوة رسمية موجهة إلى مجمع اللغة العربية، للمشاركة في إحياء ذكرى الشيخ محمد الفاضل بن عاشور عضو مجمع القاهرة، ونجل الشيخ الفقيه المفسر محمد الطّاهر بن عاشور الأب. وقدَّمتُ بحثًا عن «البيوتات العلمية بين تونس والقاهرة» وآل ابن عاشور نموذجًا، كان له صدًى لا بأس به. وأسند إليَّ الإخوة رياسة إحدى الجلسات كانت عامرة بالمداخلات المفيدة. . وكان أبناء المحتفى به موجودين مُمتنِّين للمشاركة المصرية. . وقد زرت - مع زوجي - مسجد بن علي في العاصمة والسماء تهطل ليلتها مطرًا غزيرًا. وزرت الزيتونة، ولاحظت توقف حركة التدريس بها تقريبًا، إلا من دروس القراءات فقد كانت عامرة، كما زرت القرويين ومسجدها الكبير والحال فيه كما هي في الزيتونة. . وكنتُ أعلم تدهور النشاط العلمي الذي نهضت به تونس في إفريقيا كلها، ثم في الأقطار المغاربية، ولكن صدمتُ بما وصل إليه هذا التدهور حينذاك. وأعتقد أن الأحوال قد تحسَّنت نوعًا ما، بعد الثورة التونسية.

ثم وزرتُ تونس مرة آخرى زيارةً سريعةً، بعد ثورات الربيع العربي، وكنتُ قادمًا من باريس مع وفد أزهري للتواصل مع الجاليات الإسلامية هناك، ثم عبرنا إلى تونس، وكانت بيني وبين بعض المشاركين من تونسيين وليبيين مناقشات حارَّة، ولا أقول حادة، ولعلهم قد اقتنعوا بعد الأطوار التي مرَّت بها الثورات في مصر وتونس بعد ذلك.. أن الحماسة لا تجدي.. وأن التدرج والاعتدال في الممارسة أدعى إلى النجاح، وأقرب إلى طبيعة شعوبنا التي مرت بفترة الاستعمار، وما بعده من حكمٍ وطنيٍّ، لم يكن دومًا في صف جماهير هذه الشعوب. وقد لقيتُ كُلًّا من وزيرى العدل والأوقاف، وكذا الأستاذ راشد الغنوشي الذي أصر أن أشاركه المنصة مع منظمي المؤتمر في جلسة الافتتاح - حفظه اللَّه.

وقدر لي أن أزور تونس أخيرًا مرة ثالثة، بدعوة كريمة من الأستاذ الدكتور عبد اللَّه حمد محارب، رئيس المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة، وكان اليومان مكرسين تمامًا للعمل، وقد دعوت الإخوة إلى تنسيق العمل اللغوي في خدمة العربية، والانضواء تحت مظلة واحدة، لها من الخبرة والإمكانات والبنية التحتية ما يؤهلها لذلك، وهي «اتحاد المجامع العلمية واللغوية العربية»، الذي احتضنته مصر أكثر من أربعين عامًا، وصار له الآن مقره الخاص بضاحية ٦ أكتوبر، جنوبي القاهرة وأحرى به أن يكون بيت العمل العربي لخدمة لغة القرآن الكريم.

١٣ - هذا وقد تيسَّر لي زيارة عُمان - كما أشرتُ في حكاية أُخرى - عِدَّة مرات، وأسهمتُ في وضع المناهج الدراسية لكلية الشريعة، وأشرف

بالصداقة مع كثير من مثقفيها ومسئوليها، وخاصة فضيلة المفتى والشيخ السيابي وكثيرين، وهم يمتلكون الأصالة العربية حقًّا، ويحبون القاهرة بوجه خاص، ويعاملون ضيوفهم معاملة حضارية راقية. ويلاحظ الزائر لمسقط العاصمة طابعها العربي المتميز، وتطورها المستمر عامًا بعد عام على قلة ثروتها النفطية، ولكن السياسات التنموية جيدة وناجحة.

١٤- كما زرتُ عمّان، وراقتني المدينة بنظافتها وهدوئها، وحمدتُ للمسئولين حسن رعايتهم لها، وشاركتُ في مؤتمر علمي.. وجدَّدت الصلة مع بعض زملاء الدراسة بالقاهرة.. ولكني عند العودة فوجئتُ باحتجازي لنحو ساعة بالمطار، لم تؤلمني شخصيا، بقدر ما آلمني احتجاز السيدة الفاضلة زوجة الدكتور محمد الفنجري - رحمها اللَّه - مع السماح له بالانصراف، وكيف ذلك وزوجته محتجزة بالدائرة الجمركية لغير ما سبب.. هل انتهت هذه الأوضاع.. أرجو مزيدًا من الجهد لحفظ كرامة المواطنين المصريين، والحد من تحكم الأجهزة في حرياتهم الشخصية.. حتى وهُم عائدون إلى وطنهم الحبيب.



(٦١) مع المعلمين والأساتذة - مرة أخرى

١- حكيتُ جانبًا من صلتي بالشيخ «الدكتور» علي عبد المنعم عبد الحميد، وما زال في الجعبة حكايات، فقد زرته - رحمه اللَّه - بمنزله آخر «شارع الحافظية» بشبرا، أوائلَ الخمسينيات من القرن الماضى، بعد أن تزوج بنت أحد كبار علماء الأزهر، أظنه فضيلة الشيخ العناني شيخ السادة المالكية فيما أذكر، ويومها وجدتُ عنده شقيقًا له، تخرج لتوِّه في معهد أسيوط الديني، وجاء ليلتحق بكلية اللغة العربية بالقاهرة، وكان لافتًا للملاحظة يومئذٍ أنه يحمل اسم شقيقه الأكبر (علي عبد المنعم عبد الحميد) تمامًا، وقد تخرج في كلية اللغة العربية وصار أستاذًا بها. . وقدر لي لقاؤه بعد ذلك مرة واحدة بمحض الصدفة، قبيل ثورة الخامس والعشرين من يناير، وتعاهدنا على التلاقي. . ثم بلغني نبأ وفاته رحمه اللَّه - بعد قليل. . فكادت الصلة المباشرة تنقطع، ولكن اللَّه - تعالى - مَنَّ عليَّ بأن تعرَّفت على فضيلة الشيخ الدكتور عباس شومان، وكيل الأزهر الشريف، وفرحت أشد الفرح عندما علمت أنه من بلدة «شطورة» بمحافظة سوهاج، وهي بلد شيخي الدكتور علي عبد المنعم عبد الحميد، وتفضل عليَّ فضيلته بعناوين بعض أقارب الشيخ في القاهرة، وأصبحت لديَّ فرصة لتجديد صلتي المباشرة بالشيخ، أما الصلة الروحية فإني حريص على الدعاء لمشايخي جملة، وأحيانًا بالاسم، كل يوم أو كل صلاة حسب التيسير.

وفرحت مرة أخرى عندما وجدت في مكتبة محمد علي صبيح بميدان الأزهر، كتاب «المنطق العلويّ»، وهو ما كان يدرِّسه لنا الشيخ

من الموضوعات المنطقية عام ١٩٥٩م، ولم يكن قد طبع بعدُ، وخالجني الشعور نفسه عندما اقتنيت كتاب «الإرشاد» لإمام الحرمين، وهو النص الذي كنت اقرأ مخطوطته بدار الكتب المصرية عام خمسين، وأستاذي يكتب كما حكيتُ في سياق آخر.

٢- أما فضيلة الأستاذ الدكتور محمد فتحي عبد المنعم، وقد حكيت لقاءه الوحيد بنا في حفل أقمناه لمناسبة انتهاء التدريس واكتمال الدروس كلها عام ١٩٥٠، وما ألقاه علينا في براعة وحنكة ورصانة، من فكرة إتقان «الكتاب الواحد» في كل علم على الأقل. وقد تهيأ لي بعد ذلك الاتصال المباشر بزميلي الأستاذ الدكتور رجاء عبد المنعم جبر أستاذ النقد الأدبي بدار العلوم - رحمه اللّه - وكان من المواضيع المشتركة بيننا، أحوال شيخنا في باريس، إذ اقترب منه الدكتور جبر هناك خلال دراسته بالسوربون، والشيخ عندئذ كان في أوج تألقه العلمي والفكري، في الوسط الأكاديمي، بفرنسا والمجالات الإعلامية فيها المتصلة بالإسلام وشئون المسلمين. . . وروى لي كيف حرص شيخنا الدكتور عبد الحليم محمود، وهو شيخ للأزهر، على استرداد الشيخ من البيئة الباريسية التي ألفها وألفته، وعرفت قدره وكرمته. . ونجح الوسطاء في إنجاز رغبة الشيخ ليخدم الدكتور فتحي الأزهر، بما تهيأ له من نضج فكري وخبرة رفيعة. . وكان القدَرُ بالمرصاد، فلم يُمضِ الشيخ بالقاهرة أكثر من عام واحد حتى وافاه الأجل، ومضى إلى جوار ربه، ليفقد الأزهر أحد عباقرة أبنائه، قبل أن يحتل مكانته اللائقة به في وطنه - رحمه اللّه!

٣- ولعلي تحدثتُ مرارًا عن شيخي الذي أُدين له بالتكوين اللغوي

الذي أعيش به حتى الآن. . مع ما أضيف إليه، من الرؤية «الدرعمية» الراجعة إلى دراسة علم اللغة الحديث، والنقد المعاصر. . وما تيسر لي فيما بعد من المعرفة بالإنجليزية. وهو الشيخ أشهب القاضي، الذي نشأ في قرية «رملة الأنجب» بمركز منوف بالمنوفية، فقد هيأ اللّٰه لقاءه مرارًا، بعد خروجي من السجن عام ١٩٦٠، ولقيته خلال الستينيات والسبعينيات في مصر والسعودية أثناء الحج، ولكني فرحت كثيرا عندما عثرت على عمله المطبوع، في شرح ألفية ابن مالك، الذي كتبه في السعودية، أثناء إعارته إلى «جامعة الإمام محمد بن سعود» بالرياض، وهو تطوير لما سعدنا بتلقيه عنه خلال التتلمذ له بمعهد القاهرة - رحمه اللّٰه.

٤- ولا أنسى شيخي فضيلة الشيخ محمد السنوسي، أستاذي الأول في «علم التوحيد» بكلية أصول الدين، عام ١٩٥٣، فقد كان بحرًا في علم الكلام لا ساحل له.

كان - رحمه اللّٰه - يدخل غرفة التدريس، فيسند عصاه إلى الحائط في ركن منه، ثم يجلس ولا يرجع إلى متن أو حاشية بين يديه أبدًا، فكلها حاضرة أمام عقله، ثابتة بتفاصيل أدلتها ومناقشاتها ونقدها. . على دقة المسائل وعمق الأفكار التي تحتويها، وكثافة اللغة الاصطلاحية التي صبغت بها. . أمر لم أر مثله، اللهم إلا عند بعض من أعلام الشيوخ، المشتغلين بعلم الكلام في تلك الكلية حينذاك، كالشيخ محمد الشافعي الظواهري والشيخ محمد يوسف الشيخ - رحمهما اللّٰه. . . وقد علمتُ من زميلي الأستاذ الدكتور محمد بدر الدين - حفظه اللّٰه - شاعر الخمسينيات

والستينيات في محافل القاهرة، وصاحب المكانة المقدورة في الأوساط الصوفية بمصر - أن الشيخ السنوسي كان صديقًا وزميلًا لوالده - رحمه اللَّه. . ولعلني - عن هذا الطريق - أستطيع الحصول على حواشي فضيلة الشيخ السنوسي على «شرح النسفية» في علم الكلام، فنصدرها لفائدة طلاب العلم بإذن اللَّه. .

٥ - وممن لا أنساهم من شيوخي في هذه الكلية: فضيلة الشيخ أحمدين علي أحمدين، الذي درَّس لي علوم الحديث بها عام **١٩٥٣**، وكان رحمه اللَّه - شديد التمكن فيها برغم تخصصه الدقيق في التفسير وعلوم القرآن الكريم. . ومن تجديداته، التي لم أرها لغيره في فنون الحديث، أنه حول الشروط القيمية المعنوية لأنواع الحديث، من صحيح وحسن وضعيف، إلى تقديرات رقمية، بنسب مئوية تكشف عن منهج علماء السنة في فحص الأحاديث سندًا ومتنًا - وليس سندًا فحسب، كما يظن غير الدارسين - خلال ما بين القرنين الثاني والخامس الهجريين، حين ازدهرت حركة نقد النصوص الدينية لدينا، في التراث الإسلامي. وهي الحركة التي تأخرت في ثقافات أخرى قرونًا عدةً، كما حدث في التراث المسيحي، الذي ظل يتساءل، مثلًا، عن المرأة أهي شيطان أم إنسان حتى العصور الوسطى ومطالع العصر الحديث.

وقد لقيتُ فضيلة الشيخ بعد ذلك مرتين: مرة بعد انقضاء عقد كامل من السنين، فتذكرني ونصحني بالحصول على كتابه الدقيق النفيس - في علوم الحديث - بعنوان «ضوء القمر على نخبة الفكر» وهو خلاصة لما

ألقاه علينا من محاضرات أوائل الخمسينيات، بعد أن طبع طبعة أنيقة، في دار المعارف بالقاهرة، ودفعت فيه للبائع «بكشك الكلية» «سبعة قروش كاملة»، إي واللَّه قروش لا جنيهات أيها القارئ العزيز.

ولست بحاجة أن أزيد القُرَّاء حسرة بقولي: إن هذه الطبقات الرفيعة والنوعيات الجادة المثابرة، المحتسبة جهودها في خدمة العلم الشرعي وطلابه، قد انقرضت، أو كادت في أيامنا هذه.. وفيهم - جزاهم اللَّه عنا خيرًا - قلتُ في قصيدة «العودة» إلى الأزهر:

شيوخٌ تناهَى عِلْمُهُم نحو غايةٍ يزيد عليها عزم قلب مؤيَّدُ
لهم نظرٌ في كُلِّ سابِقِ فكرةٍ ورأيٌ جديدٌ حين يدعُوهُمُ الغَدُ
فمرآهمو ذِكْرٌ، ومَنطِقُهم هُدًى ونظرَتُهم طُهْرٌ؛ تقي وتودّدُ
ألا ليتَ شِعْرِي هل يعودن عهدَهم وتَبقَى لذاذاتُ النُّهَي تتجَدَّدُ
وهل أرِدَنْ يومًا حياضَ معينهم أم الأمر جبات وكم ممددُ
فيا رب أسعدني فيخضر ماحلٌ وينبت روض في القلوب مورَّدُ



(٦٢) الدكتور علي عشري زايد أصدق صديق

عرفته عند عدت إلى الالتحاق بكلية دار العلوم سنة ١٩٦٠، في الفصل الدراسي الثاني من الفرقة الأولى - كما حكيت ظروف استئنافي للدارسة بها في حكاية أخرى. وكان هو يقيم - مع السيدة شقيقته - عند دوران شبرا، وكنتُ حينها أدرُسُ - في الوقت نفسه - بالسنة الثانية بكلية أصول الدين، في شبرا «الخازندارة»، فبدا لي أن أزوره ذات يوم، فسعدتُ بوجود والده الفاضل، ومعه صديقه الشيخ عبد المجيد حزين، شقيق أستاذنا الدكتور سليمان حزين.. وكان تعارف عائلي صميم، استمر وامتد إلى إخوته الكرام، وإلى والدي - رحمه اللَّه - وإخوتي.. رحم اللَّه الجميع..

كان الدكتور علي يمتاز بالهدوء والذكاء، والشجاعة مع الحياء، والإخلاص وحسن الخلق.. وأشهد أني صحبته ما يربو على أربعين عامًا، فما كان بيننا إلا الصفاء والإخاء.. دون أية هفوة أو نبوة.. وقد كان يشكو من «بلهارسيا» قديمة، أثرت في الكبد.. وعانى فترة من المرض، ثم مضى إلى ربه في صيف عام ٢٠٠٣، لانتهاء أجله، ولتأثير هذا المرض على كبده - رحمه اللَّه.

كنا نتبادل المراكز الأولى - طوال سنوات الدراسة - وكان لميوله الأدبية، وميلي إلى الدراسات الشرعية، بالإضافة إلى تركيزه على الدراسة الدرعمية، وتشتت وقتي بين الأزهر ودار العلوم، يملك فرصة كي يفيد أكثر مني من المناخ الدرعمي، وتوجهاته. بالإضافة إلى عنايته

بالإنجليزية، وقد كانت هي المادة الحاسمة في ترتيب «الليسانس»، فحظي بالأولية عن جدارة، هذا ما تقوله الأوراق، ولكني أقول بكل أمانة وموضوعية: لقد كان جديرًا حقًّا بهذا، وبتصدره للمجموعة «الدفعة» برغم أنه، لطفًا منه كان يقدمني، حتى في المناسبات الرسمية، وكنت بطبيعة الحال أعتذر في قناعة واقتناع كاملين. .

كان على الصعيد الشخصي يهوى نشاط «الجوالة» التي لم يمارسها بعد انتهاء دراسته الثانوية بالإسكندرية، ويهوى فن «التصوير» أيضا ولذا كان من هواة السينما، وعضوًا «بنادي السينما»، خلال دراسته بدار العلوم، وكان يكن تقديرًا خاصًّا لفضيلة الشيخ محمد الصادق عرجون، أحد كبار العلماء والتربويين الأزهريين، الذي كان له الفضل في اكتشاف موهبة «علي» الأدبية، من خلال إشرافه بل ومشاركته في إصدار مجلة «معهد الإسكندرية الديني» حينما كان عميدًا لهذا المعهد، وقد صار فيما بعد عميدًا لكلية أصول الدين بالقاهرة. . كما كان الأستاذ عشري على علاقة أدبية حميمة، بأديبة العراق الشاعرة «نازك الملائكة»، دفينة القاهرة، وكان يتبادل معها - وهي في بغداد - رسائل عميقة في النقد ومعنى الشعر. . وحين اعتقلتُ عام ٦٥، وكانت سمعتي في الهروب معلومة للشرطة، جاءت فرقة كبيرة من الجنود المسلحين بالبنادق والسناكي في وضع الهجوم، والضابط شاهر مسدسه، ونحن قبيل الفجر، وقلبوا الشقة بحثًا وتفتيشًا - وكنا قد أقمنا معًا - قرب دار العلوم بشارع الفلكي، ونحن معيدان بها. . وأخذوا مجموعة الرسائل المتبادلة بينه وبين الشاعرة نازك الملائكة، وقد حاولت عبثًا مع الضابط، ومع نائب مأمور

قسم عابدين الذي «استلمنا» أن أستخلص الثروة الأدبية التي تاهت في أضابير الشرطة والمباحث العامة، التي تعرف الآن بالأمن الوطني.

وعن طريقه - رحمه اللَّه - عرفت الصفوة الأدبية بدار العلوم، التي ترعى النشاط الأدبي شعرًا وقصصًا ونقدًا. . وزرتُ معه الزميل «الدكتور صلاح فضل» في مسكنه عزبًا، قرب ميدان السيدة زينب - رضي اللَّه عنها - وحضرت معه أيضًا ندوة شيخ الرواية العربية نجيب محفوظ، المطلة على «الأوبرا» القديمة، وفي تلك الدار العريقة - رحم اللَّه أيامها - شهدنا معًا «حلاج صلاح عبد الصبور» وغيرها من المسرحيات. كما تعرفت بفضله على الشاعر الكبير «بدر شاكر السياب» تعرفًا عميقًا، وبالروائي المصري يوسف إدريس والأديب السكندري بهحت بدوي. وبوجه عام أستطيع القول إنني مع ميولي الشبابية الأدبية - المستمرة بحمد اللَّه - أدين في إطلالتي الواسعة على الأدب الحديث والمعاصر، وبخاصة الشعر، إلى علي عشري وتلك الصحبة الجميلة، التي جمعت بين الإمتاع والفائدة، وبين التوجه التحرري الوطني، والتوجه الإسلامي المستقل، اللذين تقاسمنا، أعني تشاركنا الانتماء إليهما، فأذكر في هذا الصدد واقعتين، يكشفان عن شخصية هذا الرجل الجامعة بين الهدوء والتماسك، والحياء والصلابة في الحق، وباختصار: الرجولة والاعتدال.

الأولى: أنه كما علمت - بعد الإفراج عني عام ١٩٥٨، وعودتي إلى دار العلوم لأستأنف العمل في «الماجستير»، وكان هو قد حصل على تلك الدرجة - وحكى لي الزملاء، وخاصة الدكتور فهمي حرب،

صديقنا المشترك - أتم اللَّه عافيته - الذي كان له الفضل في توثيق علاقتي بالدكتور عشري، ضمن علاقة أخوية أوسع - حفظه اللَّه وجزاه خيرًا: أن الدكتور عشري قُدِّر له أن يختلط بإحدى «المظاهرات» التلقائية، التي كانت تملأ القاهرة في أيام ما سُمِّي «بالنكسة» عام ١٩٦٧، وفي ميدان التحرير، ضاق الرجل ذَرْعًا، بالنداءات التي تشق الجو والحناجر: «لا تتنح.. لا ترحل»، وصرخ فيهم غير عابئٍ بحساسية الجمهور، ومشاعره الملتبسة الهائجة في ذلك الوقت، والتي اعتبرَتْ بقاء عبد الناصر معارضة للسياسية الصهيونية/ الغربية: إذا كان الرجل نفسه يريد التنحي فدعوه «ما شأنكم معه» وكاد ميدان التحرير - لولا لطف اللَّه - أن يشهد كارثة البطش بهذا الرجل العروبي الوطني، المتحرر التفكير في الوقت نفسه..!

والأخرى: أن الدكتور علي عشري كان على صلة حميمة وثيقة على الصعيد الشخصي، بالدكتور علي أبو المكارم الأستاذ بدار العلوم، ولهذه الصلة ضغط عليَّ - بعد عودتي الأولى من باكستان - أن أترشح لعمادة الكلية بتأييد من الدكتور أبي المكارم، الذي يُعِدُّ نفسَه لدورة لاحقة، وتمَّ التفاهم على ذلك بمنزل الدكتور عشري بمدينة نصر، ولكن الدكتور أبا المكارم، رشَّح نفسه للعمادة، وأغفل ما تمَّ التفاهم عليه في مواجهة كُلٍّ منا، وبمعرفة العديد من زملائنا... فأحدث ذلك الموقف شرخًا في علاقة الدكتور عشري بصديقه الدكتور أبي المكارم.. ولم يكن حصاد هذه الانتخابات مقصورًا على ذلك، فقد شاركني زميل آخر كل خطوات

الإعداد لها، والتفاهمات المعتادة بين الأساتذة، ثم رشح نفسه أيضًا قبل الاقتراع، على نحو يؤثر على رصيدي الذي يحيط به جيدًا. .

وعلى كل حال، خرجتَ يومها من حجرة الاقتراع راضيًا بالنتيجة - والأهم من ذلك راضيًا عن نفسي - وقابلني أحد تلاميذي من أعوان الفائز، فقلتُ له مُقرِّعًا: لقد خضنا معركة شريفة، ولم نجبر أحدًا أن يقسم بالطلاق أن يمنحنا صوته. . فقال دون تردد: وأنا أشهد بذلك أيضًا. . خرجت من غرفة الاقتراع مشفقًا على الزميل الذي سقط - عند إعلان النتيجة - مغمًى عليه، حتى قام نائب رئيس الجامعة المشرف على الاقتراع، وقمنا جميعًا للمشاركة في العناية به. . . ولقيني على سلم الكلية خارجًا إلى بيتي أخي الدكتور عبد الحميد مدكور، فقال - وكان قد أُعلِمَ بالنتيجة -: « ربما منعك ليعطيك. . » وقد كان عطاؤه واسعًا - سبحانه - ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠]. .

جاء الدكتور أبو المكارم عندما أُلغيت الانتخابات، وزادت هيمنة الأمن على الشئون الجامعية، أواخرَ عهد مبارك - لا أعاده اللَّه - جاء عميدًا لدار العلوم. . وكانت معاملته قاسية حتى مع زملائه الأساتذة، فهو غير مَدينٍ لهم بشيء، ومن ذلك أنه استهدف بعض الزملاء بالتضييق، وقال في حوار بينه وبين صديقه القديم «الدكتور علي عشري» - بحضور بعض الزملاء: إنهم يقولون عن «فلان»: إنه من التيار الإسلامي، فما التيار الإسلامي هذا؟ فرد عليه الدكتور عشري متحدِّيًا: أنا من التيار الإسلامي، فما يريبك من هذا التيار أيها العميد؟! وسكت الرجل مغيظًا، وأسقط في يده.

سافر الدكتور عشري إلى باريس في بعثة للدراسة بالسوربون، ومضى في عمله بنجاحه المعهود، وأذكر أني أرسلت إليه نسخة من كتابي الأول «غاية المرام» الذي صدر عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، مطلعَ السبعينيات، وكتبت عليها موجِّهًا الكلام إليه: «صدر لك كتاب في القاهرة، وهذه نسخة منه» مما كان موضع تعليق الزملاء وتند رهم في باريس، كما أخبرني - فيما بعد - الدكتور رجاء جبر الذي كان قد سبقه إلى هناك.. ولكن المرض القديم وآثاره في الكبد هاجمته، وخاطبه زملاؤه، وقد وجدوا أن تلاميذه المقيمين بدارهم في القاهرة، والرافضين فرصة الدارسة بالخارج، حتى بعد إتاحتها لهم، يعملون على التصدر قبل النضوج، فطالبوه، وهو مريض بالخارج أن يعود إلى القاهرة، ومرّبى - وكنت قد حللت بشمال لندن عقب وصولي إليها - عائدًا إلى مصر بعد نحو عامين، بلغ فيهما مستوى جيدا من الفرنسية.. ولكن صحته كانت صدمة لي لم أعبر عنها، عندما رأيته لأول مرة بعد تركه القاهرة إلى باريس، في المركز الثقافي الإسلامي بلندن - رحمه اللَّه.

عمل الدكتور عشري بقسم البلاغة والنقد الأدبي بدار العلوم عقودًا أربعة، وكان على صلة وثيقة بالأوساط النقدية وخاصة الناقد الكبير الأستاذ الدكتور محمد شكري عياد الذي شارك في الإشراف عليه.. وبلغ الدكتور عشري درجة الأستاذية أوائل الثمانينيات، بعد مناكفات في لجان الترقية - وهو مَن هو عمقًا في الثقافة، وبراعة في التذوق - وهما جناحا النقد، بالإضافة إلى معرفته الجيدة بالفرنسية، وقرضه للشعر..

وإن لم يتوفر عليه كما يتطلب الشعر. . فكان مُهيَّأً، لو امتد به العمر، أن يكون في الطبقة الأولى من رجال النقد التطبيقي بمصر، إلا أن المرض والرحيل الباكر نسبيًّا عن دنيانا، والغياب الطويل نسبيًّا عن الوطن في إعارة إلى باكستان امتدت نحو اثني عشر عامًا. . حرمْتهُ من التواصل، الذي يتطلبه النقد التطبيقي. . . وهي إحدى خسائرنا من ظروف غير مواتية. . . لأساتذة الجامعة المظلومين في وطنهم، وربما كان دوره هناك في إسلام آباد حريًا بكتابة مستقلة عنه، ولعل ذلك يتاح لي - بإذن اللَّه.

وقد خلف الرجل أعمالًا لا تخلو من نَفَسِ الفنان، وروح العالم، ورصانة المثقف، واطلاع القارئ في أكثر من لسان. . منها: عمل في تاريخ البلاغة العربية. . وآخر في موسيقى الشعر العربي، بنى عليه دارسون لاحقون. . ومقالات عديدة -عسى أن يجمعها أحد تلاميذه المتخصصين - في عديد من المجلات، كما أن بحثه «للدكتوراه» في: «استدعاء التراث في الشعر العربي المعاصر» ما يزال علامة على طريق البحث النقدي المتميز، كما يعلم الدارسون.

وقد يلاحظ القارئ الكريم أني آثرت، بل دُفعت دفعًا، إلى تسجيل جوانب من العلاقة الذاتية والمعرفة الحميمة بشخصية الدكتور عشري، الذي كان لي أكثر من أخ - وحقًّا رُبَّ أخٍ لك لم تلده أمك - وذلك لاقتناعي بأن التوفر على إنتاجه العلمي والفني أحرى أن ينتدب له أحد تلاميذه، وهم كُثر، بعد العمل المشكور الذي أنجزه الزميل الأستاذ الدكتور محمد . . . - رحمه اللَّه.

وربما قام بعض شباب الباحثين بتسجيل بحث عن الدكتور عشري

أستاذًا وناقدًا ومبدعًا في مستقبل الأيام.. أما ما سجلته من «سوانح» في الحياة الشخصية المشتركة بيننا - كما كان الجيل السابق علينا يسمى فن «المذكرات الشخصية» أو «السيرة الذاتية» - فهي حقا مجرد سوانح عابرة وملامح ظاهرة لشخص الكاتب والمكتوب عنه، لا دارسة علمية، ولا متابعة لشخصيته الأدبية. وإن كانت هذه السوانح، التي ربما تخفى على الكثيرين، لا تخلو من فائدة للدارسين.. وعبرة لعموم القارئين.

وقد تُوفِّي الدكتور عشري، وحمله تلاميذه وإخوانه، من مسجد صلاح الدين بالمنيل، إلى مثواه الأخير بمقابر الجامعة بستة أكتوبر، عام ٢٠٠٣م، وأنا في إسلام آباد فشق ذلك عليَّ، وقلتُ في قصيدة رثاء له، بعد مضي عشر سنوات على وفاته:

لو أنني وَدَّعته ... على الجبين أَلْثُمهْ
لو أنني حملته ... لقبره أكرِّمُهْ
وفي التراب أودعه ... وللخلود أسلمُه
لو أنني .. لو أنني ... رب القضاء يحكمه

رحمه ورحمنا اللَّه.



(٦٣) الدكتور أحمد محمود صبحي - رحمه اللَّه

ذكرتُ فيما مضى عمق صلتي بالدكتور علي سامي النشار - حتى بعد موته، وقد كان الناس في دار العلوم يصنفوني - على عادتهم في تصنيف الناس- أني من أتباعه، ربما لأني أزهري، وهو يعتبر نفسه شيخ الأشاعرة. . وعلى كل حال فالدكتور صبحي من تلاميذ النشار، ومما يدل على مكانة كل منهما في الاستقلال الفكري، أن صبحي وإن كان من أوفى الناس للنشار، صاحب نزعة اعتزالية عقلانية معتدلة. . أعتقد أنه تأثر فيها بأئمة الزيدية الذين عايشهم فكريًّا وكتب عنهم، وكتب عن الزيدية كتابة من أعمق ما كتب عن هذا المذهب عامة، وعن بعض رجاله وأئمته خاصة.

عرفته عن طريق صديقي، وتلميذي إلى حدٍّ ما، الدكتور شوقي عمر؛ فقد اشتركت في متابعة بحثه للدكتوراه في الفلسفة الإسلامية ومناقشته، واستمرت صلتنا العلمية بعد ذلك، وكان من ثمراتها تعرفي على الدكتور صبحي، وإذا ما زرت الإسكندرية، نصلِّي معه في الزاوية أمام منزله، وقد نصعد بعد الجمعة إلى شقته للتذاكر والمؤانسة، وكان الرجل قد فقد زوجته، وأخذ يعاني من الوحدة؛ لتزوج كل أولاده، وإن كانت إحداهن تأتي أحيانًا لتدبر بعض الشئون، وقد لاحظت تأثره الشديد بفقده شريكة حياته. -رحمه اللَّه- وكنت أشفق على حياته النفسية في وحدته وأحزانه، رغم تسليمه بالقدر ورضاه بقسمه.

كان الأستاذ قد عرفني إلى حد ما، إذ شارك، أواخر الثمانينيات في

فحص أعمالي لدرجة الأستاذية، وعندما لقيته لأول مرة، في مكتبه بقسم الفلسفة بجامعة الإسكندرية، وكنت مصاحبًا للدكتور محمد أفضل - رحمه اللَّه - الذي كان راعيًا للجامعة الإسلامية بإسلام آباد ووزيرًا للتربية والتعليم بباكستان، وتحدث الدكتور صبحي يومها عني حديثًا طيِّبًا، وعمَّا قرأه من أعمالي - بالعربية والإنجليزية - وأثنى على تنوعها ودقة ما فيها من نصوص محققة، إلى حد أنه عرض عليَّ المشاركة - لطفًا منه - في إخراج بعض النصوص الزيدية، لكن الاقتراب من الرجل وحياته النفسية والفكرية، إنما كانت بفضل تلميذه المخلص الدكتور شوقي عمر، كما ذكرت.

الدكتور صبحي ذو توجه فكري وطني أعتبر نفسي من أقرب الناس إليه، أمّا إعجابه بالفكر المعتزلي، فلم أشاركه في تقدير جوانب عدة من هذا الفكر، الذي يعد أسبق مذهب كلامي، بعد أبي حنيفة إذا اعتبرناه مؤسسًا للنزعة التي حملت اسم الماتريدية.. وقد كتب الدكتور صبحي إلى جانب جهوده الكلامية التي استأثرت الزيدية بأكثرها، في مجالات أخرى، منها «فلسفة التاريخ» فله فيه كتاب نفيس من أجود ما كتب في هذا الباب.. وقد عمل فترة على سبيل الإعارة في قسم الفلسفة بجامعة الكويت، مع أقطاب الفلسفة المصريين، من أمثال الدكتور عبد الرحمن بدوي والدكتور أبو ريدة والدكتور عزت قرني. وكانت مكانته بارزة بينهم بنزعته العلمية، والتزامه الفكري والشخصي.. وإن كان الرجل بعد عودته إلى قسمه الأصيل بالإسكندرية، وإحالته للتقاعد، تألم لتقاعس زملائه وتلاميذه عن إسناد أية مسئولية تعليمية إليه لبعض الوقت، وعندما دعي للعمل لبَّى الدعوة، وكان يتقاضى دريهمات - مثلي فقد عملت

سنين بدار العلوم - بعد إحالتي للتفرغ، أتقاضي ١٧٠ جنيها شهريًا، لا تكفي مصروفات الانتقال إلى الجامعة، وكنت، مثل الدكتور صبحي سعيدًا لمجرد التواصل مع طلاب العلم، والإحساس بعمل شيء ما، حتى زالت هذه الغمة بحمد اللَّه، سواء في الأجر، أو في أسلوب التجديد للأساتذة المتقاعدين أو غير المتفرغين - كما يسمونهم.

ودرة الدكتور صبحي الفكرية هي كتابه، عن سيرته الذاتية، الذي اختار له عنوانًا مُستمَدًّا من القرآن الكريم: «هاؤم اقرأوا كتابيه» وهو صرخة فكرية، بالغة الجرأة، صدرت أواخر عهد مبارك، ينتقد فيها، بكل قوة وصراحة، حياتنا الفكرية والاجتماعية والسياسية، ويعلن عن موقفه وتوجهه بكل صراحة، ويضرب المثل للعاملين بالفلسفة أن يحددوا مواقفهم الفكرية في السياق الثقافي والفكري بمصر، في النصف الثاني من القرن العشرين.

إن الدكتور صبحي على هدوئه، وعزلته النسبية، وعكوفه على مسؤلياته الأكاديمية يخوض بكل قوة، ورصانة، وإخلاص هذا الميدان، معلنًا لما يترجح لديه، في جرأة نادرة على إبداء معارضته لما يأباه وينكره، من الآراء والمواقف، ولعل ذلك أيضًا من بركات زيد بن علي - رضي اللَّه عنه - وأحسب أن «هاؤم اقرأوا كتابيه» يمكن أن يعدّ من إرهاصات ثورة الخامس والعشرين من يناير. واللَّه أعلم.

❀ ❀ ❀

(٦٤) فضيلة الشيخ محمد تقي العثماني حفظه الله

أكبر علماء الباكستان وأعرفهم بالعلوم الشرعية والعلوم العربية الآن - فيما أعلم - بعد رحيل الشيخ عبد القدوس القاسمي (القاسمي نسبة يحملها خريجو مدرسة «ديوبند» بالهند، التي تسمى «أزهر الهند» لجريها على المنهج الأزهري في الدراسة الشرعية)، ومن أكثرهم إتقانًا للعربية والإنجليزية، وله اهتمام خاص - على الصعيد العملي - بشئون الاقتصاد الإسلامي، والبنوك الإسلامية.

وهو شيخ الحديث في دار العلوم العربية بمدينة كراتشي، التي كانت عاصمة باكستان، قبل إنشاء مدينة إسلام آباد، وهي الآن عاصمتها التجارية والمالية، وثغرها على «بحر العرب»، على حين تمثل لاهور العاصمة الثقافية والفكرية، وربما السياسية فيما يتعلق بالحركة الحزبية والوطنية. أما إسلام آباد فعاصمة إدارية للمصالح الحكومية، وبعض الجامعات. وهو يقوم على مدرسة أنشأها والده الشيخ محمد شفيع أحد كبار علماء الباكستان منذ الخمسينيات ومن كبار مراجعها الدينية، وكان قرين الشيخ البنوري شيخُ المدرسة البنورية على النمط الديوبندي في مدينة كراتشي أيضًا، مع عناية خاصة لدى الشيخ تقى باللغة العربية، وإيجاد بيئة عربية لها عن طريق الزائرين العرب أو المقيمين أحيانًا، ويديرها شقيقه الأكبر، ولهما أخ ثالث، كان يومًا وزير الشئون الدينية بالسند في الحكومة الإقليمية، وهو نظام متبع في أقاليم باكستان الأربعة.

عرفته منذ دخلت الباكستان معلمًا في الجامعة الإسلامية العالمية،

معارًا من مصر، ضمن طائفة من الأساتذة المصريين، أزهريين وجامعيين، في مطلع القرن الهجري الخامس عشر، سنة ١٩٨٠ الميلادية، وعلى أيديهم تمَّ إنشاء الجامعة ووضع مناهجها - على النمط الأزهري - مع استعمال الإنجليزية في غير العلوم الشرعية، بالتعاون مع بعض العلماء الباكستان، وكان الشيخ أحد أعضاء مجلس الأمناء منذ تأسيس الجامعة، وسافرت معه إلى لندن، فازددت معرفة بحسن خلقه وسعة علمه، وكنا بصحبة فضيلة الشيخ محمد الطيب النجار رئيس جامعة الأزهر الأسبق- رحمه اللَّه .

واستقبلته في القاهرة أكثر من مرة، وهو رحَّالة كبير، له كتب في الرحلات تتضمن زياراته لمصر والعالم العربي، وأشهد أنه يعرف القاهرة التاريخية أحسن مني، وقد أقمت فيها سبعين عامًا الآن منذ التحاقي طالبًا بالأزهر الشريف، وبصحبتي إيَّاه عرفتُ ما بقي معلومًا للعارفين من مقابر الصحابة وكبار العلماء بالقرافة الكبرى، حول مسجد الإمامين الكبيرين الشافعي والليث بن سعد. كما عرفت أيضًا قبري الإمامين العيني وابن حجر شارح البخاري، والمسجد الذي كان يصلى فيه ابن حجر - وإن لم يدفن به كما يظن العامة. . في حارة بين باب النصر ومنطقة باب الشعرية، وهي مشاهد غير معروفة للكثيرين من سكان القاهرة، حتى المهتمين منهم بالشئون التراثية.

يحب مصر كسائر علماء الباكستان، وإن شغل أخيرًا عن التردد إليها، وله أبناء علماء، وأقارب - منهم الدكتور   الذي يعمل أستاذًا للفقه وأصوله بالجامعة الإسلامية بإسلام آباد وهو ابن أخته، ووالده كان من علماء الباكستان المشتغلين بنشر الكتب العربية - رحمه اللَّه - وللشيخ تقي

مكانة صوفية بين الصفوة الروحية في كراتشي، وهو يربي بعض طلابه روحيًّا إلى جانب تعليمهم العلوم الشريعة والعربية. . حفظه اللّٰه، وقد ورث هذه المهمة الروحية عن أبيه رحمه اللّٰه، مؤسس «دار العلوم العربية» وكلمة دار العلوم تعني «مدرسة دينية» - ربما تأثرا بمصر - وهي مدارس خاصة حرة تعلم العلوم الشرعية والعربية، وتعتمد على الجهود الذاتية للمواطنين، وتعلِّم مجانًا مع توفير الإقامة الكاملة للطلاب الذين يبلغ عددهم - بضعة ملايين من شباب الباكستان الفقراء والأيتام.

وقد زرت دار العلوم العربية بكراتشي أكثر من مرة - وكذا البنورية - مرارًا - وعلمت منه أن والده المفتي - رحمه اللّٰه - كان يرى النبي - صلى اللّٰه عليه وسلم - في إحدى غرفها مرات كثيرة. . وقضيت ليلة في المدرسة قرب هذه القاعة وصلَّيت الفجر مع طلابها وعلمائها. . وكم أود أن يحرص الأزهر على وجود دائم، بهذه المدارس الرئيسية بباكستان: العربية، والبنورية بكراتشي، وخير المدارس بالبنجاب، والأشرفية بلاهور والحقاينه بيشاور. . وأمثالها في شبه القارة الهندية كلها؛ فإن ذلك يشيع العربية ويحفظها فضلًا على دعم التوجه الوسطي السُّنِّي المستقيم. وقد أسعدني أن يدرك المسئولون المصريون خطأ سياسة الانكماش التي حملها الشيخ سيد طنطاوي شيخ الأزهر السابق - رحمه اللّٰه رحمة واسعة - وسعى لإيقاف الدعم المصري والأزهري عن هذه المدارس الإسلامية، ولكن المسئولين المصريين - بحمد اللّٰه - أدركو خطأ هذه السياسية، فأعادوا الدعم مضاعفًا إليها، ولم ينسوا المؤسسات التربوية الناشئة بأفغانستان أيضًا، وأمدوها بالخبرات الأزهرية بتشجيع من الدكتور أحمد الطيب - وفقه اللّٰه. وحبذا لو اهتموا بجنوب شرق آسيا ووسطها جميعًا.

(٦٥) الأستاذ خورشيد أحمد، وشقيقه الدكتور أنيس

الأستاذ خورشيد من خيرة من عرفت في الباكستان، مروءة، وجرأة، وعلمًا وخدمة للبحث العلمي، فضلًا على مكانته الدعوية، وتأثيره السياسي، ومن أكثرهم فضلًا على الجامعة الإسلامية خاصة. فلولا علاقته الوطيدة بالجنرال ضياء الحق ومسعاه لديه - رغم عدم توافر الشروط لقيام جامعة دولية غير خاضعة تمامًا للنظم المحلية - لما قامت الجامعة الإسلامية بوضعها الراهن العالمي، وإن شدتها عوامل كثيرة للمحلية، و«البكسنة»، معلنة أو غير معلنة.

وقد كان - جزاه اللّٰه خيرا - بمكانته الأكاديمية والسياسية خير ردءٍ لهذه الجامعة في أزماتها - وهي بعدُ نبتٌ وليد - وشاركه لفترة محدودة رجل عظيم - هو أفضل من عملت معهم، من شاغلي منصب راعي الجامعة (= الريكتور)، وكان رئيس وزراء الباكستان أكثر من مرة وهو الأستاذ معراج خالد - رحمه اللّٰه - رغم تباعد التوجهات السياسية بين الرجلين. لكني، أسجل هنا للتاريخ شهادتي لهما؛ كشخصيات متميزة، وعقليات حضارية متقدمة، وكرجلَيْن متجرديْنِ من المطامع الشخصية على نحو لم أجده - على مثل هذا المستوى الرفيع - في تجربتي هناك مع آخرين.

كان الدكتور أنيس أحد الأساتذة الذين شاركتُ في اختيارهم ، مع قيادات جامعية من الإخوة الباكستانيين، في أوائل أيام وصولي إلى إسلام آباد: منهم الشيخ هالبيوتا وقد حكيت طرفًا من أخلاقه، وجمعِه

بين صفات «البروفيسور» خريج كيمبردج والدرويش الصوفي في وقت معًا، في حكاية أخرى. وأظنني قدمت أيضًا ملامح من شخصية مولانا عبد القدوس القاسمي عضو لجنة الاختيار، وكان أخي وزميلي الدكتور محمود شرف الدين يشارك في لجنة الاختيار هذه أيضًا. وقد رحَّبنا بالدكتور أنيس الذي ترك موقعه الجامعي في الولايات المتحدة، وآثر الانضمام إلينا بعد مناقشة تليق بزميل جامعي - تعلمتها من الشيخ الغزالي رحمه اللَّه في مثل هذا الموقف - ثم توافق رأي الجمع على قبوله أستاذًا بالجامعة.

ومن وقائع تلك الليلة، فيما أذكر، أنني ناقشت الشيخ «أستاذ التجويد والقراءات» القادم من لاهور مناقشة فنِّيَّة في تخصصه، لفتت نظر الشيخ عبد القدوس القاسمي فأهداني نصيحته الثلاثية عن «خدمة الخلق»، كما حكيت في قصة أخرى، وقد أبدى الشيخ القادم من لاهور علمًا ومعرفة بتلك الدقائق، ووافقنا جميعًا على اختباره أيضًا، ونهض بمهمته، حتى رزقنا اللَّه بأستاذ مصري متعدد المواهب خطًّا وصوتًا وتعمقًا في علم القراءات وهو فضيلة الشيخ عبد الحي زهران، وقد ورَّث - رحمه اللَّه - خبرته وعلومه لأنبغ تلاميذه الباكستانيين، الذي ينهض بهذه المهمة الآن.

كان الدكتور أنيس خير معين، فهو أكاديميًّا تلميذ الأستاذ الفاروقي الشخصية المتميزة في مجال مقارنة الأديان، وهو على خبرة بالإدارة الجامعية، وقد تنقَّل في المسئوليات، حتى صار - عندما كنتُ رئيسًا لهذه الجامعة - نائبًا للرئيس. لكن الدكتور أنيس كان يتأثر في عمله الجامعي بالسياسية المحلية، ومن ذلك مثلًا أنه بعد أن اتفقت مع كل

المسئولين في الجامعة على تجنب التعرض للأزمة الأفغانية، بعد إسقاط حكومة المجاهدين، ثم إسقاط حكومة طالبان أيضًا بعد تحقيقها الهدف المرسوم في الغرب؛ حرصًا على مصالح الجامعة، في تيار الأحداث المتلاحقة، فقد كان هو الوحيد الذي لا يكتفي بإعلان رأيه في تلك المسائل، غير عابئ باحتمال تأثير ذلك على مؤسستنا، وموقفها الدقيق في تلك البيئة المعقدة، بل كان يستدعي وسائل الإعلام المختلفة إلى مكتبه في الجامعة - مع أجهزة التصوير - ليحدثهم في هذه الشئون، وهو يملك أن يلقاهم بسهولة، خارج حدود الجامعة؛ ولذا فإني برغم العلاقات الشخصية الحميمة معه، ومع شقيقة الأستاذ خورشيد خاصة، منذ عرفته وأنا أدرس في لندن، ضمن الهيئة المشرفة على المركز الإسلامي فيها - قررت عندما بلغ الدكتور أنيس سن المعاش الاستغناء عن خدماته. وأشهد أن الأستاذ الكبير خورشيد أحمد لم يتدخل قط، بل لم ألمس تغيرًا في علاقته بي بعد هذا الإجراء..

ومن الطريف أن الخصوم السياسيين، للدكتور أنيس، وجدوا في محتويات مكتبة الجامعة «صورة خيالية»، رسمها فنان غربي، للنبي محمد - صلى اللَّه عليه وسلم - وزعموا أنها مدسوسة بفعل رجل جاءت به الأجهزة الأمريكية إلى الجامعة، يقصدون الدكتور أنيس الذي يحمل الجنسية الأمريكية. ووقفت يومها خطيبًا في الجماهير الهائجة، وأوضحت أن هذه المقتنيات المحفوظة بالمكتبة هي في قسم غير مسموح بالاطلاع عليه، وهي أسبق حسب التواريخ المسجلة، من انضمام الأستاذ أنيس إلى الجامعة، الذي شاركتُ كُلًّا من مولانا عبد القدوس ومولانا هاليبوتا - وهم أبعد عن أي تهمة سياسية - في اختياره، ولا أقول اختباره.

وانتهت بذلك أزمة طلابية كبيرة، قادها طالب - كانت له بي صلة خاصة منذ ألحقته بكلية أصول الدين، لحفظه القرآن ومعرفته بالعربية - ولكن الذي لم أكن أعلمه أنه يقود الجناح الطلابي لحزب «الرابطة الإسلامية»، والدكتور أنيس معروف العلاقة «بالجماعة الإسلامية»، وأخوه الأستاذ خورشيد هو من قادتها، والحياة الطلابية في باكستان تعانى، بصفة دائمة، من التدخلات السياسية الحزبية، ولا حول ولا قوة إلا باللَّه.

ولا أنسى موقف الأستاذ خورشيد -متَّعه اللَّه بالعافية- عندما تدخلت بعض الجهات في التعيينات المتعلقة بإدارة الجامعة، وكنت أترجم بينه وبين هذا المبعوث؛ إذ كان موقفًا حريصًا على العلاقات الأخوية، لكن مع الاعتزاز باستقلالية الجامعة وكرامة العاملين بها - حفظه اللَّه.

وكذا في موقفه يوم أنهيت عملي رئيسًا للجامعة، واستبد الرئيس الباكستاني الجنرال مشرف - مع الريكتور الذي كان كثيرَ التدخُّل في إدارة الجامعة، خلافًا للقانون، وهو قاضي قضاة سابق لإقليم البنجاب . . وأشرتُ إلى عملي في السنتين الأخيرتين بلا راتب تقريبًا؛ وإلى تدبيري لرواتب من انقطعت رواتبهم من الأساتذة، برغم ذلك، وتمنيتُ التوفيقَ لخَلَفي؛ الدكتور محمود غازي صديق الريكتور، وقد زار القاهرة بعد ذلك وقمتُ بالواجب؛ وكذا الريكتور عندما دعاه المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة على أكمل وجه. وقد جاءني يومها الأستاذ الكبير الدكتور خورشيد أحمد، وقال: لقد وصلَتِ الرسالة، وما كنا نعلم هذه الظروف - حفظه اللَّه ومدَّ في عمره.

(٦٦) وشقيقان آخران بارزان، من رجالات إسلام آباد

هما من أعرف الباكستانيين بالعربية، وإن كان أكبرهما الدكتور محمود غازي - رحمه اللَّه - أوسع علمًا بالفقه والعلوم التقليدية، ولكنهما يشتركان في المعرفة بالعربية معرفة جيدة، وبالإنجليزية وبعض الفرنسية والفارسية أيضًا. وكانا لشهرتهما في ذلك، يقومان بالترجمة الفورية لأكثر من رئيس باكستاني، في لقاءاته أو رحلاته الرسمية، غير أن الدكتور محمد الغزالي - الشقيق الأصغر - أفصح لسانًا وأشد طلاقة بالعربية وربما أكثر ثقافة من الناحية العامة. وقد كان، الدكتور غازى موضع ثقة الدكتور حسين حامد، منذ قاما بافتتاح أول قسم بالجامعة في إسلام آباد، لمنح درجة «الماجستير» في الشريعة، وهو القسم الذي شاركتُ مع زميلي الدكتور محمود شرف الدين عام ٨٠ في التدريس به أستاذين زائرين، قبل أن تعير جامعة القاهرة خدماتنا لتلك الجامعة بصفة دائمة.

وقد استعنت بالدكتور غازى أيضًا عندما كنتُ رئيسًا للجامعة، واحتفظتُ له بمنصبه الجامعي، نائبًا لي، حين اختير وزيرًا للأوقاف والشئون الدينية بالحكومة الاتحادية، حتى عاد إليه بعد استقالته من المنصب الوزاري، ومجيء السيد الريكتور وحيد خان. وقد شهد الدكتور غازي - رحمه اللَّه - وآخرون بالجامعة، وبعضهم مازال يعمل بها حتى الآن مسئولًا عن الشئون المالية، أنني امتنعت عن عملي بعد

إساءة وجَّهها إليَّ - في حضور الدكتور غازي هذا الريكتور الجديد، الذي كان قاضي قضاة البنجاب، واختير لمنصب «الريكتور» وكان أكثر من عملتُ معهم تدخُّلًا في اختصاصات رئيس الجامعة، حتى اعتذر لي، وجاءني في بيتي يرجوني استئناف العمل، وكان سبب المشادة، التي اعترف بخطئه فيها، أنه - وهذا أحكيه لأول مرة ولم أذكره حتى في كلمتي الوداعية لمجلس أمناء الجامعة، التي وجهتُ فيها اللوم الخفي لكل من «الريكتور» والدكتور غازي، تنزهًا عن الإغراق في الإدانة - أنه جاء بأستاذ باكستاني في القانون، لا علم له بالفقه، يعمل في المملكة المتحدة، وعيَّنه عميدًا لكلية الشريعة، متجاوزًا اختصاص رئيس الجامعة. وقلتُ له: بصرف النظر من عدم معرفة الرجل بالفقه الإسلامي، فإن الجامعات تتعاقد مع أية كفاءة جامعية لشغل درجة جامعية في هيئة التدريس، لا شاغلًا لمنصب إداري ليس بشاغر أصلًا، واقترحتُ عليه أن يأتي مرشحه هذا في الكلية أستاذًا بها، وعندما نتعرف على موهبته الإدارية نختاره عندئذ عميدًا لها، أما الآن فهو تصرف غير مناسب وغير مسبوق، وفيه إساءة للعميد المصري القائم بالعمل والمتخصص في الشريعة، ورفضتُ التوقيع على قراره المعدّ سلفًا. وهنا وجَّه إليَّ إساءةً لفظيَّةً صريحةً -سامحه اللَّه- لم أغفرها له عندئذ، والسيد غازي صامت.

وخرجت إلى بيتي حتى اعتذر إليَّ، وجاءني في بيتي مكررًا الاعتذار.. وقد زار الرجل مصر بعد ذلك واستضفته في بيتي بالقاهرة، بعد عودتي النهائية من باكستان، وكذا الدكتور غازي - رحمه اللَّه -

الذي صحبته إلى الإسكندرية ليمضي بضعة أيام بها عاد منها مباشرة إلى كراتشي ثم إسلام آباد .

وأسجل هنا - بهذه المناسبة - أن خير رجلين عملت معهما ممن شغلوا منصب «الريكتور» أو «راعي الجامعة» - كما ترجمتُ هذا المصطلح، ضمن قانون الجامعة الذي نقلته إلى العربية في ليلة واحدة، ويشهد بذلك من أمليت عليه الترجمة وهو الأستاذ الدكتور/ محمد عبد التواب حفظه اللَّه: هما السيد/ معراج خالد رئيس الوزراء الأسبق لباكستان، والدكتور/ محمد أفضل وزير التعليم في عهد الجنرال ضياء الحق. فما أعظم الرجلين، وما أحسن مسلكهما في الإدارة النزيهة.

كان الدكتور محمد الغزالي على علاقة إنسانية أو روحية بشخصي الضعيف وقبل برجاء مني أن يشرف على مجلة «الدراسات الإسلامية» التي تصدر بالعربية، ضمن دوريات ثلاث تصدر عن الجامعة بالإنجليزية، وبالأوردية إلى جانب العربية، وحين عدت إلى القاهرة توقف الرجل عن هذا العمل الإضافي، برغم أن شقيقه الدكتور غازي - هو رئيس الجامعة وقد سعدت عندما علمت أن الدكتور الغزالي قد اختير أخيرًا، عضوًا بالمحكمة العليا لباكستان - وفقه اللَّه ونفع به.

وأدعو اللَّه - عزَّ وجلَّ - أن يتغمد الدكتور غازي برحمته، ويمسح على قلب والدته الكريمة، ويرعى أبناءه، ويحفظهم بحفظهم للقرآن الكريم، بنين وبنات، ويكثر من أمثالهم في شباب الباكستان؛ إنه خير مسئول وأكرم مأمول. آمين.

(٦٧) ومن معالم إسلام آباد
الدكتور ظفر إسحق الأنصاري - حفظه اللَّه

كان صديقًا لأكثر من رئيس باكستاني؛ لأن أباه - رحمه اللَّه - كان من مؤسسي باكستان، ويعرف المختصون أنه هو الذي كتب «البريامبل» أي المقدمة للدستور الباكستاني. وكان رحمه اللَّه على صلة شخصية بحسن البنا وأسرته، ولما جاء الأستاذ ظفرسنة ١٩٥٦ للدراسة بالقاهرة، أثناء إعداده رسالة الدكتوراه، التي قدمها إلى جامعة «ماكجيل» بكندا، أقام بضعة أشهر مع الأستاذ سيف الإسلام، وبرعاية والدته - رحمها اللَّه.

كان يرأس «معهد البحوث الإسلامية» (Islamic Research Institute, iri) الجناح البحثي للجامعة الإسلامية العالمية (Iilui) ويسمونه بالعربية تيمنًا بالأزهر الشريف (مجمع البحوث الإسلامية)، وقد أشرتُ سلفًا إلى ما يصدره من دوريات ثلاث بالإنجليزية والأوردية والعربية، وكان الدكتور ظفر يشرف على المجلة ذات اللغة الإنجليزية (I.S) بنفسه، وقد علمتّ من مساعديه أنه ربما راجع نصوصها قبل الإصدار عشر مرات. وهو أعرف من رأيتُ من غير الإنجليز باللغة الإنجليزية، وعلى معرفة جيدة بالعربية، يتحدث ويخطب بها مع قليل من آثار الأوردية. والرجل باحث من الطراز الأول، وهادئ الفكر منصف، وإن كان يُؤْثِر في علاقاته العملية إرضاءَ الجميع، ولعل ذلك من معالم حكمته.

اتخذته مستشارًا أخويًا - وكان يسمي ركنًا من مكتبه خصصه للتفكر

ودراسة الشئون المهمة: «تورا بورا»، استشرته في أمور كثيرة منها أمران من أدق مسائل الجامعة، وأكثرها حساسية، واستغلهما بعض أساتذة الجامعة - من مصريين منتفعين بالأوضاع القديمة أيام الدكتور حسين حامد حسان، ومن باكستانيين مغرضين يرمونني - ويعلم اللّه براءتي من ذلك الخُلق - بعدم الوفاء والتنكر للأصدقاء، «فتلك شكاة ظاهر عنك عارها».

الأولى: عندما مضى على رئيس الجامعة السابق الذي حرصت على تعيينه مستشارًا لرئيس الجامعة لشئون الموارد المالية (Fund Raising) للانتفاع بخبرته، وكان له في إسلام مقر فاخر بحراس وخدم، على نفقة الجامعة، التي يزورها كل بضعة أشهر فقط ليومين أو ثلاثة، وينطلق إلى مهامه الأخرى.. وحين مضى عامان كاملان، تدفع الجامعة فيها تكاليف الإقامة والاتصالات ونحوها، دون قرش واحد يورد إلى الجامعة، أو حتى خُطَى لجهودٍ بُذلت أو جهات تم الاتصال بها، أو وعود بإسهامات أو نحوها، عندئذ وجدت من واجبي، وأنا الذي يوقع استمارات الصرف، أن أنهي هذا الوضع الذي أنشأته؛ أملًا فيه، وهو زميل فاضل، سألني، يوم تسلمت القرار الإجماعي لمجلس أمناء الجامعة، باختياري خلفًا له: ما تظن أن أفعل لك؟ قلت فورًا بإخلاص: أن تكون لي كما كنتُ لك، فقال: اللّه المستعان. ووافقني كل من د.غازي ود. ظفر الأنصاري على قراري بالاستغناء عن خدمات المستشار الصديق.. وكان قرارًا مكلفًا من الناحية النفسية فقط لمن أصدره، وإن كان لابد من اتخاذه.

الثانية: أنني عندما وصلت إلى إسلام آباد، ولم يكن يخطر على

بالي أنى سأعود إليها، لولا قرار مجلس الأمناء، الذي أبلغنيه مهنئًا الزميل الدكتور محمود شرف الدين. وكان السيد الدكتور أحمد العسال - رحمه اللَّه رحمة واسعة - نائبًا لرئيس الجامعة، قائمًا بمهام الرئيس. فلما وصلتُ - وكان الأستاذ الكبير معراج خالد هو الريكتور - والدكتور غازي نائبًا للرئيس أيضًا، احتفظتُ بالرجلينِ لخبرتهما، وعلمهما، وصداقتهما لي؛ وحرصًا على مصالح الجامعة.. لكني وجدت ازورارًا من أخي الدكتور العسال - رحمه اللَّه - وعزوفًا عن التعاون معي، وخلال عامين قدم إليَّ الأخ العسال - وصلتنا تمتد إلى أكثر من نصف قرن - ثلاث استقالات من منصب نائب الرئيس، وكان يذكر ظروفه الصحية، وعدم قدرته على مواصلة النهوض بأعباء نائب رئيس الجامعة للشئون الأكاديمية.

كنت في كل مرة أتلقى الظرف الموجه إلى رئيس الجامعة من الدكتور العسال، أذهب به مغلقًا، إلى «تورا بورا» ويفتح الدكتور ظفر بنفسه اللفافة المعهودة، التي أحس أنا دون فتحها، بما في داخلها، ويعلم اللَّه ويشهد الدكتور ظفر، حفظه اللَّه، أنني كنت أغضي عن طلب الإعفاء أو «الاستقالة»، وأضغط على أخي الدكتور العسال فيستجيب مشكورًا، مرة بعد مرة، وفي الثالثة قال لي الدكتور ظفر: يا أخي الرجل يقول لك: إن حالته الصحية لا تمكنه من الاستمرار، وهذه ثالث مرة يبلغك بذلك، وهنا أصدرت قراري بقبول الاستقالة، وتعيين الدكتور العسال مستشارًا للجامعة، مكان الدكتور حسين حامد حسان مسئولًا عن الموارد المالية، بنفس التسهيلات والحقوق التي كانت للمستشار السابق. والعجيب - بعد أن استجبت كارهًا - لرغبة أخي وزميلي، تحرك زملاء بالدسيسة، والاتهام

الصريح والمبطن أحيانًا، كما أسلفتُ الإشارة. وجاءني زميل - ما زال حيًّا ويعمل إلى الآن بدولة خليجية - من قبل الشيخ العسّال مقترحًا أن يعود إلى منصبه السابق، وكان هذا يعني العبث والعشوائية، في قرارات الجامعة، فلم أقبل برغم الإلحاح، وظل الدكتور أحمد في عمله الجديد، أكثر نشاطًا - إلى حدٍّ ما - من سَلَفِه، وإن كان يتصرف أحيانًا فيما يرد إليه من مال دون استشارتي أو علمي.. وكنت طوال عملي أوصي بالمساواة التامة بين القائمين بعمل واحد، ويرى هو والشيخ حسين حامد رأيًا آخر. ولكني إن كنت أشك في نفسي، فلسوف أسمح لها بالشك في نزاهة الدكتور العسال، وقد انتهت فترة رياستي للجامعة، وتولى بعدي الدكتور غازى في قرار انفرد باتخاذه الجنرال برويز مشرف، وأُبلغ إلى مجلس الأمناء للعلم فقط، ولم يعلق عليه إلا الدكتور يوسف القرضاوي بالخشية على عالمية الجامعة، ولكن الذي صرَّح بعدم الرضا بهذه الطريقة، وقال بوضوح: هل جئنا من قارة أخرى لكي نتلقى شيئًا لا نناقشه؟ كان هو الدكتور أحمد الطيب، الذي حضر عندئذ بوصفه رئيس جامعة الأزهر. واللَّه على كل شيء وكيل.

وقد زارنا الدكتور ظفر بمصر قبيل ثورة الخامس والعشرين من يناير، مدعو المؤتمر بمكتبة الإسكندرية، وقضينا أيّامًا طيبة، وهو في كامل صحته وعافيته، ولكنه بعد العودة إلى باكستان، تعرض لبعض المشكلات الصحية، أسأل اللَّه - عز وجل - أن يسبغ عليه أثواب العافية، وأن يمتع المسلمين بجهوده وبحوثه المتواصلة، فقد نقل من الأوردية إلى الإنجليزية تفسير السيد المودودي للقرآن الكريم: «تفهيم القرآن»، وكذا تفسير «في ظلال القرآن» عن العربية، ولعله أتمَّه الآن..

إنه سليل بيت عظيم، يحمل تراثه بأمانة ونزاهة، أسأل اللّٰه أن يبارك على هذا البيت، ويحفظه لباكستان، وللمسلمين كافة.



(٦٨) أما علمًا فعالم..

زاملت في العمل بكلية الشريعة بإسلام آباد، عاصمة الباكستان، وأظنني حكيت من قبل ظروف سفري إليها، ومقامي بها خمسة عشر عاما، مساعدًا لرئيسها ثم رئيسًا لها بعد ذلك مدة ست سنوات، أقول: زاملت رجلًا كان بيني وبينه صلة طيبة؛ أولا لتقديري له؛ إذ كان جيدًا في تخصصه الدقيق، ذا عقلية أزهرية واعية فاحصة، وإن كان يبالغ في الاعتزاز بنفسه وأستاذيته، ولم أر في ذلك عيبًا كبيرًا. ولأننا كنا نلتقي في أمسياتنا عند أستاذ التجويد وعلوم القرآن - الشيخ عبد الحي زهران - الذي كان فنانًا، خطّاطًا وتاليًا للقرآن الكريم بصوت رائع متميز؛ وكان - رحمه اللّه - من محاسن مدينة إسلام آباد، في تلك الأيام من ثمانينيات القرن الماضي.

وعندما عدت أواخر التسعينيات إلى إسلام آباد، بقرار مجلس الأمناء الإجماعي، رئيسًا للجامعة، كان الأستاذ الصديق الذي سأحكي حكايته مازال معارًا لباكستان، ولكنه تغير من ناحيتي، وأخذ يتحزب لرئيس الجامعة السابق، الذي توثقت صلته به، ويحاول تأليب آخرين من أعضاء هيئة التدريس على القيادة الجديدة، مع أنه يعلم أني لم أسع إلى المنصب، وأنني كنت من أكبر أعوان الرئيس السابق، بل إني قضيت سنين أحمل العبء كله - علم اللّه - حتى قامت الجامعة على قدم وساق، ثم تركتها لا أتوقع العودة مرة أخرى، لولا القرار المشار إليه تقديرًا من الأمناء لدوري، في التأسيس والإنشاء.

لم يكن هذا التوجه أو الولاء للرئيس السابق، الذي عين بمجهود من جانبي مستشارًا للجامعة، مزعجًا كثيرًا لي؛ لأني أتفهم ظروفه، وأعرف العلاقة الخاصة بين الرجلين. لكني عجبت لمحاولة الدسِّ والتأثير على آخرين من الزملاء المصريين المعارين بالجامعة، على نفقة الحكومة المصرية، ومحاولة شق الصف الذي عمل طويلًا بقلب رجل واحد، في سنوات التأسيس العجاف، لغير ما سبب إلا ترهات مخترعة، ونزعات معهدية بالية، وربما منافع شخصية.

لكن الذي أزعجني حقًّا، وحملني على غير عادتي في التعامل مع الزملاء، ويشهد كل من عملوا هناك أني أحترم كل أستاذ وأعرف له قدره، وأني كنت أنبه على رجال مكتبي، أن الأستاذ - مصريا كان أو باكستانيًّا - لا يحتاج إلى إذن من أحد للدخول عليَّ. ويعلم اللَّه ما كنت أتحمَّله وأغتفره لبعضهم من تجاوزات معي شخصيا، وأستطيع بفضل اللَّه نسيانه، وإن كان الأكثرون، بل الجميع، بعد عودتنا إلى الوطن والحمد للَّه، ما زالوا على علاقة حسنة بي جميعًا، بعد تحررهم من تلك الضغوط أقول:

إن الذي أزعجني، فصممت على اتخاذ موقف من هذا الأستاذ، الذي هو الوحيد خلال عملي في إدارة تلك الجامعة، الذي طلبت من المسئولين بمصر إنهاء إعارته - في إحدى إجازات الصيف - وعدم عودته إلى إسلام آباد، وهو الصديق القديم، العالم المتميز - أنه تحول إلى ابتزاز زملائه، وتهديدهم بعلاقته الخاصة ببعض المسئولين

بالقاهرة، وجاءني منهم من يخبرني أنه يقول لزملائه: إنه يستطيع أن ينتزع أيا منهم من فراشه، ويرده في أول طائرة إلى القاهرة.

وقد حاولت - واللَّه شهيد - بزيارة الرجل في بيته، ومناقشته المزاعم المتعلقة برياسة الجامعة السابقة، أن أعالج هذه الأمور على نحو هادئ، فتعذر ذلك، وأشركت معي عميده وعمداء الكليات الثلاث - وكانوا من المصريين - حتى لا أنفرد بالقرار.

وأخبرتهم أن بعض المخلصين من الزملاء، حين علم بموقفي، جاءني ناصحًا: لقد أوصانا الأسلاف ألا نخاصم «الفاجر القادر»، فقلت له مقدِّرًا دوافعه: ليس كل ما جاءنا عن الأسلاف، من هذه «الفولكلوريات» بصواب، وإن من واجبي أن أحمي زملائي من الابتزاز، ولو جلب ذلك عليَّ ما تخشاه. وكان هذا الأخ النشاز أو الناشز، مبالغةً بالثقة في نفسه وفي «داعميه»، قد غادر مقر العمل في باكستان قبل إجراء امتحانات آخر العام، بحجة أن بنته الكبرى تؤدي امتحانًا في القاهرة ولابد أن يكون معها، ولم يكلف نفسه بطلب إجازة بذلك مني أو من عميد كليته، أو حتى إعلامنا بسفره. وحين عاد إلى القاهرة، أخذ يكتب عني، ويثير من التهم القديمة والجديدة ما سَمَحَت به طِباعُه، لكن العمداء الثلاثة وافقوني بعد سفره المفاجئ، على وجوب إنهاء إعارته.

وهكذا كان القرار الوحيد من نوعه الذي أصررت على اتخاذه، برغم الظروف التي يفهمها القارئ من خلال الوقائع السابقة، غير عابئ بما قد يترتب عليه، ولم يترتب عليه - بحمد اللَّه شيء.

رُزئ هذا الأستاذ في زوجته، وذهبت إلى تقديم العزاء له، بمسجد عمر مكرم، بالقاهرة، رغم نصيحة بعض الزملاء أن للرجل بوادر لا يتحكم فيها أحيانًا، ولكنه - علم اللَّه - حين مددتُ له يدي وذكرتُ له اسمي، انتفض واقفًا شاكرًا، وقدَّر لي هذا الموقف الأخوي، في ظروف تنسى أو تتناسى فيها الخلافات.

إلا أنك لو سألتني على الصعيد الشخصي لقررت ما سبق عن الرجل، أنه يصدق فيه قول السلف: أما علمًا فعالم - كما يروى في الشواهد النحوية. والعلم - مع الإيمان - هو الذي يرفع شأن العالم في الدنيا وفي الآخرة ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الآية ١١ من سورة «المجادلة»] صدق اللَّه العظيم.



(٦٩) صدمة الاقتراح: لِمَ لا تُفَسِّرُ القرآنَ؟

أوائل عام ١٩٨١ ، وصلنا إلى باكستان - فريقا من الأساتذة المصريين الجامعيين الجادين - وتعاونّا في وضع نظم الجامعة، وتحديد مقرراتها ، على النهج الأزهري والروح الدرعمي، أسوةً بجامعتي الأزهر والقاهرة، وقامت كليات الشريعة وأصول الدين واللغة العربية.

وتولى «معهد اللغة العربية» - وهو غير الكلية الخاصة باللغة العربية، التي تحولت إلى كلية للغات أخيرًا - إعداد الوافدين من عدة جنسيات، أهمها الصين وبلاد وسط آسيا، ممن لم تتح لهم دراسة بالمدارس الدينية التقليدية. وكان عملنا في البداية في غرف ملحقة بالمسجد الرئيسي للعاصمة، الذي أنشأه الملك فيصل رحمه اللَّه - وأتمه أبناؤه من بعده ويسمَّى بالأوردية «شاه فيصل مسجد». ولم تكن أعمال الإنشاء قد اكتملت في المسجد وملحقاته حتى كنا أحيانًا في الشتاء نسد النوافذ، في تلك البلاد الباردة شتاء - الحارة صيفًا - بالبطاطين، وكنا نخوض أحيانًا في الأيام الماطرة من الصيف، الطرقَ الطينية غير المرصوفة إلى مقر العمل بالمسجد، بروح رسالية جادة، يسَّرتْ قيام هذه الجامعة التي أسست بناء على قرار للقمة الإسلامية، ضمن سلسلة مؤسسات جامعية في مطلع القرن الخامس عشر الهجري؛ وساعدت فيما بعد على نموها واستقرارها، كجامعة عالمية. ويرجع الفضل في ذلك - بعد اللَّه تعالى- إلى المرحوم، بإذن اللَّه، الجنرال ضياء الحق، رئيس جمهورية باكستان الإسلامية في

ذلك الحين، الذي كان يتابع شئونها عن طريق أحد رجاله المخلصين، هو الدكتور محمد أفضل وزير التربية حينذاك ورئيس المجلس الأعلى للجامعات في باكستان، وراعي هذه الجامعة بوجه خاص، في سني نشأتها، بعد رئيس من علماء السند قام عليها لفترة قصيرة.

ونظرًا لهذه الظروف، وتقديرًا من الباكستانيين للعلماء الأزهريين، وكَلَ القوم إلينا الإشراف على المسجدِ أيضًا، وإقامةَ الشعائرِ به، وأهمها صلاة الجمعة وإلقاء خطبة الجمعة، وقد كنا نقوم بذلك كله، أول الأمر، في القاعة الكبرى بين الفصول المخصصة للتدريس قبل تمام بناء المسجد.

ولأن الباكستان ليست مصر، من حيث رحابة الفكر الديني وسماحته، فقد اتفقنا فيما بيننا ألا تخرج موضوعات الخطب في المسجد الجامع - عن آيات القرآن الكريم، حتى لا نثير خلافا لا ضرورة له، أو نعطى فرصة لبعض الأئمة المحليين أن يجد تكأة يهاجم بها علماء الأزهر. وكان ذلك توفيقا من اللَّه - عز وجل - وكنت أتبادل الخطبة مع زميلين آخرين، وبدأنا بفاتحة الكتاب فالبقرة. . . ، ومن عجائب الأقدار أن آخر آية انتهيت إليها شخصيًّا في آخر خطبة لي، قبل عودتي إلى مصر عند انتهاء إعارتي عام ١٩٨٩ كانت هي قول اللَّه - عز وجل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [وهي الآية رقم ٩ من سورة الحِجْر].

وأذكر أنني كنت ألقي خطبة الجمعة مرة في الساحة العليا (وكان الدور الأرضي مخصصًا للفصول الدراسية) من سطح المسجد أمام «قاعة الصلاة» التي لم تكن قد اكتملت بعد، وكان موضوع الخطبة حول معاني

الآيات الكريمة ٨٥- ٩٣ من سورة الأعراف، عن قوم مدين ونبي اللَّه شعيب، وما كان من استقطاب كامل، بين أنصار الحق والمتشبثين بالباطل، ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ وهي وصية حكيمة عاقلة، ولكن الباطل يلجأ دائمًا إلى سلاح القوة لا العقل: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ﴾. . وكيف انتهى الصراع بعد ذلك بين الفريقين. . ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

وفوجئت بالأستاذ الدكتور محمد أفضل، وزير التعليم «وراعي الجامعة»، الذي كان يشاركنا صلاة الجماعة، بعد أن نزلنا إلى الدور الأرضي، والتقيت به في مكتبه، يخاطبني متسائلًا: لم لا تفسر القرآن على هذا النحو؟

قبَّ شعري - علم اللَّه - لدى سماعي منه هذا الاقتراح؛ خوفًا وإشفاقًا أن أتطلع إلى مثل هذا المقام، مع قلة بضاعتي وهوان شأني. لا أنكر أنه خالجني بعد ذلك بنحو عشرين عامًا، خاطر التصدي لهذه المهمة الكبرى، ولكن من ناحية خاصة، هي التركيز على شرح الآيات التي تتناول العقيدة الإسلامية، وهو الموضوع الذي قضيت عمري في دراسته وتدريسه. ولعل القارئ الكريم يدعو لي بالتوفيق في إنجازه على نحو ينفع المسلم المعاصر، كما حاول الإمام الرازي (٦٠٦هـ)، في تفسيره الكبير، خدمة معاصريه بالعناية بالجانب الاعتقادي مزيد عناية، وإن كان تفسيره يستشرف أن يجمع كل جوانب التفسير، بنجاح كبير، وليس كما قال بعض شانئيه: إنه يحوي كل شيء إلا التفسير.

وقد كنت، عندما عدت إلى إسلام آباد، رئيسًا للجامعة، حريصًا على أن أَخْتار للإمامة والخطابة في هذا المسجد الرئيسي الكبير، «شاه فيصل مسجد»، من بين الزملاء المصريين، القادرين على أداء هذه المهمة، شيوخًا كانوا أو شبابًا، لكن بشرط شكلي، قد يبدو لنا في مصر أمرًا غريبًا، وهو أن يكون ملتحيًا؛ لأن الإخوة في باكستان يرون الحليق غير صالح للاقتداء به؛ إذ الحلق مخالف للسنة، واستدامته ضرب من الفسوق.. وكنت أتبادل مع هذه المجموعة القيام بهذا الواجب.. ولكني منعت نفسي في أُخريات هذه الفترة حين سمعت أحد هؤلاء الزملاء، يقرظ بوجه خاص مواقف بعض الدول الشقيقة، فقلت: هذا منبر جعل للدعوة، وقد وثق بنا القوم أن ننهض بها تشريفًا وتكريمًا، ولم يفرضوا علينا شيئًا، ونحن كما قلت التزمنا التوجيهات القرآنية، فمنعته ومنعت نفسي من باب اللياقة، وتركت باقي الزملاء يواصلون المهمة التعبدية الدعوية.

ومن أكثر الخطب التي ألقيتها -في هذا المسجد- توفيقًا من اللَّه - تعالى- بحسب ما بلغني من كثير من الزملاء: خطبة عن «التوبة» ذكرني بها الشيخ عبد الحي زهران بعد سنين، وقد رويت - في حكايات السفراء - أن سعادة السفير علَم دار - رحمه اللَّه - سفير المملكة السعودية بإسلام آباد، استبقاني بعد هذه الخطبة، وقال لي قولة تدل على الإخلاص الشديد، بصرف النظر عن الوظائف: «إن من أسعد أيام حياتي - وهو رجل عسكري أصلًا - سماعي خبر عبور مصر قناة السويس في ٦ أكتوبر، وقرار الرئيس المصري أخيرًا بتحمل نفقات بقاء

الأساتذة المصريين في إسلام آباد». وخطبة أخرى عن «القدس الشريف» جاءني بعدها السفير المصري الأستاذ عز الدين شرف - رحمه اللَّه - وكان معه أخوه الأستاذ سامي شرف - متعه اللَّه بالصحة - وهما في غاية التأثر. وثالثة كانت عن «الذكر» ويذكرني زميلي - وتلميذي والحمد للَّه - الدكتور محمد حماسة عبد اللطيف، نائب رئيس مجمع اللغة العربية، بسريان الآيات القرآنية المتعلقة بالموضوع على لساني بتوفيق اللَّه سَلِسِةً متضافرة، وكان يومها أستاذًا معارًا للجامعة، وكنت في زيارة لها بعد انتهاء إعارتي الأولى.

وأختم هذا الموضوع بكلمة شيخنا الشيخ محمد أبو العيون، وكيل كلية أصول الدين، وأحد رجالات الطريقة الخلوتية في مصر، استمدادًا من كتاب «دلائل الخيرات»: إذا وفقك اللَّه إلى الإحسان في درس أو خطبة، فلا تحسبن ذلك يرجع إلى براعة أو علم عندك، وإنما هو رزق السامعين، ساقه اللَّه على لسانك. والحمد للَّه رب العالمين.



(٧٠) هدية الشيخ علاء الدين النقشبندى

لأنّي ملتزم بعهد الوفاء للقارئ، ألا أقول له في هذه «الحكايات» إلا حقًّا، ولا أروى إلا صدقًا؛ فإني لا أعبأ بالتهمة: ما بال هذا الرجل يشغلنا بالأساطير، و «اللامعقول» من الأمور!

عرفت الشيخ علاء الدين «النقشبندي» أول الأمر - وهو شيخ الطريقة في كشمير - لاتصال عملي في الإدارة الجامعية، بجامعة علاء الدين الخاصة بإسلام آباد. ووقع ذلك من نفسي موقعا حسنا أن يتجه القادة الدينيون، والمرشدون الصوفيون، إلى دعم التعليم والتعلم، الذي هو نافذة المستقبل لشعوبنا وأمتنا. ثم لقيته ذات يوم في المطار، وكلانا على أهبةِ سفر، وعلمت أن ولده وبعض مريديه يدرسون معنا، في الجامعة الإسلامية العالمية. وذكرت له أن والدي - رحمه اللَّه - كان «نقشبنديًّا»، وكان شيخه الشيخ وافي سعيد - من أعيان إقليم بني سويف - يجمعه أحيانا بالشيخ سلامة العزامي، والشيخ نجم الدين الكردي شيوخ الطريقة بمصر.

وفي إحدى الليالي - في السنوات الأخيرة من مقامي بباكستان - جاءني أبى - رحمه اللَّه - في المنام، وقلما يقع ذلك لي، وألقى عليَّ، وكأني نائم أو مستلق بين يديه - ثيابا وملابس، ثم انصرف دون كلام.

وفي صبيحة هذا اليوم، جاءني من يحمل دعوة لي من الشيخ «علاء الدين النقشبندي»، وهو بالمناسبة كهل أقرب إلى الشباب، فارع القامة، حسن السمت، رقيق الجسم، بسيط المظهر، يحسن العربية - فذهبت

إلى منزله بمدينة «راولبندي» وهي مجاورة لإسلام آباد، وقد صارًا الآن أشبه بمدينة واحدة. وتناولت الغداء على مائدته، وبعد الغداء، قدم إلى ثيابا هي أقرب ما تكون إلى تلك التي ألقاها والدي - رحمه اللَّه - على بدني، في رؤيا الليلة السابقة. وتقبلت الهدية شاكرًا، دون أن أنبس بنت شفة، وقلبي يبتسم.

وفي إحدى الزيارات لكشمير قبيل مغادرتي لباكستان في العودة النهائية إلى الوطن، ذكرت القصة للشيخ علاء الدين ولبعض رفقائي في الرحلة، وأتحفني الشيخ في هذه الزيارة بتحف أعظمها «بشرى روحية» اعتبرتها أعز ما نلت في مختتم رحلتي الجامعية والروحية إلى باكستان، وقد سجلتها في قصيدة لي، والحمد للَّه الذي بنعمته تتم الصالحات.

وربما كان من المناسب أن أذكِّر إخواني ، رجال التصوف بمصر، أن الشيخ علاء الدين - مع أنه شيخ صوفي يعمل في المنطقة المحررة من كشمير، لديه اهتمامات تربوية وتنموية، ولذا أنشأ في إسلام آباد «جامعة خاصة» للعلوم الإنسانية والتقنية، انتقل إليها بعض من كان يعمل معنا من الأساتذة الباكستانيين لتدني المرتبات الحكومية الباكستانية نسبيًّا، وبرغم ذلك كان أحد أبنائه يدرس معنا في الجامعة الإسلامية بإسلام آباد، لما نقدمه من برامج في العربية والعلوم الشرعية - القريبة من البرامج الأزهرية - ولا نظير لها في إسلام آباد.

ومن الممكن إقامة علاقة زمالة وإخاء بين جامعة علاء الدين الصديقي بإسلام آباد، والأنشطة المناظرة في العشيرة المحمدية بمصر، وغيرها من المؤسسات المماثلة، ولعل جماعة علماء الصوفية - عندما تقوم على ساقها ويتولاها أولو الشأن - تنهض بمثل هذه المهمة - بإذن اللَّه.

(٧١) في طائرة العودة من باكستان

انتهت سنوات عملي في باكستان، رئيسًا للجامعة الإسلامية العالمية عام ٢٠٠٢م، ثم رأت السلطة المعنية أن أستمر في عملي عامين آخرين، مع أن السلطات المصرية الداعمة الأساسية للأساتذة الوافدين - ومنهم الرئيس المصري للجامعة - كانت قد أوقفت دعمها. ورأيت من المروءة ألا أتوقف عن العمل لتوقف راتبي.. وفي عام ٢٠٠٤ أنهيت عملي، واختار الرئيس الباكستاني، رئيس مجلس الأمناء، الجنرال برويز مشرف، رئيسًا آخر باكستانيًا للجامعة كان نائبًا لي.

وفي طائرة العودة، سألت نفسي: ماذا ستفعل في مصر؟ نعم، سأعود إلى مهنتي - وهي مهنة أبي وثلاثة آخرين من أشقائي - مهنة التعليم، أستاذًا للفلسفة الإسلامية بكلية دار العلوم في جامعة القاهرة،.. ولكني مع اعتزازي المهني بمنصب المعلم، كنتُ دائمًا أرى أن حق المجتمع المصري، على مثلي ممن تيسرت لهم فرص التعليم داخل مصر - في أكثر من جامعة - وخارجها أيضًا، لا يقضيه أن يحمدوا اللّٰه على نعمه، ويكتفوا بالإخلاص في تعليم تلاميذهم. وهو ما حاولته طوال عمري الجامعي، وإن كنت بصدق غير راض عن نفسي معلِّمًا، وقد تجاوزت الثمانين من عمري؛ بل أسعى إلى تطوير إمكاناتي وطريقتي؛ أملًا في الوصول إلى مستويات - ونماذج في ذهني - أكثر حرفية ونجاحًا...

لقد كنت أشعر دائمًا أنه لا بد من القيام ببعض الأنشطة، في إطار

ما يسمى بالمجتمع المدني - لخدمة المجتمع المصري. . . وكنت في سبيل ذلك قد حصلت على شقة متواضعة - غرفتان وصاله - بحي السيدة زينب، ونقلت إليها مكتبتي الشخصية، في العربية والإنجليزية، عدا ما يلزمني في عملي الجامعي والبحثي، لتكون في عون طلاب البحث غير القادرين على تحصيل ما يلزمهم من المراجع، باعتبارها مكتبة متخصصة في علم الكلام والفلسفة الإسلامية، فهي أكثر إفادة لهم وأيسر من المكتبات العامة الرسمية، وذلك منذ أول التسعينيات من القرن الماضي.

وفي الطائرة، تخيَّلتُ عدة مشروعات:

١- تطوير المكتبة، وتنظيمها مؤسسيًّا، وذلك بإقامة وقف إسلامي خيري يشرف عليها وينميها، بما تبقى لدى من مال، بعد إنشاء «المعهد الأزهري» - بقريتي بني ماضي - للمرحلتين الإعدادية والثانوية، وللقسمين - حسب النظام الأزهري - بنين وبنات. وقد أعانني في تنفيذ ذلك - بعد توفيق اللَّه تعالى - الإمام الأكبر الشيخ أحمد الطيب، ووزير الأوقاف الأسبق الدكتور محمود حمدي زقزوق، والمفتي الأسبق الدكتور علي جمعة - جزاهم اللَّه خير الجزاء - وقد انتقلت المكتبة، بفضل جهودهم إلى مقر جميل مناسب، في مسجد «الأزهر الشريف» بالقاهرة. والحمد للَّه الذي بنعمته تتم الصالحات.

٢- السعي - في إطار الوقف الخيري الذي خصصته للبحوث والدراسات الإسلامية فقط لا لغرض آخر، رغم تعدد وجوه البر، غير أن الناس عادة لا يلتفتون إلى البحث العلمي، بل قد لا يفطن بعضهم إلى أنه أحد وجوه

البر وخدمة المجتمع - أقول: السعي لإقامة مركز أبحاث علمي يغذى مجلة علمية ذات مستوى دولي، متعددة اللغات، لإحياء وتطوير وتحريك البحث والدرس في العلوم الشرعية - الأزهرية - المتخصصة، وتوظيفها في إصلاح الواقع الإسلامي، واستشراف مستقبل الأمة الإسلامية.. وما زلت حتى الآن أعمل على صدور هذه المجلة وتأسيس هذا المركز. أما وقف البحوث والدراسات، فقد سجل بصفة رسمية، في بنك فيصل الإسلامي المصري، وفيه ما يقارب مليونا واحدًا مصرية، مع أعيان أخرى ثمينة.

٣- والمشروع الثالث - في خيالات أو طموحات راكب الطائرة العائدة من إسلام آباد: كان يهدف إلى إحياء النشاط العلمي في مساجد القاهرة التاريخية، وذلك: بأن نقوم بشرح الكتب الأمهات في العلوم الإسلامية والعربية، حيث أُلفت وقُدمت لأول مرة، ومنها مثلًا:

(١) كتاب «الرسالة» في أصول الفقه للإمام أبى عبد اللَّه الشافعي، شرحه بنفسه - رضي اللَّه عنه - لأول مرة في جامع عمرو بن العاص - فيتولى متخصص شرحه فيه، أو في مسجده الذي به ضريحه، بحي الإمام بالقاهرة.

(٢) وكتاب «أبكار الأفكار في أصول الدين» الذي ألفه سيف الدين الآمدي؛ وقدمه لأول مرة بمسجد الظافري - المعروف الآن بالفكهاني بشارع الغورية، قرب الأزهر الشريف - وقد قمت بذلك فعلًا، خلال عام ٢٠١٣، لبضعة أشهر، ثم توقفت بناء على توجيه من مشيخة الأزهر

الشريف، بحصر الدروس حاليًا بمسجد الأزهر، على أمل تنفيذ المشروع ككلٍّ، عند توافر إمكاناته بإذن اللَّه، وعسى أن يكون قريبًا.

(٣) كتاب «فتح الباري بشرح الجامع الصحيح للإمام البخاري» لابن حجر العسقلاني، في مسجده قرب باب الفتوح بشمال القاهرة التاريخية.

(٤) كتاب «الحكم» لابن عطاء اللَّه السكندري بمسجده بمنطقة الإمام الشافعي في القرافة الكبري.

(٥) كتاب «تاج العروس - على القاموس» للزبيدي - بمنزله التاريخي الذي ما زال قائمًا بمنطقة الإمام الشافعي أيضا.

(٦) حاشية الأمير على شرح الجوهرة، بمسجده بقرافة المجاورين وراء الدراسة بالقاهرة، بشارع قايتباي، وقد وفقني اللَّه إلى شرحه، ولكن في مقر العشيرة المحمدية، غير بعيد من مسجده المذكور.

(٧) كتاب «تفسير الجلالين» للجلال السيوطي وزميله المحلى - بمسجد الإمام السيوطي بالمنيل.

وكذا مؤلفات كبار العلماء المصريين: كشيخ الإسلام الأنصاري، في مسجد الإمام الشافعي. والعلامة الدردير، والحافظين العراقي والعيني، وأمثالهم، في مساجدهم العامرة بالقاهرة.

عرضت فكرتي - بعد عودتي - على جماعة ثقافية يرعون منشأة مماثلة،للمرحوم الأستاذ محمد عبد الحليم أبو شقة بشارع القصر العيني، قرب دار الحكمة، فلم ألق تأييدًا إلا من الدكتور محمد العوا والمستشار طارق البشري، فاتجهت إلى تنفيذ ذلك بنفسي. ولجأت إلى

زميل سابق هو الدكتور محمود زقزوق - وكان عندئذ وزيرًا للأوقاف - مستعينًا بفضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب والدكتور علي جمعة، - كما أسلفت - وبعد بسط فكرتي، تقبل الرجل- والحق يقال - أن نبدأ عملنا في الأزهر الشريف، وكان الدكتور علي جمعة مسئولًا عن مسجد الأزهر حينذاك، وله فيه نشاط علمي محمود لإحياء «الحوزة العلمية» أو «الرواق الأزهري» في العلوم الشرعية: فشرعت في تدريس علم الكلام، بالرواق العباسي، بطريقة الأزهر التحليلية منذ عام ٢٠٠٤ حتى الآن دون انقطاع، عقدًا كاملًا من السنين بحمد اللَّه، وانتقلت من المتون الصغيرة إلى كتاب «المواقف» للإيجي وهو من أكبر وأدق النصوص الكلامية. ورأى فضيلة الإمام الأكبر الشيخ أحمد الطيب أن أضم إليه «كتاب اللمع» للإمام أبى الحسن الأشعري، وذلك في بداية عام ٢٠١٤ ومازلت بحمد اللَّه أشرح «المواقف» للإيجي صبيحة كل سبت حتى صلاة الظهر، وكتاب «اللمع» يوم الخميس من كل أسبوع في الوقت ذاته، وفي النية أن نقوم بتحقيق نص كتاب اللمع ونشره؛ لعدم نهوض النشرتين السابقتين بالخدمة اللائقة بهذا الكتاب.

وكنت، كما ذكرت آنفًا، قد شرعت في شرح «كتاب أبكار الأفكار في أصول الدين» للآمدي بمسجد الفاكهاني بالغورية، لكني توقفت عن ذلك منذ بداية العام الحالي لتنفيذ مقترح فضيلة الإمام الأكبر المشار إليه في الفقرة السابقة، مؤقتًا وباللَّه التوفيق.

وجاءت ثورة الخامس والعشرين من يناير ٢٠١١، وشغلت في

خضمها نوعًا ما، وتأخر مشروعا (المجلة: ومركز الدراسات) وهما جانبان متكاملان، وقد صح العزم على تنفيذه بعون اللَّه، في المكتبة التي تم نقلها - بحمد اللَّه إلى مسجد الأزهر الشريف كما سبق أن ذكرت. وهي تمارس وظيفتها منذ نحو ثلاثة أعوام، وأرجو من القارئ الكريم أن يدعو لي بالتوفيق عموما، وفي مشروع «المجلة / المركز» بوجه خاص.

ولْيتأكد قارئي - وفقه اللَّه -أن كلًّا منا يستطيع أن يقدم لمجتمعه شيئًا ذا قيمة، وعسى أن تنعم مصر بمناخ حر، يطلق مبادرات الأفراد لخدمة وطنهم وأحلامهم البناءة.. فهو وليّ ذلك والقادر عليه.



(٧٢) الدكتور سيد دسوقي - حفظه اللّه

عرفته في مطلع الخمسينيات شابًّا ما يزال عندئذ في مرحلة الدراسة الثانوية. يعتبر قاهريًّا؛ إذ ولد ونشأ فيما قد يُعدُّ من ضواحيها، في قرية «القلج»، المجاورة للمرج، التي تتبع إداريًّا مركز شبين القناطر بمحافظة القليوبية. وقد التحق بهندسة القاهرة، وكان الأول على زملائه. وصافح جمال عبد الناصر في عيد العلم فرشح لبعثة علمية، وتقرر سفره إلى الولايات المتحدة، للدراسة في هندسة الطيران. وبقي هناك بعد حصوله على الدكتوراه، يعمل في جامعاتها، حتى مرتبة الأستاذية، ولم يتوان في متابعة الشئون المصرية والعربية والإسلامية. . وكان في الوقت نفسه واعيًا بأن المصير هو العودة إلى الوطن. . وأن المستقبل لا ينبع إلا من داخل الوطن، أما الغرب - فبرغم جدوى الإقامة به - فهو لأمثاله «بطن الحوت» الذي ينجو منه المسبِّحون، فيخرجهم المولى - سبحانه - إلى شاطئ الأمان.

ثم لقيته حوالي منتصف السبعينيات، كأن لم يمض قرابة ربع قرن، بدار الرعاية الإسلامية في لندن، حيث كان ينزل معنا الشيخ الدكتور أحمد العسال قادمًا من السعودية، إذ كان يعمل بعد حصوله على الدكتوراه من كيمبردج في جامعة الرياض، وأحسب أنه كان قد قرر عندئذ الخروج من بطن الحوت، والعودة إلى مصر. . . حيث يقدم خبراته النظرية والعملية، لكليته الأثيرة، التي صار بها رئيسًا لقسم

الطيران بجامعة القاهرة.. وأذكر من كلماته في هذا اللقاء: إن الغرب ليس السياسة الاستعمارية فحسب، بل هناك الغرب الحضاري، والغرب العلمي وفيه مناهج وتجارب وإنجازات، والغرب الاجتماعي والإداري الذي استقرت فيه معايير ثابتة لحقوق الإنسان، وحقوق المواطن وواجباته.. وقد نَمَت الآن في هذا المناخ مجتمعات مسلمة، قد يكون لها دور مهم في المستقبل - بإذن اللّٰه.

وبعد استقراره بمصر كان بيته بالنسبة لعارفيه - أشبه ببيت العائلة؛ فكنا نلتقي في مناسبات عديدة، وغالبًا ما تكون - بجانب الطعام السخي - فكرة ما لمناقشة مسألة مصرية، أو ملاقاة شخصية زائرة، أو لمجرد التواصل الفكري.

جمعت كتابات الدكتور سيد، التي يفكر فيها اجتماعيا بمنطق علمي، أو علميًّا برؤية اجتماعية، وهو من القلائل الذين يمارسون التفكير بتوجه حضاري، ووعي مستقبلي.. وله نظرات قرآنية أوافقه على أكثرها، وأعتزم الحوار معه في بعضها، وإبداعاته المتوالية كمفكر في قضايانا المعاصرة والمستقبلية لم تلق بعد ما تستحقه من عناية وحوار، وهو ما أسأل اللّٰه أن يوفقني يوما للاسهام فيه، ويبعث غيري من عارفي فضله إلى النهوض به.

وللدكتور سيد نظراء يعملون في صمت، منهم تلاميذ له وزملاء في جامعات أخرى ومنهم الأستاذ الدكتور   الذي يشرف على وحدة البحث التقني المعتمد على الموارد المحلية المصرية كجريد النخل وغيره في جامعة عين شمس، فهل تنمو هذه الأبحاث وتتوسع وتسهم في تغيير الواقع المصري؟! بإذن اللّٰه.

(٧٣) الأستاذ طارق البشري - حفظه اللَّه

عقل قادر على التفكير القانوني بمعايير علم القانون، وقاض فاضل ورث الاهتمام بالفقه الإسلامي من أصوله العريقة، فهو حفيد الإمام الأكبر الشيخ سليم البشري شيخ الأزهر الشريف وشيخ السادة المالكية بمصر، عقودًا متوالية. ومفكر اجتماعي في تاريخ مصر الحديث والمعاصر. أنجز في هذا المجال أعمالا لا يستغنى عنها مؤرخ أو دارس للتاريخ المعاصر، وهو من القلة القليلة بين النخبة المصرية، التي تعرف بالحكمة، والإنصاف، والاعتدال. . وما تزال تلقى الثقه من دوائر واسعة ومتنوعة، برغم الاستقطاب الذي يسود الآن المناخ العام في مصر، ولا حول ولا قوة إلا باللَّه.

عرفته بفضل رجلين من معارفي القدماء: الدكتور أحمد حمدي والدكتور سيد دسوقي، وقد شاركت في تحيته يوم غادر عمله الرسمي نائبًا لرئيس مجلس الدولة، المؤسسة التي بقيت حتى في ظروف الجمود والاستهواء، إحدى قوائم الانضباط والإنصاف في المجتمع المصري.

تنبه مبكرًا إلى قضايا عديدة، فرضت نفسها على الحياة الفكرية والسياسية بعد ذلك، وهي من أكبر الهموم العامة الآن، ومنها: تحول الاختلاف والتنوع الفكري بين النخبة المصرية إلى عراك أو حرب، ورصد مفردات الحرب التي تشيع في المناخ الثقافي بين الفرقاء المتحاورين، وهذا الذي نبه إليه، منذ حوالي ربع قرن، يفرض نفسه

الآن استقطابًا كاملًا بين أوساط النخبة المصرية، هو من أبرز مظاهر أزمتنا الراهنة.

ومنها: قضية القضاء المصري بين الاستقلال والتبعية، فإن كل وثيقة دستورية تنص على الاستقلال، لكن ألاعيب السلطة التنفيذية ووسائلها في الاستهواء التي تفعل فعلها، ولو في قليل من جوانب أي جهاز تستهدفه، وقد أصبحت حاجة المجتمع المصري إلى استقلال القضاء استقلالًا تامًّا حقيقيًّا، ظاهرة ملحة الآن أكثر من أي وقت مضى.

ومنها العلاقة المواطنية واللحمة المجتمعية بين المسلمين وإخوانهم الأقباط، فالرجل في عنايته بكل ما يتهدد الجماعة الوطنية، عُني بتلك القضية عناية خاصة، وتواصل مع بعض النخب، على نحو متواصل، هذا إلى جانب العديد من القضايا الجارية التي تظهر كل فترة بين الحين والحين.

وهذه القضية الأخيرة تشغله، فكريًّا وعمليًّا، منذ عدة عقود، وللرجل، وعلاقاته بالإخوة الأقباط متينة، ومتابعته للعلاقة بين شركاء المواطنة المصرية متواصلة، عناية مستمرة بهذه القضية. وآخر ما قرأته له كان تأصيلًا شرعيًّا لفكرة المشاركة - أو «الشراكة» كما يقال الآن - بين أبناء البلد الواحد، على اختلاف الدين والجنس والعرق، وهي قضية تحتاجها الآن عدة مجتمعات إسلامية، في الزلزال الخطير الذي يعصف بمنطقة الشرق العربي.

وللأستاذ ذرية صالحة منهم مفكر قانوني، درس بمصر والخارج، يجري، مجرى والده قاضيًا فاضلًا، بلغ مرتبة المستشار، والروح الوطنية

تملأ قلبه وقلب شقيقه المهندس فيما أظن. وفضل اللّٰه تعالى على أفراد هذه الأسرة ليس في الأصول العربية العريقة فحسب، بل هو في الجيل الراهن وهذا نموذج طيب لمجتمعنا المصري، على المستوى الأسَرِيّ، فالأب قاض ومفكر ومؤرخ، وفوق ذلك كله وطني جاد وزاهد، والأم مشتغلة كذلك بالفكر والثقافة، وكانت في عهد قريب محررة بجريدة الأهرام . . فأسبغ اللهم المزيد من البركة على أهل هذا البيت، وانفع «المحروسة» ببركاتهم يا رب العالمين، إنك سمع مجيب.

هذا وقد شاءت الأقدرار أن تزداد صلتي بهذا البيت المصري المبارك، عندما اكتشفت جملة صالحة من فتاوى الإمام الأكبر الشيخ سليم البشري شيخ الجامع الأزهر، وشيخ السادة المالكية، أجاب فيها عن استفتاءات من مصر وإفريقيا، تطلب الإجابة على أصول المذهب المالكي ويجري الآن - بحمد اللّٰه - إعدادها للنشر، وعسى أن تكون بين أيدي القراء في يوم قريب، بإذن اللّٰه.



(٧٤) المكتب الفني لمشيخة الأزهر

سعدت بمعرفة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب منذ عهد بعيد، بحكم وحدة التخصص، والقسم الذي تخرجنا فيه بكلية أصول الدين، قسم العقيدة والفلسفة. وعرفت شيئًا عن مكانة والده العلمية والصوفية، أول ما عرفت من الأثري القبطي مكتشف «مراكب الشمس» ومنشئ الباب الختامي لجريدة الأهرام، «من غير عنوان»، حين ذكر قصة أحد الملاك من إخواننا الأقباط لقطعة أرض في القرنة، قرية الشيخ أحمد الطيب، في محافظة الأقصر، على مشارف «وادي الملوك» غربي مدينة الأقصر، ولجأ إلى القضاء ليسترد الأرض من غاصبيها، ولم يتمكن من الحصول على حقه الذي قضى له به في غير جدوى. فنصح باللجوء إلى الشيخ محمد الطيب والد فضيلة الإمام الأكبر، فما كان منه إلا أن استدعى الطرف الآخر إلى مجلسه، وطلب إليه أن يرُدّ الحق إلى أهله. . فلم يسعه إلا الاستجابة لنصح الشيخ ووساطته، وحُلّت المسألة المزمنة في أقلَّ من ساعة.

منذ ذلك الحين وأنا أحب ذلك الرجل، وقد حاولت زيارته، والتبرك بمرآه ومصافحته، وجلست يوم جمعة بالساحة تحت البيت القديم، قبل الانتقال إلى الموضع الجديد. . ولكن ظروف الاستعداد للصلاة شغلت الشيخ، وكان معي الدكتور محمد أفضل وزير التربية بدولة باكستان عام ١٩٨٧، ولم يتسع وقته للانتظار طويلًا. فانصرفنا. . . ومنذ ذلك الحين وأنا أشعر أن لي انتسابًا. . ويقول الدكتور أحمد الطيب: إنه ما إن يدخل

ضريح والده إلا ويذكر العبد الفقير، سواء أوصيته بالفاتحة أو لم أفعل. . .

وقد تابعت الأعمال العلمية المثمرة للدكتور أحمد عن «الاتجاه النقدي لدى أبي البركات البغدادي»، وترجمته الرائعة عن الفرنسية للدراسة الخاصة «بالولاية عند الشيخ محيي الدين بن عربي». وكذا جهوده في خدمة الأزهر، والجامعة القطرية، مما شجعني حين توليت مسئولية الجامعة الإسلامية بإسلام آباد، على أن أرجوه أن تفيد الجامعة الإسلامية بإسلام آباد من خبرته. وحظينا به عامًا واحدًا، عميدًا لكلية أصول الدين، ومشرفًا على العديد من الرسائل العلمية. . وازداد أملي عندئذ فرشحته لتولي مسئولية هذه الجامعة، وقد أوشكت على إتمام فترتي، وقدمته للسفير المصري الدكتور محمود السعيد؛ ولكن ما إن عاد الدكتور أحمد إلى مصر، بعد عام واحد في إسلام آباد، حتى عيِّن مفتيًا للديار المصرية.

ومن عجب أن الدكتور علي جمعة زارنا في العام التالي، وبدا لي أن خبراته الإدارية، وإلمامه بالإنجليزية، قد يجعل منه بديلًا للدكتور أحمد، وقدّمته أيضًا إلى السفير المصري، لنتعاون لدى السلطات الباكستانية ولدى مصر على ترشيحه لتلك المهمة، فيعود الدكتور علي من رحلته، ليعين مفتيًا مكان الدكتور أحمد الطيب، الذي اختير رئيسًا لجامعة الأزهر. فكان الناس يتندرون في إسلام آباد: ألَا ترشحوني. . حتى أصير مفتيًا للديار المصرية.

كنت قريب الصلة بالدكتور أحمد في تلك المراحل المتعاقبة التي توجت باختياره شيخًا للأزهر. . . وقد رأى - برغم تقدم سني ومشاغلي

التعليمية والمجمعية - أن أشارك في خدمة الأزهر.. مسئولًا عما يعرف في «الإدارة المصرية» بالمكتب الفني: يضم مستشارًا للشئون المالية هو الدكتور ممتاز السعيد الذي كان يعمل متطوعًا، ولم يلبث أن اختير وزيرًا للمالية بعد سقوط نظام مبارك، ومستشارين كرام، من كبار الأساتذة، للشئون التعليمية، وللجودة الإدارية، وللشكاوى، والاستشارات القانونية، وللعلاقات الخارجية، وللعلاقات بين المواطنين المسلمين والمسيحيين في مصر الحوار الديني، ثم لشئون الدعوة الإسلامية، وهم الفريق الفني من الخبراء الذي يدرسون الأمور قبل عرضها على فضيلة الإمام الأكبر، وقد يتابعون تنفيذها أحيانًا.

وقد قبلت العمل متطوعًا، وشاركت في إعداد مناهج المعاهد النموذجية، التي قصد بها الإمام الأكبر دعم الإعداد الأزهري التقليدي لطلاب الكليات الشرعية والعربية، وهم بعد فيما دون الرحلة الجامعية الأولى.. وأعددنا مشاريع في مجال الدعوة.. وتابعنا مشروع المعاهد النموذجية، بإعداد تقريرين وافيين عن مسار العمل.. وشاركت في الإعداد لتكوين هيئة كبار العلماء.. وفي تمثيل الأزهر في بعض المؤسسات الوطنية؛ كالجمعية التأسيسية لإعداد دستور٢٠١٢، ثم في مجلس الشورى. وقد حاولت في كل هذه الأنشطة - مع زملائي الكرام - أن نحتذي واجب دور العالِم المسلم الذي لا يهمه إلا المصلحة العامة، والاستقلال وعدم الانحياز، وفي ذهننا دور الشيخ محمد نجيب المطيعي في إعداد دستور ١٩٢٣م. وكان أبرز الجهود لهذا المكتب الفني ورجاله

الإسهام في إعداد الوثائق الوطنية الأربع، التي أصدرها الأزهر، في سياق ثورة الخامس والعشرين من يناير، بتوافق من سائر التيارات والقوى الوطنية، بما في ذلك الإخوة الأقباط. وهي تُعَدُّ من أهم نصوص الفكر الثوري في مصر، من منظور إسلامي.

إلى أن زادت أعبائي بوفاة سعادة الدكتور محمود حافظ الذي كان رئيسًا لمجمع اللغة العربية، وللمجمع العلمي المصري، في الوقت نفسه.. ورأى إخواني بالمجمع أن يختاروني بعده مسئولًا عن مجمع اللغة العربية... وحَدَث في الأوضاع المصرية أحداث أبديت رأيي فيها، وفي الأسلوب الذي جرت به، على نحو ربما لا يتناسب مع ما اختارته مشيخة الأزهر. فوجدت من الأنسب أن أتوقف عن هذا العمل الطوعي الرسمي، مع استعدادي، بل قيامي فعلًا، بخدمة الأزهر في كل ما يتيسر القيام به.

وأجد من واجبي أن أذكر بالشكر والتقدير في هذا المقام، فضيلة الإمام الأكبر الذي ضرب المثل فعلًا وقولًا على أن اختلاف الرأي لا يفسد للود قضية. كما أشكر الرجل الجليل الدكتور ممتاز السعيد، والدكتور جلال قريطم، وفضيلة الشيخ محمد زكى أبا القاسم، والقاضي المستشار محمد عبد السلام على نشاطه الدائب في خدمة الأزهر والمشيخة، وإنصاف ذوي الحاجات. والأستاذ محمد السليماني الذي يهب الأزهر ليله ونهاره، والدكتور محمد جميعة على نشاطه المشكور، والرجل الكريم الدكتور صلاح صادق على ما قدَّمه للأزهر في تطوير المناهج، وعلماءَ القرآن الكريم وخاصة الشيخ حسن عبد النبي، والأستاذ الشيخ جعفر

عبد اللَّه رئيس قطاع المعاهد السابق، وجمع كريم، لإسهامهم القيم في تطوير معاهد القراءات، والأستاذ الدكتور محمد مهنا على جهوده الدائبة وخاصة خدماته للنشاط العلمي بمسجد الأزهر الشريف - حفظه اللَّه - ووكيل الأزهر الجديد فضيلة الدكتور عباس شومان، الذي يرعى الآن هذه الأنشطة كلها بهمته العالية.

ولا أنسى فريق الشباب من الباحثين الذين كان لهم جهد دائب مشكور، في إنجاز ما تم في هذه الفترة من أعمال ومواقف وحوارات وزيارات ووثائق وإصدارات، وضعت الأزهر الشريف في قلب السياق الوطني والإسلامي، وقدمت نصوصًا خمسة صارت وثائق وطنية إسلامية، تُعَدّ أبرز أدبيات العهد الثوري الجديد بمصر، بعد سقوط نظام الجمود والتخلف والخضوع للقوى الدولية، واللَّه غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

فأذكر بالمودة والتقدير الأستاذ السعيد خطاب، والأستاذ أحمد الخضري والأستاذ أحمد متولى والأستاذ السيد عبد المجيد، والأستاذ سامى فؤاد والأستاذ علي شمس الدين جزاهم اللَّه - تعالى - كل خير عما قدموا، ويقدمون، لمؤسستنا العلمية والوطنية الكبرى، ومناط المرجعية الدينية في العالم الإسلامي كله.

وقد يلاحظ القارئ أنني أوردت أسماء شباب الباحثين مع السادة الخبراء المستشارين. . وهم من كبار المسئولين والأساتذة الجامعيين؛ لاعتقادي أن الأزهر الشريف يصبح على قدم المساواة - مؤسسيًّا وحِرْفيًّا ،

مع نظائره من الكيانات العالمية، بتربية كوادر يحسن اختيارها وتدريبها، وإشرابها تقاليده وآدابه - وهذا هو الأهم - من أمثال هؤلاء الشباب، الذين هم الآن أمانة في يد السادة المستشارين، يدعمونهم بأمثالهم عامًا، بعد عام إن شاء اللَّه، ويطلقون ملكاتهم في العمل النافع - بإذن اللَّه.

لقد شارك هؤلاء الشباب، بوقتهم وفكرهم وجهدهم، في كل ما صدر عن الأزهر من نصوص وطنية وشرعية، في الأعوام الثلاثة المنقضية، وفي الإعداد لإقامة المؤسسات الجديدة كهيئة كبار العلماء.. وما أحراهم أن ينهضوا بأعمال كبيرة أخرى، وقد أحلت إليهم أخيرًا - رغم تقاعدي - ما اقترحه بعض المفكرين كالأستاذ نبيل عبد الفتاح من أعمال وطموحات، والحمد للَّه الذي بنعمته تتم الصالحات.



(٧٥) وفي تجربة التعليم - مرة أخرى -

عندما قرن شوقي- رحمه اللَّه - المعلم بالنبي، في بيته المشهور من مطلع قصيدته الذائعة:

قُمْ لِلمُعَلِّمِ وَفِّهِ التَّبْجِيلَا كادَ المُعَلِّمُ أنْ يَكُونَ رَسُولا

لم يكن مبالغًا أو مجاوزًا للحد؛ فإن النبي نفسه -صلى اللَّه عليه وسلم- يقول: «إنما بُعِثْتُ مُعَلِّمًا».

وقد خارَ اللَّهُ لى أن تكون مهنتي التعليم، وكان أبي -رحمه اللَّه- معلِّمًا، وكذلك خمسة من إخوتي- رحمهم اللَّه جميعًا- قدَّر اللَّه لهم الاشتغال بالتعليم.

ولستُ أدَّعِي التواضع، إذا قلتُ فيما سبق : إنني - وقد بلغت حين كتابة هذه الصفحات بداية الخامسة والثمانين من العمر - غيرُ راضٍ عن نفسي معلِّمًا .

نعم إنني وجدت شواهد مرضية لي، بل ممتعة، في مراحل عملي بالتعليم الجامعي، مدة تزيد على نصف قرن، أشرت إليها فيما سبق - في مصر وخارجها - منها:

- القدرة على التواصل النفسي والروحي مع طلابي الشباب، لمست ذلك فيهم وأنا بعيد، وأحسستُ يوم كنت رئيسًا للجامعة، أنه لابد لى أن أقوم بالتدريس - في الوقت نفسه - لأستبقي صلتي بالمهنة،

وصلاتي بالعديد من طلابي في العديد من البلاد، الذين هم أعظم أرصدتي المعنوية، ومصادر اعتزازي المهني - بحمد اللَّه.

- ومنها أنني أشفق عادة على طلابي، وأسعى لتخفيف أعبائهم، وأقدم لهم أحيانًا جهودًا إضافية، ومطبوعات مساعدة مجانية، لتعينهم على استيعاب المادة العلمية التي أشرحها لهم.

ومنها أنني لا أُبغِّضُهم- إن لم أنجح في كسب محبتهم - في المادة التي تخصصت فيها واحترفت تقديمها للطلاب، ورعاية الباحثين في إطارها، وإعدادهم لتلك المهمة الدقيقة، مهمة البحث العلمي في إطارها.

لكنني لست على يقين من أنني مفهوم تمامًا لطلابي، وأنني أقدم لهم المعلومات بالطريقة المثلى في نظرهم هم، وأنني أتصرف في قاعة الدرس كمعلم وليس كمحاضر، وأن لديَّ مهارات الشرح والتمثيل، وفهم أسئلة الطلاب، وحسن الإجابة عنها، واستخدام الإمكانات التقليدية كالسبورة ونحوها.. دع عنك التقنيات الحديثة والأحدث التي تظهر في نطاق التعليم.. فهذه ليس لي بها عهد أو قدرة على الاستعمال.

والأمر الذي أنا على يقين منه أنني لست على المستوى الأمثل أو أقرب ما أكون إليه، أعني المستوى النموذجي الذي عهدته في بعض شيوخي، وأساتذتي في مصر والخارج، وقد ذكرت - في سياقات أخرى - نماذج منهم: كالأستاذ علي النجدي ناصف الأستاذ النموذجي حقًّا، لعلم النحو بكلية دار العلوم: لا من حيث الاستيعاب النظري للمادة وأعماقها

فحسب، بل في أساليب التقديم النموذجي في الشرح والبيان. وكالأستاذة لاميتون، بكلية الدراسات الشرعية والأفريقية بجامعة لندن والأستاذة مارى مديرة مدرسة اللغات الإنجليزية للوافدين بلندن.

وقد استمعت إلى بعض المحاضرين، فراعني أنه لا يتحكم في المحاضرة فحسب، حتى لكأنه آلة مبرمجة، بل يتحكم في حيوية وبراعة وتلطف - بدقة التقسيم للفكرة، وعرض الأمثلة، والتخفيف من جدية الشرح بالفكاهة - في ألباب مستمعيه شرقيين كانوا أو غربيين، يعينه على ذلك ثقافة واسعة، ومهارة مِهنية، ولغات عديدة.. والمثل الأبرز لذلك في تجربتي: هي الدكتورة الألمانية «أنا ماري شميل»، التي استطاعت - سواء أسلمت أم لم تسلم، فذلك شأن بينها الآن وبين باريها - أن تكسب للإسلام والثقافة الإسلامية أرضًا واسعة، ومجالًا خصبًا، في ألمانيا وأوربا بوجه عام، يشاركها في ذلك مراطنها الذي كان سكرتيرًا لحلف «الناتو»، ولم يحل ذلك المركز المرموقُ بينه وبين إعلان إسلامه، والدعوة إليه، وهو الدكتور «مرادهوفمان» - حفظه اللَّه.

إن التعليم هو نافذة المستقبل لنا جميعًا، على المستوى الوطني، والإقليمي، والعالمي. وإذا كانت مهمة المعلم فيما دون التعليم الجامعي: هي إعداد الطلاب وتمرينهم على كسب المعرفة واستشارة مصادرها المختلفة بأنفسهم وتبسيط حقائقها لهم، على نحو يعينهم على المضي إلى ما هو أعمق وأعقد، وتحبيبها إليهم، واكتشاف الموهوبين منهم، ومتابعة بعضهم على الأقل في مراحله اللاحقة.. وهي كما ترى

مهام ثقال، ربما كانت أخطر وأحوج إلى الموهبة والإخلاص، من حاجة العاملين في المستويات اللاحقة. إذا كان الأمر كذلك فإن مهمة أستاذ الجامعة: هي المشاركة في تطوير المعرفة، وتقديم المستقر منها إلى الطلاب، بجانب دفعهم إلى التعود على استكشاف مناطق جديدة لها وبناء الباحثين الجدد الذين يخلفونه في مهمته، وربما شاركوا في قيادة العلم، في مجالاته الإنسانية والروحية والتجريبية على مستوى العالم.

ربما يبدو للقارئ أني أسرفت - في تطلعاتي للتكمل وبيان التقدم المهني - في تصور «رسالة المعلم» في مراحل التعليم المختلفة، وبيان الواجبات الثقال المنوطة به، ولكن هذا ليس مجرد تصور ؛ بل هو الواقع في البلاد المتقدمة، والتي انطلقت تسعى في طريق التقدم.

من الحق - في الوقت نفسه - أن نقرر أنه بالرغم من تسليم الكافة بخطورة هذه المهام، وصعوبتها، واحتياجها- كي تؤدَّى على النحو المرغوب فيه - إلى مواهب خاصة، فإن المعلمين من أكثر الطوائف أو المهن المظلومة في عالمنا المعاصر، اللهم إلا في بعض البلاد كالولايات المتحدة والهند واليابان فيما قرأت، وقد كان هذا المنصب في تراث الحضارة الإسلامية يعد - من الناحية الاجتماعية - مكافئًا لمنصب الأمراء والقادة في الدولة. وفي مصر الآن نجد نقابة المعلمين - وهي من أقدم النقابات، وأكبرها حجمًا على الإطلاق - في ذيل النقابات، ولا يجد المعلم رعاية صحية أو إنسانية كافية، وهو في السُلّم الاجتماعي هابط، ولا يحظى بالتبجيل ولا التكريم، الذي توقعه شوقي

بك في جيله. وأستاذ الجامعة الذي يخرج القضاة - وغيرهم من قادة التنمية الاجتماعية والاقتصادية - لا يتقاضى نصف راتب القاضي؛ الأمر الذي دعا أوائل الخريجين الآن إلى العزوف عن العمل الجامعي.

بالنسبة لي فقد حظيتُ في حياتي العملية بأكثر مما كنت أتوقع، وربما بأكثر مما أستحق، ولكني حرصت على أن أقدم شكري العملي، وتحدثي بنعمة اللَّه عليَّ بإنشاء مدرسة في قريتي لجميع المراحل دون الجامعية، وللبنين والبنات.

كما حرصت على إنشاء وقف خيري دائم لدعم البحث العلمي، التراثي والمستقبلي، في العلوم الشرعية الإسلامية وفي علوم اللغة العربية، والتبرع بمكتبتي ومجموعتى الخاصة التي جمعتها على مدى سبعين عامًا؛ لتكون مكتبة عامة للباحثين المترددين على مسجد الأزهر الشريف، بالمدرسة الأقبغاوية .. وعسى أن يتقبل اللَّه - عز وجل - هذه الأعمال، ويبارك عليها، ويكتب لها التوفيق فيما أقيمت لأجله من خدمة العلم والدين، والحمد للَّه رب العالمين.



(٧٦) أولئك أبنائي ...

لم أرزق أولادًا، والحمد للّٰه على ما أعطى وأولى .. ولم أشعر بالفقد كما لاحظت على بعض من هم في مثل حالي.. دعك من الطرف المقابل الذي يمثله «رهين المحبسين» في قوله عن «زينة الحياة»: هذا جناه أبى عليَّ وما جنيت على أحد.

وربما كان ذلك راجعًا إلى وثاقة العلاقة، وعمق الصلة الروحية والفكرية، كما وصفت في تجربة التعليم بيني وبين طلبتي، وهم منبثون في أرجاء العالم، وقاراته المتعددة، حتى إني كنت أفخر أحيانا، وأتمثل قول الفرزدق في مناظراته مع جرير والأخطل، التي يقول عنها شيخنا مؤرخ الأدب العربي - في مختلف مواطنه وعصوره -: إنها كانت أشبه بمباريات الكرة في أيامنا هذه؛ تجذب جمهورها، وتصنع نجومها.. وقد يستغلها الساسة على نحو من الأنحاء، كما هو الحال مع كرة القدم الآن، وأقصد بما سبق بيت الفرزدق مع تغيير لكلمة واحدة فيه هي آبائي أضع مكانها «أبنائي»

أولئك آبائي فجئني بمِثْلِهِم   إذا جَمَعَتْنا يا جريرُ المجامِعُ

من حكايات أسلافنا، أنهم سألوا فاطمة بنت الخُرْشُبِّ، عن أولادها: أيهم أحب إليك؟ فأجابت: «هم - واللّٰه - كالحلقة المفرغة لا يدري أين طرفاها، ولكن: صغيرُهم حتى يكبر، ومريضهم حتى يبرأ، وغائبهم حتى يحضر»: وإني - واللّٰه - لأحار في ترتيب أبنائي هؤلاء..

ولكن لاعتبارات معينة ترجع إلى الأبوة الفكرية والتربوية، أعني وثاقة العلاقة العلمية، وقوة الصلة الفكرية والروحية - كما أشرت آنفًا - يحتل بعضهم مكانًا من القلب، ومساحة من الوعي، تتقدم به على غيره.. وللصوفية في تصنيف الأستاذين والمشايخ نظر دقيق؛ إذ يفرقون بين شيخ التعليم، وشيخ التربية، وشيخ الكشف والتوصيل، ولكل منهم رسالة لا يستغنى عنها السالك في طريق القوم... وكل ميسر لما خلق له.. ومع صلتي «المهنية» بالطريق الصوفي، فإني لا أخدع نفسي وأزعم أني أحد هؤلاء.. ولكني أحسب أني أقرب ما أكون إلى الأول «شيخ التعليم».

وإذا كان لابد من الترتيب - على أي اعتبار كان من الجانبين؛ فسأقول - دون تردد -: أما على المستوى الفردي «فالسيد مصعب الخير إدريس»، الذي درس معي الفكر الصوفي في «الماجستير»، والفكر الإثنا عشري في قرونه الخمسة الأولى على مستوى «الدكتوراه»، وهو الآن أستاذ مساعد بقسم العقيدة بجامعة قطر. ولعلي أذكر هنا - وقد خصصته من قبل - بإحدى حكاياتي: إن الأستاذ الدكتور عبد الدايم مستشار شيخ الأزهر للشئون التعليمية، حضر عام ٢٠١٢م مؤتمرًا في ماليزيا، وبادرني - بعد عودته - بأن أحد الأساتذة المصريين بجامعة قطر، شارك ببحث لفت الأنظار، وقد تعرفت إليه فعلمت أنه تلميذك؛ فنعم التلميذ هو.

وأما على المستوى الجامعي: فلعلي أشرت من قبل إلى أول مجموعة درست لها، عقب تعييني معيدًا بقسم الفلسفة الإسلامية بدار العلوم عام ٦٣/ ١٩٦٤م، منذ خمسين عامًا الآن بالتمام والكمال،

وتابعت كثيرًا منهم بعد ذلك في حياته العلمية والعملية، ومن بينهم: الدكتور (الآن) عبد الرحمن سالم الأستاذ بدار العلوم والجامعة الأمريكية، والدكتور محمد حماسة عبد اللطيف الأستاذ بدار العلوم ونائب رئيس مجمع اللغة العربية، والدكتور حامد طاهر الأستاذ بدار العلوم ونائب رئيس جامعة القاهرة سابقًا، والدكتور أحمد درويش الأستاذ بدار العلوم والناقد المعروف، والدكتور محمد السيد الجليند رئيس قسم الفلسفة الأسبق بدار العلوم، والدكتور رمضان الحسنين جمعة أستاذ ورئيس قسم الشريعة بدار العلوم الفيوم، وزملاؤهم الآخرون الذين يعملون في جامعات عديدة، ومواقع أخرى خارج مصر وداخلها، لئن ضاقت بهم السطور فلا تضيق بهم الصدور.

وقد تلا هؤلاء - على المستوى الجامعي أيضًا- مجموعات منهم: الأستاذ الدكتور أبو اليزيد العجمي، والدكتور سيد الحجر، والدكتور أحمد كشك، بدار العلوم جامعة القاهرة. والدكتور النادي، والدكتور الحريري بجامعة المنصورة، وقد عمل منهم بدار العلوم والجامعات المصرية - بالتعليم والإدارة الجامعية - نحو خمسة عشر أستاذًا. ولست أزعم لنفسي فضلًا في ذلك، ولكنها المقادير.

وقد اقتضت الصحبة التعليمية ذكر هاتين المجموعتين المتميزين والفخرَ بهم، وإن كانت الدفعات المتخرجة من «الدار» خلال نصف قرن - عدا السنوات التي عملت بها في باكستان - وهي خمسة عشر عامًا - تضم أبناء أعزة كرامًا، سواء عملوا في الجامعات أو التعليم العام، أو في غير ذلك من مواقع الخدمة الوطنية - رعاهم اللّٰه وتقبل منهم جهودهم.

وأود ألا يفوتني في معرض «الفئات الجمعية» من الخرجين أن أنوه بدفعة الدكتور مصعب الخير إدريس في أوائل التسعينيات - على حين كانت الأولى أواخر الستينيات، والثانية أوائل السبعينيات - فقد ضمت مجموعة من أعز أصحابي وأقربهم إلى نفسي؛ ومن بينهم الدكتور صلاح عبد اللَّه، الرجل الموهوب الذي علم نفسه الإنجليزية، وأقام فترة بالولايات المتحدة، وله - بجانب التخصص الدقيق في الفلسفة الإسلامية إبداعات أدبية متنوعة، ولا أشك أنه سيأتي اليوم الذي يحتل فيه موقعه المناسب في حياتنا الفكرية والثقافية، إذا ما تابع الدرس والإبداع. وزميله الدكتور محمد ناشي الأستاذ بالجامعة الإسلامية بإسلام آباد، وزميلهما الذي درس معي بعضًا من إشكالات «علم المنطق» على مستوى كل من الماجستير والدكتوراه، الدكتور نبيل الفولي - يرعاه اللَّه، والدكتور مدثر علي.

أما على الصعيد الفردي فربما يُعذر شيخ مثلي، على مشارف الخامسة والثمانين، إذا لم تسعفه الذاكرة برفقاء نصف قرن، وليس عدم ورود الذكر في هذه السطور إلا لذلك، خصوصًا إذا كانوا - مع امتداد المدة - ينتشرون على مدى مكاني واسع؛ فلا تكاد تخلو - بحمد اللَّه - قارة عن القارات الخمس من واحد منهم، ينشر العلم الشرعي، أو يمارسُ البحث في الفكر الإسلامي، أو يقدم الخدمة للمجتمعات الإسلامية، المنبثة في أقطار الأرض كلها هذه الأيام.

١- ومنهم - حفظهم اللَّه وأيدهم بروح منه أينما حلوا من بلاد اللَّه - طائفة غير قليلة من شباب الصين، كانوا يتقاطرون إلينا في إسلام آباد،

عامًا بعد عام، ويعمل عدة منهم الآن بالجامعات الصينية، وبخاصة في المناطق الغربية: ومنهم الدكتور أيوب- وكل أبناء الصين من المسلمين يتخذون عادة اسمًا إسلاميًا، من أسماء الأنبياء غالبًا، بجانب اسمه القومي في اللغة الصينية - والدكتور زهرة الدين - وكلاهما درس معي، وحصل على الدكتوراه من إسلام آباد - غير أن زهرة الدين تتلمذ روحيا لصديقي الشيخ محمد كرم شاه عضو المحكمة العليا بباكستان، الذي تخرج من كلية الشريعة بالأزهر، وأنشأ سلسلة من المدارس على امتداد باكستان وأوربا، ومازال يرسل تلاميذه للأزهر - وخلفاؤه من بعده - كل عام. وقد انتقل إلى جوار ربه في التسعينيات، وأخبرني الدكتور زهرة الدين أنه رآه في المنام، وقد خرجت كرة من النور من فمه لتدخل في فمي، فسألته عن تأويله لهذه الرؤيا، فقال: أعتقد أنك ستقوم مثله بتفسير القرآن الكريم. . ! فهل تتحقق هذه البشرى. . اللهم عونك وتوفيقك.

وقد رأيت في زياراتي للصين بعضًا من خريجينا يعملون في بعض الجامعات، أو يفتتحون مراكز للبحث والدراسة في العلوم الإسلامية واللغة العربية، وقد أذكر في هذه الفقرة أيضًا شابًّا متميزًا من استراليا، تفوق في كلية اللغة العربية بإسلام آباد على زملائه العرب، وقد علمنا أنه مهاجر من المملكة المتحدة، وأنه حفيد العبقري الأيرلندي برنارد شو، فكان ذلك تفسير التشابه القريب جدًّا من قسمات جده العظيم. . ولا يفوتني أن أنوه بمزيد الدعم - الذي قدمه الأزهر أخيرًا - للشباب الصيني المسلم في جامعة الأزهر، والتفتح على دراسة الحضارة الصينية والفكر الصيني

بجامعاتنا المختلفة في مصر، وهذا التفتح بعض استحقاقات المستقبل.

٢- أشرت في حكاية الزيارات إلى أني حظيت بزيارة جاكرتا، ولكن ذلك كان قبيل رحيلي إلى باكستان، وقد وفد منهم الكثيرون إلى إسلام آباد، وسعدت بالتدريس لبعضهم هناك، وهنا في مسجد الأزهر في الدروس الحرة. والجامعتان الإسلاميتان في إسلام آباد وكوالا لامبور توأمان، أنشئا بقرار قمة إسلامية واحد، غير أن إسلام آباد تفوقت - بفضل البعثة المصرية - في اللغة العربية والشريعة وأصول الدين. أما رصيفتها فتفوقت في العناية بالإنجليزية، وبمقارنة الأديان، وبمنهج يتراوح بين المشرب الأزهري ورؤى تعليمية أخرى. وعلى كل حال فقد استمر التعاون بيننا وبينهم، وذهب إليهم بعض خريجينا لتدريس العربية والشريعة، في عهدها الأول مع الدكتور محمد عبد الرءوف، الأزهري الذي جيء به من واشنطن، حيث كان يترأس المركز الإسلامي بها. وكذلك في عهد خليفته الماليزي الحصيف الذي أعتبره الباني الحقيقي لهذه الجامعة.

وحين تولى الدكتور عبد الحميد أبو سليمان أمرها استعان بالدكتور «أنيس أحمد» فلم نضن به، وقد أفادت الجامعة هناك من الدعم الحكومي الكامل نظرًا للنهضة الاقتصادية بماليزيا. وأذكر أنني في إحدى زياراتي لها شاهدت طائرة في الحرم الجامعي، فقيل لي: إنها لأحد الطلاب يأتي بها من ولايته ثم يعود بعد انتهاء دروسه.. وقد تولى مسئوليتها بعد ذلك أستاذ من مسلمي غانا متخصص في أصول الفقه ويحسن العربية والإنجليزية.. ويمكن بالتعاون بين هاتين الجامعتين،

وبين المؤسسات التربوية في إندونيسيا، النهوض بمسلمي شرق وجنوب آسيا مع الدعم المصري والنهج الأزهري.

٣- هذا، وقد كنا نستقبل في إسلام آباد بعض أبناء الجمهوريات الإسلامية في وسط آسيا، تلك البلاد التي ترسخت فيها اللغة العربية والثقافة الإسلامية يومًا ما، وكانت وسيلة تفاهم يومي، إلى جانب لهجات تركية محلية، في تركستان وكازاخستان وأوزبكستان، وقرغيزستان وما حولها، وقد عزل الاتحاد السوفيتي السابق أجيالها الجديدة تمامًا عن كل ما يتصل بالثقافة الإسلامية واللغة العربية، لولا المقاومة الثقافية البطولية لبعض أبناء هذه البلاد.. وكنا نجتهد في الحصول لهم على منح دراسية أو مكافآت من العالم العربي، والأزهر أقدر على رعاية أبناء هذه البلاد العريقة المتعطشة إلى ثقافتها الأصلية، والتي تعاني غزوًا ثقافيًّا أمريكيًّا وإسرائيليًّا للأسف الشديد، وقد أضاع العالم فرصة تاريخية لاستعادة الانتشار للغتنا المشتركة، بعد الاستقلال وسقوط الاتحاد السوفيتي.

وربما كانت أفغانستان أقرب هذه البلاد المركزية إلى إسلام آباد، وأكثرها إفادة من جامعتها، وقد زارني في إسلام آباد أحد تلاميذي، من خريجي معهد الاقتصاد الإسلامي، وقال لي: تستطيع أن تقول إن جميع العاملين، في البنك المركزي الأفغاني، هم من خرجي الجامعة الإسلامية بإسلام آباد.. وأعتقد أن هذه الجامعة وفرت محضنًا فكريًّا جيدًا وآمنًا للشباب الأفغاني، بديلًا من المدارس الدينية التقليدية المحدودة الرؤية، والمتشددة التوجه.

واليوم نجد بعض المناهج المقترحة من خبراء البنك الدولي، ومن جهات استعمارية أخرى للمدارس الدينية هناك؛ لاستلاب الوعي الأفغاني ولكن يسعدنا أن قدم الأزهر، منذ بضع سنين، أساتذة موفدين للعمل في المؤسسات الأفغانية في كابل وما حولها، على نحو ما تقدم به من دعم سخي لجامعة إسلام آباد.

٤- وسافر أيضًا للعمل في منطقة القرم، حيث الجمهوريات التي استقلّت أو تكاد مثل جورجيا وأبخازيا، وهي مناطق كانت وثيقة الصلة بالبلقان وتركيا، وللتصوف بها قدم راسخ، سافر إليها أحد تلاميذنا النجباء في دار العلوم، وهو الأستاذ طه يوسف، واستقر هناك وتزوج وأنجب، ويعمل في مجال الدعوة والتعليم مع بعض خريجي إسلام آباد، ولكن بعض عناصر الفكر المتشدد، من «أدعياء السلفية» كانوا قد سبقوا إلى هناك وأساءوا أكثر مما أفادوا، مثل زملاء لهم مارسوا الدور نفسه في الجمهوريات المركزية، وسمَّموا الجو أمام العاملين في مجال الدعوة بتلك المناطق للأسف الشديد. وللدكتور حسين حامد حسان، والدكتور محمود فهمي حجازي خبرة كبيرة بذلك، ومساعٍ طيبة بشأنه.

٥- أما تركيا وما حولها من البلقان والجوار الأوروبي، مثل ألبانيا ومقدونيا، ويوغوسلافيا، والصرب، والبوسنة والهرسك.. فقد وفد منها شباب نابغون، درسوا في إسلام آباد، وأعانهم بعض سفرائهم من خريجي الأزهر، وإن كان أكثر رجال الدبلوماسية التقليديون لا يشجعون أبناء شعوبهم، المتعطشة لثقافتها الأصيلة، على الوفود إلى إسلام آباد لهذا الغرض.

فقد جاء إلى إسلام آباد شباب، نجباء، من تركيا، بعضهم كان في مقتبل دراسة الجامعية، وبعضهم كان يعمل معيدًا ببعض الجامعات، وقد درس الكثيرون منهم العربية والفقه الإسلامي بالمشرب الأزهري، وعادوا إلى بلادهم الشاسعة، وقد حكيت سلفًا - في حكايات الرحلات - أني زرت عاصمة الأتراك السلاجقة، في قلب الأناضول، وبعد الصلاة في مسجدها التاريخي، رحب بنا الإمام الشاب بلغة عربية جميلة؛ فسألته أين تعلم العربية فقال: في الجامعة الإسلامية بإسلام آباد - وكان ذلك في الفترة التي عدت فيها إلى مصر بعد الإعارة الأولى - فسألته هل سمعت بحسن الشافعي، فقال: واللّه، زملائي كانوا يتحدثون كثيرًا عنه، فقلت له: أنا حسن الشافعي ففرح جدًا، وجاء بوالي المدينة وقاضيها، حيث تناولنا الغداء معًا، ثم ودعونا لنرجع إلى مدينة سيواس، ثم إلى استانبول. .

ومن بين أعز طلابي عمومًا - والأتراك منهم خصوصًا - رجلان: الأول هو الذي دعانا إلى رحلة سيواس المذكورة في الفقرة السابقة، وكان يعمل أستاذًا بجامعتها (كلية الإلهيات)، ثم انتقل أخيرًا إلى جامعة مرمرة في العاصمة، وهو الدكتور ياغوث، الذي درس معنا في إسلام آباد في الثمانينات، والأستاذ عمر الفاروق الذي درست له بمرحلة الليسانس ثم في «الماجستير» بإسلام آبا ونصحته - وهو يحفظ ذلك لي - كما هو واجب الأستاذ في إدراك مواهب تلميذه وظروف بلده - بأن يدرس «مقارنة الأديان» بدلا من علم الحديث، كما كان يرغب. وقد تقلب الأستاذ عمر في أنشطة سياسية، وخار اللّه له أخيرًا أن يعمل في مجالين جديدين، بمواهبه المتنوعة هو مجال الإغاثة الإنسانية؛ فهو الآن يشرف على مؤسسة

كبرى واسعة المجال في الخدمة الإغاثية، في العالم الإسلاميّ وخارجه. كما أنه أنشأ معهدًا للدراسات العالية في الإسلاميات وفي اللغة العربية، باستانبول، لخريجي الجامعات التركية ممن لم تيسر لهم فرصة لمثل هذه الدراسات، وقد زرت المعهد صحبة زميلي الدكتور عبد الحميد مدكور، وحاضرت فيه، ومن حسن حظي أن ترجم كتابي «المدخل إلى دراسة علم الكلام» إلى اللغة التركية، ولعل الأستاذ فاروق يستعمل تلك الترجمة بمعهده الفتى، الناهض برسالة إشاعة الثقافة الإسلامية، بهذا القطر القيادي في العالم الإسلامي.

٦- ومن البوسنة والهرسك جاءنا طائفة من أنبغ الشباب، فمنهم من اكتفى بالليسانس كالأستاذ أحمد: الذي يعمل الآن بالتجارة، ومنهم من واصل الدرس والبحث حتى حصل على درجة الدكتوراه كالدكتور فاروق طرزيفتش، من مدينة «آفحصار» أي القلعة البيضاء، ومنها الشيخ البياضي، صاحب واحد من أحسن الكتب في العقيدة، على المذهب الماتريدي، وفاروق من أقرب تلاميذي إليَّ، وأنا على صلة به حيث يعمل الآن، إمامًا للمجتمع التركي في «أوسلو»، وقد تزوج زميلة له من خريجي إسلام آباد أيضًا. وقد درَّستُ هنا في مصر بعد عودتي النهائية إليها - بمرحلة الماجستير - لأحد الطلبة من كوسوفو وهو الآن يوشك أن يحصل على هذه الدرجة من كلية أصول الدين بالقاهرة - جامعة الأزهر.

٧- وإن جاز لي أن أذكر، في هذا السياق اثنين ممن درست لهم خارج النظم التعليمية المنتظمة، فهما صديقان، وإن كانا يعتبرانني

أستاذًا في الوقت نفسه: أما أولهما فالأستاذ ديفيد هيو الذي علمته اللغة العربية أثناء دراستي بجامعة لندن، فحصل منها قدرًا طيّبًا، لأن الأسرة مستعربة كلها تقريبًا: فأخوه الأكبر نال الدكتوراه من الجامعة الأمريكية في القاهرة، عن الكتاب الساخر للشيخ الشربيني في شرح قصيدة أبي شادوف، وترجمته إلى الإنجليزية، ويعمل بالقاهرة. وله أخ آخر يعمل في السودان ويجيد العربية. وقد تردد الأستاذ ديفيد - وهو موسيقار بارز الآن في لندن - على القاهرة أكثر من مرة، وأسمى أحد أولاده من زوجته الأولى «حسن»، وحين لقيته في آخر زيارة له إلى لندن قال: إنك أحد من أسهموا في تكويني العقلي.

أما الآخر فهو الدكتور ري، وهو مستشرق أمريكي شاب، من أصول إيطالية، جاء في التسعينيات لدراسة حركة البنوك الإسلامية، وفي الوقت نفسه لدراسة ما كتاب ابن رشد عن مسألة «المرابحة»، أو ما يسمى «القراض»، في الفقه المالكي، في كتابه «بداية المجتهد ونهاية المقتصد، فقرأته معه، وكنت أشرح الأفكار والمصطلحات بالإنجليزية، كما عرفته ببعض رجال الحركة المصرفية في القاهرة، فعاد ليكتب رسالة، وينال بها درجة الدكتوراه في الموضوع، وليطبع الرسالة، ويكتب في مفتتحها أسطرًا أستحي من ترجمتها، يثني فيها على شخصي الضعيف، لما قمت به معه في إعداد البحث، ويبالغ في ذلك.

٨- بقي الكثيرون من الزملاء الأفارقة - سواء من يحضر معي في السنين العشر الأخيرة بالرواقين العباسي والمغربي بمسجد الأزهر، أو الذين درسوا معي قبل ذلك في إسلام آباد، أو هؤلاء الذين وفدوا

إلى «دار العلوم» بجامعة القاهرة فيما بين ذلك - فقد كنا نستقبل في إسلام آباد، بالرغم من وجود جامعتين في السنغال وتشاد، تشرف عليهما رابطة الجامعات الإسلامية، شبابًا من مختلف الأقطار الأفريقية؛ من جنوب إفريقية، ونيجريا، والصومال، وكينيا، وأثيوبيا، وأريتريا والسودان، والنيجر، وبورو ندى، وغانا، وغينيا، وبعض أقطار الشمال الأفريقي أيضًا.

وفي زيارتي الأخيرة للمغرب لقيني أحد علماء النيجر فقدمت نفسي إليه ليعرفني بنفسه، فقال لي: إني أعرفك جيدًا من تلاميذك الذين قمت برعايتهم في إسلام آباد، فحمدت اللَّه.. ولقيني هناك أيضًا بعض أصحابي في الرواق العباسي يدرسون في فاس الآن وفي الرباط، علوم الشريعة، والاقتصاد الإسلامي، والعقيدة، وأصول الفقه؛ قادمين بعد مرحلة الإعداد بالأزهر لاستكمال دراستهم العليا في الرباط وفاس، وهم من عدة أقطار في وسط وغرب أفريقيا، وخاصة من موريتانيا وساحل العاج، وغينيا.

أما دار العلوم فما تزال - بحمد اللَّه - وثيقة الصلة بطلاب العالم الإسلامي، من إندونيسيا والصين إلى أنحاء أفريقيا، وإن كان ذلك لا يقارن بدور الأزهر في استقبال البعوث من ما يزيد على ثمانين قطرًا من أنحاء العالم الإسلامي وكثير منهم؛ لعنايتهم بالدراسة التقليدية الأزهرية، التي تتسم بالتحليل والموسوعية، يحضرون درسي بجامع الأزهر - والحمد للَّه - بل إن بعض المعيدين من دار العلوم - في أقسامها الإسلامية، يحرصون أيضًا على حضور هذه الدروس التي أحتسبها عند اللَّه - تعالى - وأرى فيها

نوعا من الوفاء ورد الجميل، عني وعن أبي - رحمه اللَّه، للأزهر الشريف.

هذا، ولا بد أن أذكر - في هذا الصدد - تلميذي الأستاذ خالد المؤلف من (من زليتن بليبيا) الذي أرجو له مستقبلًا طيبًا في تطوير مؤسسات التعليم الإسلامي بليبيا، وقد علقنا أملًا كبيرًا على الفقيه الشاب الذي عاد بعد الثورة من الأزهر الشريف، وعمل مساعدًا لفضيلة المفتي، وكان فقيهًا متمكنًا من العلوم الشرعية ريان العقل منها، فاستأثرت به يد القدر، بحلول الأجل، الذي لا يتأخر ساعة ولا يتقدم، وإنا للَّه وإنا إليه راجعون. وقد لقيت أخيرًا في الرباط أحد أصحابنا الليبيين في الرواق العباسي، حين كنا نقرأ «بلوغ المرام» لسعد الدين التفتازاني، يوشك أن يكمل دراسته «للدكتوراه» في العقيدة وعلم الكلام الأشعري هناك، وفي عودتهما وإخوانهما - إن شاء اللَّه - خير كثير.

وفي ختام هذه الحكاية أدعو لأبنائي في مصر، وهم كثر، أن يكونوا بارين بها وبشيوخهم، وأن يعلموا أن العلم يزكو بنشره والعمل به، وأن يحملوا هموم الأمة، ليس في وطنهم فحسب بل في العالم كله، وأن يحسنوا الثقة في التراث فلا تجديد بدون استيعابه، ولكن لتكن عيونهم رامقة للحاضر والمستقبل معًا، يوظفون هذي التراث في خدمتهما، متشبثين بالإخلاص للَّه، والحكمة والموعظة الحسنة، والشجاعة في الحق، وأسألهم الدعاء. والحمد للَّه رب العالمين.

❃ ❃ ❃

(٧٧) في تجربة «مجلس الشورى»

أصر المسئولون بالأزهر الشريف، في إطار الحراك، الذي مرت به مصر بين عامي ٢٠١١/ ٢٠١٣، أن أُمَثِّل الأزهر أولا - مع طائفة من زملائي الكرام منهم المفتي الأسبق الدكتور/ نصر فريد واصل، والدكتور القصبي زلط عضوا هيئة كبار العلماء، الذي فقدناه أخيرًا - رحمه اللَّه. والدكتور محمد مهنا أستاذ القانون الدولي والمستشار القاضي محمد عبد السلام - في اللجنة التأسيسية، التي أعدت دستور ثورة الخامس والعشرين من يناير «٢٠١٢». وقد كتبت عن هذه التجربة المهمة في تاريخنا المعاصر، كتيبًا صغيرًا بعنوان: «شهادة أزهري معاصر على التحول الديموقراطي في مصر» ذاع وانتشر بمصر وخارجها، وأنا أعده «الجزء الأول»، من هذه الشهادة، وإذا نَسَأَ اللَّهُ في الأجل نتبعه بغيره إن شاء اللَّه.

ثم اختارني الأزهر أيضًا، بعد ذلك، عضوًا بمجلس الشورى مع أكثر الزملاء السابق ذكرهم. وقد حرصت من اليوم الأول، على أن أسجل نفسي «عضوًا مستقلًّا» بالمجلس. وإن كنت قد اتفقت مع زملائي على أننا لا نمثل هيئة أو طائفة بعينها، بل نمثل الشعب المصري ومصالحه، وجلست في مقاعد المستقلين، وإن كان مسلكي العمليّ في الواقع أدنى إلى المعارضين، في كثير من الأحيان.

فقد كان المجلس، الذي انفرد - بعد إلغاء «المحكمة الدستورية»

لمجلس الشعب - بالمسئوليتين التشريعية والرقابية، يضم معارضة ليست ضعيفة ولا قليلة، فيها ممثلون لحزب الوفد. وحزب الجيل الذي كان رئيسه يشتد في المعارضة، ويغلو في ذلك بصفة مستمرة. وكذلك حزب النور بكتلته الكبيرة، وصقوره الذين لا يدعون شاردة ولا واردة إلا علقوا عليها وتعلقوا بها، واشتدوا أحيانًا كثيرة في معارضتها.

وكذلك كان بعض ممثلي «المصرين الأحرار»، و«حزب الغد» أيضًا فقد كان أقرب إلى المعارضة منه إلى الموالاة. وبعض الزملاء من سيناء ومرسي مطروح، وبعض الإخوة الأقباط. كانت المعارضة متنوعة متعددة القواعد، وكثير منهم له تجربته البرلمانية السابقة، وأشهد أن رئيس المجلس الدكتور أحمد بدر كان بمساعدة أعوانه كوزير الشئون البرلمانية ولجان المجلس - يقظًا، لا يتجاهل أحدًا، وربما أعطى للمعارضين - لتعدد عناصرهم - مساحة أكبر، مما يناله المؤيدون، أو أعضاء حزب الحكومة وهو «الحرية والعدالة» وهم أكثرية بطبيعة الحال، وكانوا كالعادة يجلسون على يمين المنصة، وفي مقدمتهم - وإن جلس في الصف قبل الأخير - الدكتور عصام العريان، وكان على حصافته وخبرته القانونية يحتاج مزيدًا من المرونة والهدوء، وعمق التواصل مع أعضاء المجلس من غير المؤيدين، أما المؤيدون فهم عادة مع الطرح الرسمي بطبيعة الحال.

على يسار الرئيس، الذي أشهد له بالنزاهة، وسعة الصدر، وهدوء الأعصاب، فلم يكن يخرجه أحيانًا عن حلمه إلا الدكتور شلتوت، ممثل حزب الجيل، كما أشرت آنفًا. كنت أنظر من مجلسي في الصفوف

الخلفية للمستقلين إلى مجموع ممثلي «اليمين» في مواجهتي، ومنهم من لم يعرف له من قبل انتماء إلى الإخوان المسلمين أو حزب الحرية والعدالة. . وأقول في نفسي: للَّه في خلقة شئون، وسبحان من لا يتغير. هل معنى ذلك أني كنت المستقل الوحيد لا، بل لعلي أضيف ممثل حزب «العمل» وممثله الحصيف المتمرس، إلى عداد المستقلين، وربما أضفت إليه الأستاذ بجامعة بني سويف، والثائر الشاب - لعله كهل - ممثل حزب الغد، وممثلي الأزهر: وآخرين معهم - أيًّا كان انتماؤهم - كانوا يميلون إلى استقلالية الرأي والقرار.

كنت أحرص على حضور الجلسات، برغم أعبائي المجمعية والتعليمية، وأقرأ البيانات والمقترحات والمذكرات قبل الجلسة - قدر الإمكان. . وربما فاجأني الرئيس بطلب رأيي، في مسائل ذات أهمية، فأقدم الرأي بحسب القدر الذي قرأت، ويسعفي البيان الأزهري، والموقف الاستقلالي، على تلبية رغبته، بحمد اللَّه. وأذكر من ذلك سؤال سيادته لي عن «قانون الجمعيات» الذي أعتقد أنه كان جيدًا وديموقراطيًّا، فقد حرصت على تأكيد عنصرين: الشفافية، ووضوح الأداء وإعلان الحسابات، من ناحية، وأخرى أهم وهي عدم اشتغال الجمعيات بالسياسة. فمن له رؤية سياسية ويوثر العمل السياسي، للوصول إلى الحكم أو المشاركة في الحراك السياسي، فأمامه العمل الحزبي، لا يحتاج إلا «إخطار» السلطة. أما أن يجمع بين الأنشطة الاجتماعية (إغاثية كانت أو دعوية أو حتى نقابية - وبين العمل السياسي

فهو أمر لا مسوغ له. وقد وافقنا حزب الأغلبية - والحق يقال - على ذلك بعد مناقشة، وحسمت هذه المسألة التي كانت معلقة بإجماع هذا المجلس المظلوم.

وربما سمح لي - في هذا السياق - أن أذكر أمرين آخرين: أولهما، يتعلق بقانون الأزهر «وهو قانون وظيفي عادي، لكن المناقشات تطرقت إلى البنود «الدستورية» الخاصة بالأزهر، في دستور ١٩١٣، واختصاصات هيئة كبار العلماء. وقد تصديت للدكتور العريان الذي وجدت في كلمته بعض المساس - أو النقد المغلف - لبعض هيئات الأزهر، وتابعت ذلك كما سأذكر في لجان المجلس التي شاركت فيها - ومرت المسألة في المجلس، ولكني اشتددت على الدكتور عصام - ممثل الأغلبية - في «كواليس» المجلس، وقد تحملني يومها - جزاه اللّٰه خيرًا - ربما لسني أو لإدراكه حساسية الموضوع.

وأما الأخرى: فكانت بشأن قانون «الصكوك الإسلامية»، وهي معمول بها في بنوك تجارية غربية؛ فقد قام بعرضه على المجلس زميلي الأستاذ الدكتور حسين حامد حسان وأتاح لي السيد الرئيس الفرصة - كما رجوته في مذكرة مكتوبة - أن أناقشه إجمالًا في الموضوع، في أمر تشكيل اللجنة الشرعية المشرفة على تنفيذ الصكوك، وأن يوكل اختيار أعضائها إلى هيئة كبار العلماء بالأزهر، وهم يختارون فيما بينهم رئيسهم، وقد أخذ بذلك الرأي جزئيًا. . وفي قضية البعد الاجتماعي للمشروع، وهذا ما حرصت على إبرازه للمجلس - فالأمر يتعلق

بمليارات.. كما ورد في عرض القانون على المجلس، وضربت أمثلة من المؤسسات والممولين الغربيين الذين نرميهم بالمادية، ومع ذلك فهم لا ينسون البعد الاجتماعي، وإن تركوا ذلك للتبرعات في المجتمع المدني،.. وطالبت بنسبة مئوية - في التعاملات المالية في إطار هذا المشروع - تخصص للأغراض الاجتماعية؛ طبقًا لأهداف ثورة يناير. وهو جانب أغفله المشروع المقدم إلى المجلس.. ولكن المسألة لم تحسم وأحيلت إلى اللجنة الاقتصادية للمجلس... وكان الدكتور حسين حامد - مهندس المشروع - عضوًا بارزًا فيها، وقد حضرت بعض اجتماعاتها، ولم أكن مستريحًا إلى غلبة الحماس والعاطفة على بعض أعضائها. وقد تتابعت الأحداث بعد ذلك، بحيث لم يأخذ القانون كل خطواته لينطلق إلى التنفيذ.. وأحسب أنه سيكون من المسائل التي يرثها البرلمان القادم في مصر.

وشاركت أيضًا في اللجنة القانونية المنوط بها دراسة مقترحات التشريع قبل عرضها على المجلس، وصياغة التعديلات التي يرى الأعضاء إدخالها على مشروعات القوانين .. وما يتعلق بذلك من أمور، وكان معي من الزملاء الأزهريين الدكتور زلط، والدكتور مهنا لاشتغالهما بالفقه والقانون، وأشهد أن رئيس اللجنة الأستاذ محمد طوسون كان ينهض برياسة الجلسات في كفاءة وحياد، وشاركه في العديد منها بحكم مسئولياته وكيل اللجنة.

وحضر بعض الجلسات وزير الشئون البرلمانية، وبعض المستشارين

بحسب طبيعته القانون المطروح، وأشهد أن الأستاذ وطوسون كان حكيمًا هادئًا، وكان أكثر الأعضاء متعاونين في الحقيقة، ولكن الذي كنا نعاني منه هي حماسة - لا أريد أن أقول عصبية - البعض الآخر، ومنهم رئيس حزب الجيل، وأذكر أنه اختلف مرة مع الأستاذ رامي لكح، وتعنف معه، والرجل هادئ لا يرد عليه. فقمت إلى الأستاذ رامي وشكرته وقلت له: لقد أثبت أنك مسيحي حقًّا.. ويومها سمعت جاري من ممثلي جنوب الجيزة يقول لي باللهجة المحلية التي أعرفها جيدًا: «أهو إحنا في المرار ده كل يوم» وكان الدكتوران مهنا وزلط نشيطين في هذه اللجنة، التي كان رئيسها - كما أشرت - ووكيله أيضًا مثالين للاعتدال وحصافة الإدارة. ولم تخل اللجنة من تمثيل نسائي، وقد كان لهن دور في قانون «الانتخاب»، ونسبة المرأة في القوائم ومكانها منها.. وكان همُّ اللجنة ألَّا يتضمن القانون ثغرات تعيده - كسوابق له - إلى الإلغاء وعدم الدستورية وانخرطت اللجنة في مناقشات تفصيلية - حِرْفية - في تقسيم اللجان وتوزيعها على محافظات الجمهورية وهي جوانب تحتاج ممارسة واقعية، وخبرة انتخابية، لا أدعي لنفس فيها قليلًا ولا كثيرًا.

كنت أكبر أعضاء المجلس سنا، كما كنت بين أعضاء الجمعية التأسيسية من قبل. وعلى كل فقد كان الرئيس - حفظه اللَّه - مواظبًا، وقد اضطر مرة واحدة إلى الخروج للقاء بعض المسئولين فتولى رياسة الجلسة - التي تأخرتُ قليلًا في القدوم إليها - زميلي الأستاذ الدكتور حسين حامد حسان، الذي يصغرني بنحو عامين، من حيث السن فحسب.

لعلي أعطيت فيما سبق صورة عن المناخ العام لهذا المجلس الذي لم يكمل العام، وظلم دوره فيما أعتقد، إذ كان المجلس الوحيد -كما أشرت- المخول بالرقابة والتشريع، فكان مثقلًا بالأعباء، وقد تأثر أيضًا بمناخ عدم الاستقرار، الذي عملت على إشاعته عناصر معارضة خارج المجلس، وحين بدأت أصداء ذلك تدخل المجلس نفسه، ويتعرض بعض ممثلي المعارضة لرئيس الجمهورية، قمت في الحقيقة بأمرين:

أولهما أشرت إليه فيما كتبت عن ثورة يناير بوجه عام، واللجنة التأسيسية لدستور ٢٠١٣ بوجه خاص، وهو أني إحساسًا بمسئوليتي ممثلًا للشعب لا لهيئة خاصة بمجلس الشورى، حرصت على الاستماع إلى الصوت الآخر، والتقيت الأستاذ عمرو موسى - العضو البارز للجنة التأسيسية، والمنسحب في الشهر الأخير، وأحد أقطاب المعارضة. وذلك في مكتبة بجاردن سيتي، وكان الرجل معقولا، يطرح ملاحظات المعارضة ومطالبها، ويقول: إنه لا يشارك المنادين بعدم استكمال الرئيس المنتخب لمدته القانونية، ويؤثر التصرف الحضاري الدستوري في هذا الشأن. وهو الانتخابات المبكرة كما ذكر، وهو رئيس لجنة الخمسين التي أنجزت - فيما بعد - دستور ٢٠١٤ في نحو شهر واحد، ولكن ذلك كان في ضمير الغيب - ذكر مآخذه على الدستور الذي أقرته الجمعية التأسيسية التي انسحب منها في ستة أشهر، وقلت له: إن هناك فرصة «دستورية أيضًا» لتلافي ما عساه وقع في الوثيقة من مآخذ شكلية، أو موضوعية. كما كانت له ملاحظات بشأن الحكومة القائمة حينذاك، وإمكانية تعديلها.

والأمر الثاني: أسجله هنا في ختام حديثي عن تجربة الشورى، وهو أنني كتبت - وهذا مما أشرت إليه في سياقات أخرى دون تحديد، حتى لا يؤخذ عندئذ على غير وجهه - إلى السيد الأستاذ الدكتور أحمد بدر رئيس مجلس الشورى خطابًا رسميًا، سلم إلى إدارة المجلس، على يد مساعدي الأستاذ علي شمس الدين، لأني كنت يومها في طريقي إلى رحلة خارج البلاد، حيث قضيت بضعة أيام في باريس، ومررت في طريق عودتي بتونس، وشاركت في ملتقى عرضت فيه بأمانة طبيعة الحراك والفكر الثوري في مصر، وأحسست بمزيد الحاجة إلى التواصل مع المواطنين المصريين، وغيرهم من العرب والمسلمين في العالم العربي، وفي الخارج.

وأثق أن هذا الخطاب محفوظ فهذا في أمانة المجلس، وأعلن الآن فحواه وهو وجوب القبول بانتخابات رئاسية مبكرة، فتلك وسيلة ديموقراطية، تلجأ إليها الشعوب عند غلبة الخلاف، لرد الأمر إلى الشعب صاحب الحق الأول والأخير. فإن أكد الشعب اختيار الرئيس المدني الأول في تاريخنا الحديث، فهو تأييد وقوة له مضافة. وأن كانت الأخرى فلا ينبغي أن يؤم المرءُ قومًا، وهم له كارهون. وكنت حينئذ أعتقد، أن الرئيس يقبل هذا المنطق، لو عرض عليه دون ضغط أو إملاء.

كان هذا هو خطابي وموقفي ولكن الأمور جرت في اتجاه آخر، وسبحان من بيده ملكوت كل شيء. وهو ولي ذلك والقادر عليه. ولن تتخلى عنايته - عز وجل - عن المحروسة مهما احتدم الأمر، وتداخلت الأحداث.

❁ ❁ ❁

فهرس الحكايات



دَار الغَرب الإسلامي

تـونــس

لصاحبها : الحبيب اللمسي

6 نهج الدالية بالفي - تونس ـ فاكس : 45 65 39 71 - 216 خليوي : 42 28 63 29 - 216

DAR AL-GHARB AL-ISLAMI – B.P.: 677 - R.P. 1035 TUNIS – E-mail: LM@GNET.TN

الـرقـم : 544 / 1000 / 03 / 2015

التنضيد : المؤلف

الطباعة : دار صادر ـ بيروت ـ لبنان

